

حكايتي بعد التسعين

عبدالعزیز العلی النعیم



حكايتي بعد التسعين

الكتاب: حكايتي بعد التسعين

المؤلف: د. عبدالعزيز علي النعيم

التصنيف: سيرة ذاتية

إعداد وتحرير: أحمد الحامد

صورة الغلاف: عبدالله العصيمي

مصمم الغلاف: حسين آل حامد

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: سبتمبر (أيلول) 2020

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 4 - 796 - 429 - 614 - 978 - ISBN:

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

الرياض:

7917 شارع التخصصي، حي النخيل، الرياض، المملكة العربية السعودية

7917 Takhassusi St, Al-Nakheel District , Riyadh, Saudi Arabia

Zip Coed: 12383-4284, Riyadh, Saudi Arabia. Tel: +966 114541148

بيروت:

فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت-لبنان
P.O.Box: 50074, Forn Elchebbak, Lebanon.

دبي:

مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي- الإمارات العربية المتحدة
P.O.Box: 333577, Dubai, UAE, Tel: +971 4 380 4774, Fax: +971 4 380 5977

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من مدارك.

mdrek.com

read@mdrek.com

DarMadarek

د. عبدالعزيز علي النعيم
حكايتي بعد التسعين

الفهرس

- (١) عنيزة .. مزيج الذاكرة والنسيان ١١
- (٢) عبد العزيز.. جمار كبدي ١٦
- (٣) الروبيان في عنيزة! ٢٠
- (٤) الحدره باتجاه البلقاء ٣٢
- (٥) وصايا أمي ٤٠
- (٦) الكتاب: بداية تشكّل الحرف والحلم ٤٤
- (٧) صياد لؤلؤ ٥٢
- (٨) احتفال ذكوري! ٥٥
- (٩) عنيزة تشارك في الحرب ٥٩
- (١٠) بين «الكعابة» واليوتيوب ٦٢
- (١١) خليط العملات ٦٩
- (١٢) مدرسة العيزية ٧١
- (١٣) لهجة أهل عنيزة ٨٣
- (١٤) «سكرية يا مالة عنيزة» ٨٨

- (١٥) رحلة صيد ٩٣
- (١٦) سيبويه أخي! ١٠٠
- (١٧) طيب نوق! ١٠٩
- (١٨) معلمون في عنيزة ١١٥
- (١٩) علامات فارقة من عنيزة! ١١٨
- (٢٠) الذئب والأغنام ١٢٥
- (٢١) زواج بين عنيزة وبريدة! ١٣١
- (٢٢) بداية التفكير بدراسة الحقوق ١٤٠
- (٢٣) أخي عبد الله ١٤٦
- (٢٤) أصبحت معلماً ولم أحصل على الشهادة
الابتدائية! ١٥٦
- (٢٥) الزواج في العشرين ١٦١
- (٢٦) عشقي للخط العربي ١٧١
- (٢٧) أول إذاعة في عنيزة ١٧٦
- (٢٨) بريدة أكثر جسارة! ١٨٠

- (٢٩) سعد الخويطر! ١٨٢
- (٣٠) الدرس الذي حفظته جيداً ١٨٥
- (٣١) وداعاً عزيزة ١٨٧
- (٣٢) أعزب في الرياض ١٩٣
- (٣٣) أول فيلا في الرياض من غرفتين! ١٩٨
- (٣٤) إلى القاهرة ٢٠٨
- (٣٥) وحيداً في القاهرة ٢١١
- (٣٦) أولادي في الأورمان وأنا في الحقوق ٢١٧
- (٣٧) درست قانون المواريث على حصيرة المسجد!
٢٣١
- (٣٨) ولادة هدى.. البنت الوحيدة بعد أربعة أولاد ٢٤٢
- (٣٩) عزيزية على شاطئ الإسكندرية! ٢٥٢
- (٤٠) الذيب في الجليب! ٢٥٦
- (٤١) وأخيراً... إنسان بلا عيّارة! ٢٦٠
- (٤٢) غازي القصيبي في القاهرة ٢٧٤

(٤٣) وداعاً لعهد الأوتوبيس! ٢٧٩

(٤٤) الماجستير ٢٨٢

(٤٥) العودة إلى الرياض ٢٨٦

(٤٦) فراغ قاتل! ٢٨٩

(٤٧) منحة! ٢٩٨

(٤٨) الدنيا، فرقة كعب! ٣٠١

(٤٩) في القاهرة من جديد ٣٠٤

(٥٠) الكسل الحلو! ٣٠٩

(٥١) دكتور عبد العزيز! ٣١٣

(٥٢) من فيلا بغرفتين إلى عمارة! ٣٢٣

(٥٣) في هيئة الخبراء! ٣٣٢

(٥٤) وفاة والدي ٣٣٩

(٥٥) في مجلس الشورى ٣٤٣

(٥٦) وفاة ابني يوسف ٣٤٧

(٥٧) إبليس ولا إدريس! ٣٥٠

(٥٨) خروف الرئيس ٣٥٧

(٥٩) «أم محمد» رفيقة دربي ٣٦٥

(٦٠) مد لحافك على قد رجلك! ٣٧١

(٦١) زوجة ثانية! ٣٧٤

(٦٢) بالحب تحيا الذكريات! ٣٧٦

إلى روح زوجتي أم محمد حصة عبدالله القرعاوي رحمها الله، وإلى زوجتي
لولوه محمد التركي، وأبنائي الدكتور محمد والدكتور عبدالرحمن والدكتور
أحمد والأستاذة هدى، وأحفادي الدكتور بدر والمهندس طارق والمهندس
عبدالعزیز والمهندس أحمد أبناء إبنی يوسف.. أهدي هذا الكتاب.

(١)

عنيزة .. مزيج الذاكرة والنسيان

عمري الآن ٩٣ عاماً، ولا أعلم ما الذي منعني من الكتابة عن هذه السنوات الطويلة كل هذه المدة، لا شيء... سوى أن الفكرة لم تخطر في ذهني قبل ذلك... أشعر بأن ما تبقى من ذاكرتي هو من دس فكرة حفظ الذكريات التي مازالت عالقة منذ أيام الطفولة مروراً بهذا المشوار الذي أوصلني الى هذا الرقم، ٩٣ عاماً... سقط من أيامها الكثير من الذاكرة... وما الذي سيتذكره شيخ مسن اعتاد أن يجيب بعض أصحابه وأفراد أسرته بكلمة «ما أذكر»؟!، لكنني وفي أحيان ليست بالقليلة تجتمع في ذاكرتي العديد من الذكريات والصور والكلمات، الحارة القديمة ودكان أبي وبيوت الطين والرياض والقاهرة والجامعة وهيئة الخبراء(١) ومجلس الشورى(٢)، دعوني أتفق معكم على شيء منذ الآن، أنا مزيج من الذاكرة والنسيان، وسأحكي لكم ما أتذكره، ثم أعود لأحكي لكم ما تذكرته مما كنت قد نسيت، هل أحسنت التعبير وأوصلت الفكرة؟ أرجو أن تتفهموا ذلك، وأعدكم بأنني لن أكرر حكاية بعض القصص كما أفعل الآن مع أبنائي وبعض أصدقائي، ففي بعض الأحيان أشعر وكأنني تذكرت حكاية أو موقفاً قديماً، فأنتلق في الحديث وبهذا الصيد الثمين من الذاكرة... لأتفاجأ بأن لا أثر من الدهشة والاهتمام على وجوه من يستمعون، حينها أتوقف عن الحديث متسائلاً: أسبق وذكرتها لهم؟

عندما قررت نشر مثل هذا الكتاب عملت على تحفيز الذاكرة قدر المستطاع، وقد عرف عني قوة الحفظ، وأجزم أن هذه القوة وإن ضعفت كثيراً إلا أنها هي من حفظت لي هذه الصفحات التي بين أيديكم، هل تصدقون بأنني مازلت أحفظ معظم الأناشيد والقصائد التي حفظتها قبل أكثر من ٨٠ عاماً عندما كنت أدرس في المرحلة الابتدائية! هذا بعض من ذاك المزيج، مزيج الذاكرة والنسيان الذي اتفقت معكم بشأنه.

ولدت في مدينة عنيزة(٣)، وتحديدًا في حارة كانت تسمى سوق الخننه، نسبة للخنيني(٤)، وتقع حارتنا في منطقة تسمى سوق الطمان(٥) وقد يكون سبب التسمية عائداً لكون المنطقة منخفضة تغمرها السيول والمياه في الشتاء، وقد قالت لي أمي رحمها الله بأنني كنت أتشكل في بطنها عندما دارت معركة السيلة(٦) عام ١٣٤٧ هجرياً، وأنها كانت لا تعرف كيف تهرب من تلك المعركة خوفاً وحفاظاً على جنينها، خرجت للحياة بعد تلك المعركة لأجد

أنني أعيش في بلد موحد ومستقر، أليس هذا حظاً رائعاً وتوفيقاً من الله عندما تولد وتعيش في بلد آمن ومطمئن؟ بلي... ولطالما كنت أرى أن وجود رجل بمواصفات الملك عبد العزيز -رحمه الله- في تلك الفترة التي ولدت فيها وكل أبناء جيلي والأجيال اللاحقة في كل أنحاء المملكة كان حظاً رائعاً وبركة للناس يرسلها الله من خلال وجود حاكم قوي وعادل، لن أحاول أن أصغر من عمري سنة واحدة، فمن هو في مثل عمري لن يبدو أصغر سناً إذا ما قال بأن عمره ٩٤ أو إذا قال ٩٢ عاماً، أقول ذلك لأن مواليدي التي تم تسجيلها على الورق تشير إلى الخامس عشر من شعبان عام ١٣٤٧ هجرياً، بينما أنا ولدت في العام ١٣٤٨ وقد ذكر لي والدي ذلك أكثر من مرة، قد لا يبدو ذلك مهماً لكم لكنه شيء له خصوصية بالنسبة لي لأنه العام الذي ولدت فيه، لم أغير المواليد في الأوراق لكنني لم أغفل يوماً عن أي فرصة أستطيع فيها أخبار زميل أو صديق لي أنني في الواقع أصغر سناً بعام واحد مما هو موجود على الورق إذا ما جاء ذكر العمر والسنين.



عنيزة أقدم مدن منطقة القصيم، وهي ثاني أهم مدينة في المنطقة. ويرجع سبب تسميتها بهذا الاسم إلى تل (أكمة) الذي كان يكتسب اللون الأسود، وكان العرب يطلقون على الأكمة السوداء كلمة العنز بضم العين وسكون النون، واسم عنيزة تصغير لهذه الكلمة، وعنيزة محافظة أكسبها موقعها الجغرافي أهمية خاصة لأنها تتوسط المسافة بين بلاد العراق وفارس ومع مكة المكرمة والمدينة المنورة مما جعلها محطة استراحة لحجاج تلك الجهات.

عبد العزيز.. جقار كبدي

والذي هو علي صالح عبد العزيز النعيم من مواليد المذنب*، أمه نورة العبد العزيز الخريدي، تزوج من مضاوي العليان وأنجب منها أخي الأكبر صالح، ثم توفيت والدة أخي صالح فتزوج والذي بعد ذلك بوالدي وعاش معنا أخي صالح، كنت أشعر دائماً بعاطفة والذي الظاهرة تجاه أخي صالح محاولاً تعويضه عن فقدانه لأمه، أبقاه بجانبه في دكانه وعلمه البيع والشراء، لم يحصل أخي صالح على التعليم في طفولته لكنه تمكن من الحصول على الابتدائية بعد أن كبر وتزوج فاستطاع أن يقرأ ويكتب.

أمي هي سلمى عبد الله حسن النعيم، وكان والدي في الخمسينيات من عمره عندما تزوج أمي، وعندما كبرت وصرت أعي أمر الحياة كان الشيب قد خضب لحيته.

أما أنا (عبد العزيز) فكنت المولود الأول لأمي -رحمها الله-، والثاني لوالدي بعد أخي صالح، عدد أبناء والدي ووالدي سبعة هم أنا وأخي عبد الله وأخي عبد الرحمن وأختي نورة وأختي منيرة وحصه وموضي، ومنذ ولادتي كنت مادة دسمة لبقية الأطفال للتندر على سمنتي التي كانت واضحة، لم يتردد الصبية في حارتنا بإطلاق عيارة (Z) أو لقب (الدرام) أي البرميل!، لم تكن تلك الألقاب التي ينالها الأطفال والصبية بالشيء الغريب في كل الحارات، ولم تكن عيارة (الدرام) الوحيدة لي، لقد كنت طفلاً مميزاً بنيل أكثر من لقب، وذلك لأنني ولدت وأنا مصاب بحول في العين، وكان حولاً شديداً، فاستحقيت بهذا التمييز الحصول على عيارة أخرى وهي ١١ (إحدعش)، ذلك أن بعض الصبية الذين يودون ممزاحتي أو إغضابي كانوا يرفعون إصبع السبابة في وجهي قائلين (إحدعش) أي إني وبسبب الحول في عيني أرى الشيء مكرراً فتصبح السبابة سبابتان وهما بذلك يشكلان الرقم ١١، لم يكن هذا الأمر صحيحاً، فلم أكن أرى الشيء مكرراً، لكن إقناع الصبية بهذه الحقيقة أمر لا طائل منه، فرضيت بنيل اللقب مدة حتى كبرت وتخلصت منه، ولا شك لدي أن صبيلاً آخر سواء في عنيزة أو في الأماكن الأخرى قد نال هذا اللقب من بعدي!

كانت والدتي امرأة مسالمة، ولم تكن تتدخل في المشاكل التي تحدث بين الأطفال والصبية عادة، لكنها كانت تحبني حباً شديداً، لا أعلم إن كان الحول الذي أصاب عيني ضاعف من عاطفتها تجاهي، ذلك أنها أكثر من مرة عندما كانت تراني باكياً أو شاكياً من ظلم وتنمر أحد الصبية كانت تخرج وتبحث عن ذاك الصبي حتى تصل إليه وتقول له: «ما لقيت غير عبد العزيز تضربه... ما لقيت غير جمّار كبدي!؟» وجمارة الكبد هنا نسبة الى كبد البعير، وفي كبد البعير جزء سميك يسمى بالجمّار.

في تلك الحارة كان مسقط رأسي، واكتشفت لاحقاً أنه كان سقوطاً في بحر الحب للمكان، ما أجمل أن تعشق المكان الذي ولدت وعشت فيه مرحلة من عمرك، الشعور بهذا الحب نعمة يفتقدها أولئك الذين شاءت أقدارهم أن يولدوا ويعيشوا في مكان لم تربطهم به هذه العاطفة، مضى هذا الزمن سريعاً، فمازلت أذكر وجه طفولتي وهو يلعب مع أصحابه في تراب تلك الحارة، متعتي وأنا أدس في جيبي لب القرع الأبيض الذي اشتريه من بقالة حارتنا، ووجه صاحبها صالح العبد الله الشبيلي، كأنني أسمع صوته الآن وليس منذ ما قبل خمسة وثمانين عاماً، أرى ضوء الشمس الساقط على تلك الصناديق الخشبية في البقالة، تلك العلب على الأرفف، بالمناسبة... صالح الشبيلي هو والد الأديب والإعلامي عبد الرحمن الشبيلي، -رحمهما الله جميعاً-، ورغم فارق السن بيننا إلا أن بعض الألعاب التي كنا نلعبها جمعتنا سوية.



* المذب إحدى محافظات منطقة القصيم

الروبيان في عنيزة!

لم تكن تتعدى مساحة بيتنا خمسة وعشرين متراً، كان بيتاً مبنياً من الطين مثل كل بيوت عنيزة آنذاك، يقع في آخر الممر الضيق الذي لم يكن يتجاوز أحياناً مساحة متر واحد، وكانت المئاعب -وهي خشبة سميكة تحفر كأنها نصف ماسورة-، جزء منها يثبت بالجدار الذي تفتح فيه فتحة صغيرة تتجمع بها الأمطار لتقوم المئاعب بتصريفها في موسم الشتاء، كانت هذه المئاعب تلقي بمياهها فوق رؤوس المارة نحو الممر الضيق، ولم أكن أستطع أن أتحاشى البلل منها، وإذا ما تحاشيت البلل من واحدة وقعت في مصيدة أخرى، ومازلت أذكر كيف كان والدي -رحمه الله- يجفف ثوبي وهو يضعه قرب موقد النار في البيت بينما أقف أنا منتظراً أن يجف، لكن بيتنا كان مؤلفاً من أربع طبقات، في الدور الأرضي كان هناك ما يسمى بالمقدمة وهي مساحة مخصصة لبقرة أو بقرتين وبعض الأغنام، ومن هذه الحيوانات نحصل على الحليب والزبدة، ثم على اليمين غرفة للقهوة واستقبال الضيوف، في يسار هذه الغرفة موقد النار (الوجار) وصندوق توضع عليه الأباريق (دلال القهوة)، ثم صندوق آخر توضع فوقه علب معدنية بداخلها (الجاز) الذي كان يأتي من عبادان (8) والكويت، ومازلت أذكر كيف كانت الإبل تحمل صناديق الجاز، كل صندوق داخله (تنكتين) وكل جمل يحمل أربعة صناديق، وكان مطبوعاً على التنكة (اسم) الشركة المصنعة (ساكوني فاكوم (9))... ما رأيكم بقوة الذاكرة؟ بإمكانكم أخذ المزيد من الوقت للحكم على قوتها أو ضعفها!، وكان في الدور الأرضي أيضاً غرفة صغيرة يطلق عليها اسم (الجصة) وهي المكان الذي يخزن به التمر، وغرفة أخرى كمستودع يوضع فيه التبن وهو القش لإطعام الحيوانات، وكنا نستخدم هذه الغرفة أحياناً للنوم، وفي الساحة أمام الغرفتين، مساحة تعلّق فوقها قرب مياه ومساحة مخصصة للرحى لطحن الحبوب، لم تدخل مطاحن الدقيق إلى عنيزة إلا بعد فترة طويلة جداً عندما جاء رجل من المدينة المنورة اسمه عواد وافتتح أول مطحنة تعمل بالآلة، وكان في الدور الأرضي أيضاً مساحة لتعليق القربة وهي ما يصنع من جلد الأغنام لحفظ الماء، وكان يوضع في المكان نفسه ما يسمى بـ «صميل اللبن» وهي قربة خاصة باللبن وتصنع فيها مشتقات اللبن مثل الزبدة، واللبن كان الشراب الأول لنا، وقد يصح القول بأنه الشراب الرسمي في عنيزة كما تسمى بعض المشروبات الغازية اليوم بأنها المشروب الرسمي لبطولة رياضية ما. أما الطابق الأول فكانت فيه غرفتا نوم ومصباح صغير، ثم درجة صغيرة تأخذك

للموقد الذي يطبخ به الأكل وهو بمثابة المطبخ، ثم غرفة الروشن وهو مخزن عادة للحطب كما تخزن به بعض اللوازم الأخرى .

أما الطابق الثالث فجزء منه سطح وفيه درجات تنقلنا إلى الطابق الرابع، هناك توجد غرفة روشن بداخلها غرفة أيضاً، كنا نضع بداخلها البصل الأحمر والقرع والجراد الناشف، نعم... نضع فيها الجراد لنأكله، قد يكون هذا الأمر عادياً لبعض القراء، لكنني أعلم أن قراءاً آخرين خصوصاً الشباب يكاد هذا الأمر يدعوهم للتقيؤ أو الاشمئزاز، الأمر ليس كذلك صدقوني... كل ما أريده منكم أن تمهلوني قليلاً وأن تنظروا إلي الأمر دون حكم مسبق، الجراد تعيش على اليابسة وأنت الذي تشمئز من أكلها.. هل فكرت يوماً ما الذي قد يماثل الجراد من الحيوانات البحرية؟ هل فكرت في ذلك يوماً؟.. إذن فكّر معي الآن.. إلى ماذا توصلت؟ الروبيان... نعم فهي قريبة من شكلها وإذا ما أخذت الأمر على هذا النحو فستسهل عندك الأمور، قانت غالباً تحب الروبيان، ونحن الذين كنا نعيش في ذلك الوقت كنا نحب ونأكل الجراد، لأنه لذيذ فعلاً ولأننا لم نكن نملك خيارات كثيرة، صدقوني إذا تذوقتم الجراد يوماً سيتغير حكمكم الذي ظلمتهم به كل الجراد، ولو كان للجراد لسان كلسان البشر لقال لكم: لقد أضعتم وقتاً طويلاً دون أن تذوقوني... لقد عانيت من عدم معرفتكم لطعمي وحكمكم المتسرع لمجرد أن شكلي لا يعجبكم... بينما تأكلون الروبيان رغم أن له شكلاً غريباً وعشرات الأقدام!...، الجراد يا أعزائي نوعان (المكن) وهي أنثى الجراد، و(الزعيري) وهو ذكر الجراد، والفارق بينهما واضح من خلال اللون، الذكر لونه أصفر، والأنثى يميل لونها إلى (البيج) وذيلها أطول، وهي تحفر الأرض بذيلها إذا ما أرادت وضع بيضها وعددها ٩٩ بيضة، ولها عينان تبدو وكأنها تنظر بهما إلى أعلى دائماً، نصف نظرتها تلك ونقول: (عيونها طائرة!) ويقال إن سبب نظرتها الحائرة تلك هو حزنها على ابنها رقم مئة الذي مات تاركاً أخوته التسعة والتسعين وأمه الحزينة على فراقه!، عندما نصطاد الجراد لطبخها يكون ذيلها مليئاً ومكتنزاً، أما طعمه الذي يجهله الكثير فيشبهه طعم صفار البيض، إذا قمنا بتجفيف الجراد فإنه يبقى صالحاً للأكل لعدة أشهر، الأصفر الزعيلي في بعض الأحيان كنا نأكله يابساً، هل تعلمون لماذا؟... لأنه مقرمش!، أرجو أن لا يعتقد أبناء هذا الجيل بأنهم الوحيدون الذين استمتعوا بالطعام المقرمش، نحن أيضاً كانت لنا قرمشتنا، هل تعرفون من الذي لا يحب وجود الجراد؟ نعم إجابة صحيحة... إنهم المزارعون لأنه يأكل زرعهم، لكنني لم أكن أبحث عن هذه الإجابة، هناك آخرون لا يحبون وجود الجراد... إنهم يأتعون اللحوم.. كان هناك مثل شهير في ذلك الوقت يقول: «الجراد يرخص اللحم»،!، وهناك مثل آخر يظهر فائدة أخرى للجراد، يقول: «إذا جاء الجراد كب الدواء!» لأن الجراد يأكل من كل شجرة ويشكل بذلك خلطة علاجية في جسده، بعكس الفقع (الكما) ففي

موسمه كان يقال: حافظ على الدواء لأن الفقع يكون به أتربة وقد تؤثر على معدة الإنسان، يتم غلي الجراد وهو حي، أرجو أن لا تنظروا لهذه العملية على أنها قسوة... إن قتل الجراد حتى نتمكن من طبخه مسألة غير عملية وغير منطقية، كيف سنستطيع قتل الجرادة دون أن يؤثر ذلك على جسدها، إن عملية ضربها حتى تموت سيسحق ما كنا نريد أكله، لذلك كان طبخه وهو حي أو الحصول عليه وهو ميت من تلقاء نفسه هو الطريقة المثلى لنا والتي قد لا تكون مثلى له، عموماً لم أسمع يوماً الجراد وهو يشتكي من طريقة طبخه، الجراد لا يأتي كل موسم ولا يريده المزارعون كما ذكرت لأنه يأكل محصولهم، أذكر عندما جاءت النقطة الرابعة (10) التابعة للأمم المتحدة وكانت مهمتها مكافحة الجراد وكان عمري وقتها اثنتا عشرة سنة تقريباً، إن مكافحة الجراد مهمة ليست بالسهلة فأعداده عندما يأتي لا تقاس بالعدد بل بالكيلو مترات للدرجة التي يحجب فيها ضوء الشمس، يقال ولا أعلم عن دقة ما قيل إن الملك اليماني أحمد حميد الدين قال للنقطة الرابعة عندما وصلت إليهم: لا تكافحوا الجراد لأنه يأكلنا ونأكله، مازلت أذكر النقطة الرابعة عندما جاء موظفوها لعنيزة وكان ذلك حدث يوم أمس، جاؤوا بسياراتهم وكان معظم العاملين من العرب وكان من بين العرب صوماليون وكان من المعروف لدينا آنذاك أن الصوماليين شعب مثقف ومتعلم وكانت ظروفهم لا تشبه ظروفهم اليوم على الإطلاق، أعود للجرادة اللذيذة فهي عندما تغرس بيضها في الأرض يفقس البيض بعد مده فتخرج منها حشرات صغيرة سوداء نسميها القعيسي، فإذا كبرت سميت بالبرقان، ثم إذا كبرت بدورها تسمى الكتفان، وهي بكل هذه المراحل تمشي على الأرض ولا تستطيع الطيران، ثم تتحول إلى خيفان وهي المرحلة الأخيرة التي تسبق الطيران، والجرادة بكل هذه المراحل تكون صالحة للأكل، وجود الجراد يفتح فرص عمل موسمي لبعض الذين يعملون على مكافحته مقابل أجر معلوم، كان صغير الجراد يسمى بالدبا وكان البعض يعمل في اصطیاده قبل أن يصل إلى البيوت، كانوا يحفرون حفراً طويلة في الأرض، ليأتي الدبا ماشياً على أرجله فيسقط في الحفرة لأنه في مرحلة عمرية لا يستطيع فيها الطيران، كان بعض الناس الذين يحبون الخير للآخرين إذا ما رأوا أسراب الجراد في مكان قريب مشى في السوق وقال بصوت عال: «يا جرادة تری الجراد بالمكان الفلاني»، كان إبلاغ أحدهم عن مكان الجراد يعتبر تصرفاً اجتماعياً خيراً إذ كان يُراد به كسب الأجر ويرى أن تصرفه هذا واجب ينتفع به الآخرون، فيذهب البعض ويقومون باصطياده، الجراد لا يطير في الليل، إذا كان الطقس بارداً فبإمكانك أن تجمعهم بيدك لأنه لا يتحرك، وإذا كانت المنطقة صخرية فإنه يدخل تحت الصخور والتجاويف، فكنا نقلب الصخور ونجمعه، عندما أصبحت معلماً وذهبت في إحدى المرات لصيد الجراد رفعت صخرة فوجدت تحتها عقرباً فخفت منه، فجاء أحد الطلبة وهو ينظر لي مبتسماً فقلت له: «أقتله»، فقال

الطالب: «لا... أنا صاحبه وهو صاحبي والأصحاب لا يقتلون بعضهم!»، فحمله بيده فمشى العقرب على ذراعه دون أن يلدغه! لقد كانا يبدوان وكأنهما فعلاً يعرفان بعضهما وبيئتهما ود، خصوصاً من الطالب الذي كان ينظر للعقرب نظرة حب وديعة، سألته مستغرباً ماذا فعلت؟، لم يقل لي شيئاً، لكنه كان قد تمتع ببعض الكلمات لا أعرف ما هي بالضبط، عندما أنزل العقرب من يده قمت بضربه وقتله، حتى لا يلدغ أحداً خصوصاً وأنه كان هناك بعض الناس في الأرجاء، قلت للطالب بأنني قتلته، ابتسم وراح يبحث عن صديق آخر، سليمان أبو علي وهو أحد الأصدقاء قال لي إنه كان يحطب في منطقة اسمها صعايق (11) شرق عنيزة في نفوذ به غضى، يقول: عندما انتهيت من الحطب أردت أن أخبز الخبز فهبط الجراد علينا، فأردف، أي إن الذكر كان فوق الأنثى، أخرجت القدر وجمعت الجراد وتعشينا من هالممكن (12)، ترك الناس الجراد عندما تحسنت الظروف بصورة عامة، كانت إمكانية مكافحته ضعيفة، وكنت أحب أكل الجراد على عكس آبائى الذين لا يقبلون نهائياً أن يأكلوه بل ولا يحبون رؤيته حتى، لو أن آبائى عاشوا في الزمن الذي عشت فيه لاختلفت نظرتهم إليه ولأكلوا منه حتى شبعوا ولتحدثوا عنه كما أتحدث عنه الآن، إنه تغير الأزمنة، قد يكون الجراد سعيداً بهذا التغير كوننا وجدنا أصنافاً أخرى من الأظعمة، نجدها في الأسواق دون أن نسعى في البحث عن الجراد بعد أن يبلغنا أحد الأفاضل وهو يمشي في السوق قائلًا يا جرادوة... ترى الجراد في المكان الفلاني!، لقد ذهبت بعيداً عن وصف بيتنا، ذهبت لوصف الجراد الذي أحبه، لا لوم علي، كل يرى أن ما يحبه جدير بالاهتمام والحب، أما الذين لا يحبون شيئاً ما، فإنهم يرون اهتمام الآخرين بما يحبون ويعشقون عبثاً ومضيعة للوقت! أعود للطابق الثالث في بيتنا، كما ذكرت لكم يوضع في هذه الغرفة عادة البصل والقرع والجراد، أما الدور الرابع فكان عبارة عن سطح كبير، أما السطح فهو مرتبط دائماً بذكريات تلك الليالي الصيفية والربيعية، كان السطح مكاناً للنوم في الصيف، لم تكن كل تلك الليالي مريحة، فراحتك معلقة بالهواء، تماماً بالهواء، فإن كان هناك هواء متحرك يبعث بالنسبات المنعشة ننام بشكل جيد ومريح، أما إذا لم يكن هناك هواء فالنوم يصبح سيئاً ومزعجاً، ليس ذلك فقط، فإن كنا نحن ننزعج من انعدام حركة الهواء فقد كان هناك من يسعد بذلك، إنه البعوض، أشعر أنه كان يبتهج كثيراً عندما يكون الهواء ساكناً فيقيم حفلات امتصاصه لدمائنا على ساحة أجسادنا، يتجمع البعوض من كل جانب ويصبح نومنا متقطعاً من كثرة ما كنا نستفيق كل مرة من شدة كل لسعة تلسعنا فيها بعوضة، كنا كالأسرى المقيدون الذين يتلقون الضرب من سجانينهم!، تصل إلى مستوى سطح بيتنا نخلة لجارنا وكانت من نوع (روثانا) كانت ذات ثمر أصفر، كنا ننظر إليه وهو (يخرفها)، كان كريماً وقد عودنا عند الانتهاء من خرفها أن يملأ كفيه من البلح ويلقى به نحونا، وخراف النخل مهنة، خراف النخلة هو جنى الثمر وقطفه

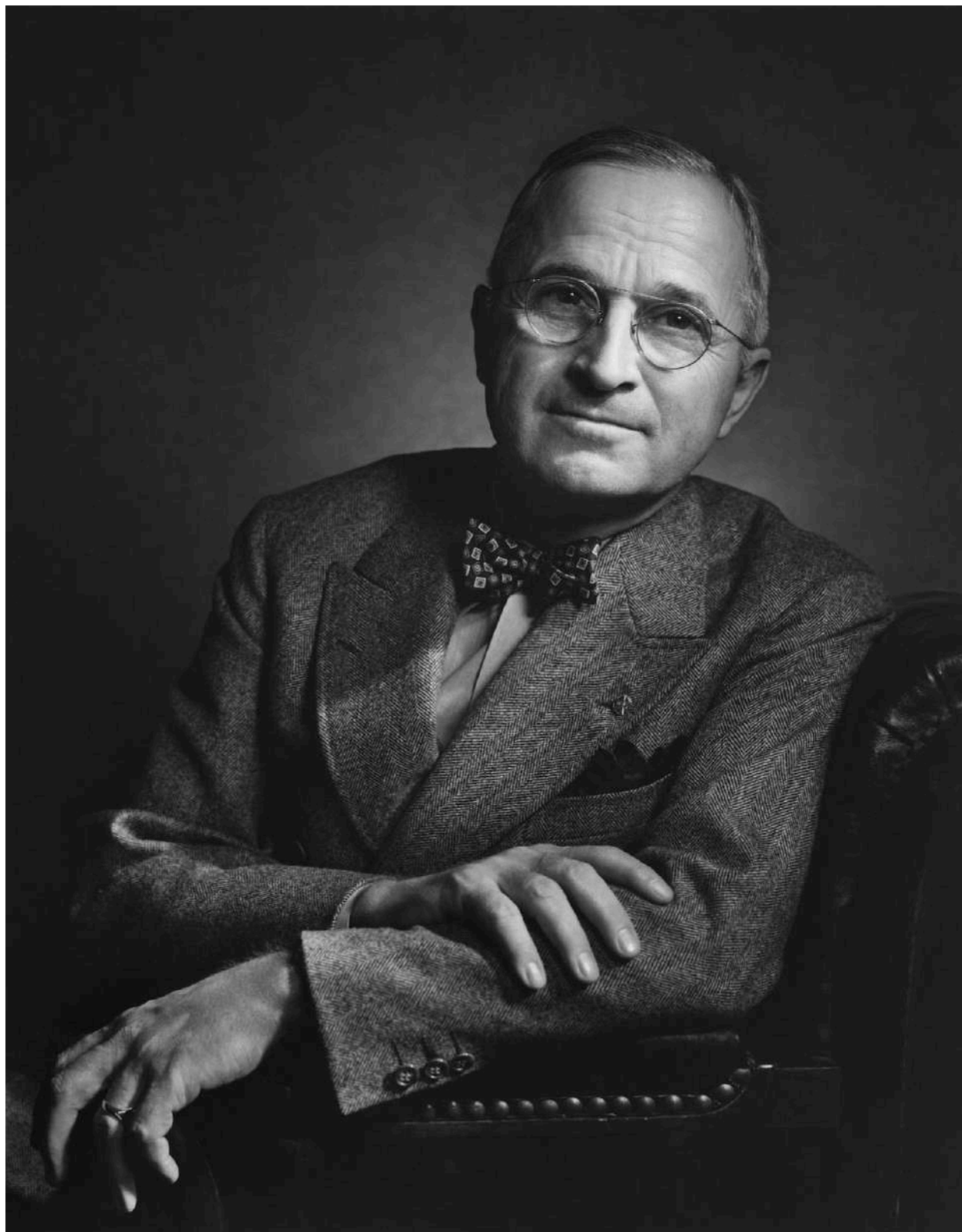
ويسمى من يمتهن هذه المهنة بالخرّاف، يتفق الخرّاف مع أصحاب المنازل أو المزارع أن يخرّف نخيلهم، وعادة ما يكون معه صبي يساعده، والخرّاف لا يكتفى بأجرته فقط بل بـ (عزيمة عشا) أيضاً، حتى الصبي المساعد له نصيب من العشاء أيضاً، ويخيّر بين أن يتعشى في بيت داعيه أو يأخذ عشاءه إلى بيته ليأكله مع أسرته، كان الرطب بكل أنواعه يعيش بين أهل عنيزة وكأنه كائن كُتب له أن يعيش ويستقر معهم كواحد منهم، وقت الغداء في وقت (الضحى) كان أول من يحضر على سفرة الطعام في خمسة أو ستة طاسات توزع على طول السفرة، ثم يلحق به الطعام، غادر السعوديون مهنة خرافة النخل بعد أن فتحت الدولة أبواب الوظائف أمام المواطنين وأصبحت هناك فرص عمل مريحة ومجزية قياساً بخرف النخل المهنة التي يسيطر عليها الآن الباكستانيون والأفغان. في الحقيقة تجاوز وجودهم خرف النخيل وامتد إلى كافة أنواع الزراعة في القصيم وأصبحت لديهم سيطرة على أغلب الأصناف الزراعية، شخصياً أرحب بكل من يعمل معنا فالخير بفضل الله ثم بحكمة قيادتنا كثير ويسع الجميع لكنني لا أرى في سيطرة أية جنسية غير سعودية على مورد استراتيجي مثل الزراعة أمراً طبيعياً، وأرى أن الشباب السعودي اليوم عليه أن يعدل قذا الخل بنفسه ويدخل هذا السوق المهم.



ساكوني فاكوم تعرف حالياً باسم (موبيل mobil)،
تأسست في ١٨٩٢م وهي شركة نبط أمريكية كبرى



عبادان مدينه تقع في محافظة خوزستان في جنوب
غرب إيران



هاري ترومان

(٤)

الحدرة باتجاه البلقاء

أمي سلمى مولودة في البلقاء في الأردن، ووراء مولدها في ذلك المكان قصة. وألدها هو عبد الله الحسن النعيم، مات والداه وكفله عمه ناصر النعيم، وناصر كان فلاحاً لديه مزرعة اسمها البارزة، عمل جدي مع عمه ناصر في المزرعة، لكنه أدرك بعد مدة أن لا مستقبل له إن بقي عاملاً يسقي المواشي صباحاً ويحصد البرسيم عصراً، لم يكن من ذلك النوع الذي يرى أن توفير الطعام هو أقصى ما يستطيع أن يصل إليه الإنسان، والمملكة في ذلك الوقت لم يكن بها فرص عمل كما هو حاصل الآن، كان الوضع مختلفاً تماماً وكانت الهجرة أمراً مألوفاً وغاية لكل باحث عن ذاته ممن لم يجد في مكان مولده الفرصة التي تظهر له هذه الذات، تحدث جدي عن نيته في الرحيل عن عنيزة، ويبدو أن حديثه هذا لم يرق لبعض أبناء محيطه، حتى قال ذات يوم مقولة حفظها أبناء أسرته وأصدقاؤه إلى أن وصلت إليّ بعد عشرات السنين: «أفجر البركة أو أروح مع الحدرة»! اختار الحدرة، والحدرة هي الرحلة باتجاه الشام، كان الزمن يعيد نفسه، فما الحدرة في اتجاه الشام إلا تلك الرحلة المذكورة في القرآن الكريم في سورة قريش عن رحلة الشتاء والصيف، ﴿إِلَيْلَافٍ قَرِيشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ * فليَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾. كانت رحلة الشتاء نحو اليمن ورحلة الشام في الصيف، استمرت هذه الرحلة إلى اليوم الذي قرر فيه جدي السفر معها نحو الشام، قرر أن يهاجر وهو شاب غير متزوج، ذهب إلى بر الأردن وتوجه إلى ديار قبيلة بني حسن (13) دون أن يعرف أي أحد منهم، فعمل كصبي وراعي غنم، وكان شاباً مهذباً خلوقاً، ولا شك عندي أن أخلاقه هي من أبقته عند بني حسن وحببت القبيلة به، هذه هي قوة الأخلاق، تصنع لك ما لا تصنعه القوة الجسدية، وتسهل الطريق أمامك عندما تكسبك محبة القلوب وثقة العقول، عمل جدي كراع للأغنام، وعمل كحمال، لم يكن يحمل الأمتعة أو البضائع، بل كان يحمل على ظهره الناس الذين يريدون أن يعبروا نهر الزرقاء، جمع بعض من المال واشترى عدة أغنام، والبركة إذا ما حلت في الأغنام أو إذا ما حلت في أي شيء فإن لها أثراً بالغاً، تكاثرت أغنامه وأصبح يملك المال، فتزوج جدتي فضية من بني حسن، وأنجبت له حسن وحمد ومحمد وسليمان وأمي سلمى وخالتي مضأوي، تقول والدتي: كنا ننتقل من مكان إلى آخر وحيثما يذهب الربيع نذهب معه، في إحدى رحلاتنا خلف الربيع كانت أمي فضية حامل وهي فوق ظهر البعير، فسقطت وماتت مباشرة

بعد سقوطها، كانت لحظات مؤلمة، وذكرى لم تنسيني إياها الأيام حتى بعد تغير الأحوال واختلاف الزمن، لم أنسى قبرها الذي تركناه خلفنا ونحن نغيب في عمق الصحراء، تزوج أبي من أخت والدتي، كان اسمها عايشة -رحمها الله- وأنجبت له فهد وناصر وعبد العزيز ومريم ومزنة وهيا، كل هذا في صحراء الأردن، أنا عبد العزيز الذي أحدثكم رضعت من عايشة الأمر الذي جعل جميع بناتها وبنات بناتها لا يتغطين عند رؤيتي، امتدت هجرة جدي سنوات طويلة حتى أصبح رجلاً غنياً بعد أن بدأ راعياً للأغنام، هل تذكرون أو سمعتم يوماً لتلك القصة التي تتحدث عن أحلام الرعاة؟ كانت تلك القصة تتحدث عن راعٍ يعمل لدى تاجر أغنام مقابل جرة من السمن كل شهر، وضع الدهن في الجرة كأجر لأول شهر، وعلق الجرة على الجدار، ثم نام وهو يشعر بالسعادة ممسكاً بعصاه، فحلم بأنه عمل بجهد واستطاع أن يجمع عدة جرات من الدهن، ثم باعها واشترى رأسين من الغنم، ثم تكاثرت وأصبحت لديه أغنام كثيرة، فباع بعضها وتزوج امرأة أنجبت له ولداً، ثم قال وهو في حلمه: «سأربي ابني على طاعة الله ثم طاعتي، فإن عصاني ضربته بهذه العصا»، ثم استفاق الراعي والدهن يسيل فوق رأسه من الجرة التي كسرهما عندما ظن أنه يضرب ابنه في الحلم لكن عصاه امتدت في الحقيقة إلى جرة الدهن! أشعر أن هذه القصة مضرّة جداً لكل طامح وحالم بما هو ممكن ومعقول، ولا أشك أن جدي الذي بدأ راعياً للأغنام كان لديه طموح مشروع حققه من خلال مثابرتة وصدقه وأمانته، إن كل ما يصبح كبيراً لم يكن إلا صغيراً في البدء، خالف جدي تلك القصة عن أحلام الرعاة وغرّب من نهايتها وحولها بفضل من الله إلى حقيقة، أصبح غنياً وكبر أبناؤه، وأصبح أبناؤه يذهبون إلى المدن كالكرك وعمان، يشترون البضائع منها ويبيعونها للبدو ويربحون المال، في هذه الأثناء اشتاق جدي لمكان مولده وصابه، هل جرب أحدكم هذا الشوق؟ يعرفه أولئك الذين أبتعدوا عن ديارهم، أولئك الذين إكتشفوا أن الإنسان عندما يولد تولد معه تلك المحبة الخالصة للمكان، سافر جدي إلى عنيزة ومعه أبناءه، كانت مجرد زيارة، ولا أعلم إذا ما كان بداخل قلبه قراراً خفياً بالعودة النهائية إلى مسقط رأسه، ما إن وصل وأمضى عدة أيام حتى أبلغ أفراد أسرته بأنه قرر أن ينهي غربته ويستقر في مسقط رأسه، كان شجاعاً عندما قرر أن ينهي غربته ويكتفي بما حققه، أقول ذلك لأنني قرأت العديد من القصص التي حكى أصحابها عن هجرتهم التي كانوا قد قرروا أو ظنوا أنها لن تتعدى السنة أو السنتين أو الثلاث على أكثر تقدير، ثم سرقتهم الأيام وأنسأهم طموحهم أن ما يسعون لتحقيقه لن يتحقق إلا على حساب سنينهم وبعدهم عن موطنهم، ثم يكتشفون فجأة بأن العمر مضى والرحلة التي كان مقدراً لها أن تكون قصيرة صارت العمر كله، يا لها من ضريبة كبيرة، بل أكثر من ذلك، يحكي أن أحد أبناء عنيزة ممن هاجروا وعملوا في البحرين قرر أن ينهي غربته وأثناء عودته وفي الطريق تذكر أنه نسي (بقشة(14)) ثيابه فعاد

ليأخذها، لكن عودته هذه كلفته اثني عشر عاماً إضافية من الغربة عندما أشغلتها المشاغل التي أخفت عنه بأنه أمام ما يجنيه كانت تجعله يدفع السنين بل وأكثر من الستين، يشعر الغريب مهما كان لديه من مال بأن شيئاً مهماً ينقصه، شيئاً يذكره دائماً بأن هناك ما هو غير مكتمل، كما أن الحنين يتواطأ مع هذا الهاجس فيعملان على تكبيره دائماً بذلك الجزء الناقص من صورة حياته، أن تكون غريباً هو أن تكون مختلفاً في نظر الناس، هم يرون بأنك لا تشبههم، وأنك أضعف منهم، وأنهم دائماً أفضل منك، لماذا؟ يكفي أنك بعيد عن وطنك، عن عائلتك ومسقط رأسك، عن ذكريات طفولتك، عن الناس الذين يشبهونك وتشبههم، عن أفراد أسرتك، عن لغتك ولهجتك، طبيعة الناس أنهم يرون بأنهم الأفضل على وجه الأرض، فما بالك لو تركت وطنك وأتيت لتعيش بينهم وهم على هذا الظن، إن الشعور وأنت تمشي في مسقط رأسك أو في بلدك لا يفهمه أو يشعر به عادة من اعتاد العيش في وطنه، هذا الشعور هو نفسه الذي تنتبه إليه عندما تفقد الشيء وابتعد عنك، حبك لوطنك ومسقط رأسك يخزن في أعماقك، يتراكم بداخلك دون أن تشعر بحجمه، يبقى ساكناً حتى إن ابتعدت عن مكانك ظهر لك على هيئة عشق وحنين لا ينتهيان إلا بنهاية سني حياتك أو بالعودة النهائية إلى من تحب، أقول ذلك حتى يحس بعضنا بما يشعر به الغريب الذي يعيش بيننا دون أن ندرك مشاعره المخفية، وما يشعر به في أعماقه من ألم واشتياق لأبنائه وزوجته وأمه وأبيه، لو كان بجانبني الآن رجل غريب لسألته أكثر عن ما يعاينه حتى أكتبه لكم، قد لا يكون من المناسب لرجل مثلي أن يكون سريع التأثر، غير بخيل بدموعه فيوقفني ذلك عن الكتابة، وأنا لا أريد أن أتوقف عنها، لذا أعود إلى جدي وأكمل لكم، عندما عاد كان قد تأثر بالبدواة في ملبسه ومفردات حديثه، لكنه سرعان ما تأقلم كونه ابن المكان، ومن المعروف أن البدوي عادة يبقى مديناً للتجار على الدوام، لا أقول جميعهم لكن أغلبهم، فإذا كان لديه خمسون فإنه يشتري بستين، وكان لجدي ديوناً على الكثير من البدو كان قد سجلها في دفاتر، وعندما قرر العودة إلى عنيزة أمر أبناءه بجمع كل الأوراق والدفاتر ثم حملوها في بساط ووضعوها خارج بيت الشعر، صبّ جدي (الجاز) فوق الدفاتر وقام بحرقها، حاول أولاده أن يمنعه لكنه أصرّ على ذلك قائلاً: طالما أن الدفاتر موجودة فلن نستطيع العودة إلى عنيزة، وعاتبه أبنائه على ما فعله فقال لهم: «يكفي ما جمعناه من المال»، وكان حرقه للمديونيات التي على البدو فعلاً ذا رمزية لمّح به لأبنائه بأنهم لن يعودوا إلى الأردن مرة أخرى، لكن أمراً آخر قاله لأبنائه وعلى ما يبدو أنه كان المحرك الأكبر: «بناتنا كبروا!» يقلق الكثير ممن يهاجر خارج بلدانهم من مسألة زواج بناتهم من خارج محيطهم أو قبيلتهم، وهذا الهاجس كان سبباً في منع العديد من الناس من أن يهاجروا أو أنهم قرروا العودة إلى مناطقهم وإنهاء غربتهم بسبب بلوغ بناتهم سن الزواج، بعض المهاجرين الذين ينتمون إلى مكان واحد أقاموا

بيوتهم بجانب بعضهم البعض فشكّلوا بيئتهم الخاصة بهم وتزوّج أبناؤهم من بعضهم البعض، قد يكون هذا الهاجس أكثر شدة عند الذين هاجروا إلى الدول الأجنبية، فقد هاجر بعض العرب من بلدان الشام مثلاً منذ بدايات القرن العشرين، إحدى تلك الأسر كانت أسرة جبران خليل جبران من أشهر أدباء المهجر (15) من العرب، لا شك أن العديد منهم ظنوا أن هجرتهم هذه ستكون مجرد سنوات قليلة لكنها امتدت إلى يومنا هذا، لذلك نجد الآن العديد من الشخصيات الأرجنتينية أو المكسيكية تعود أصولها إلى أصول عربية، تراس منعم كارلوس الأرجنتيني وهو من أصول سورية، وتربّع كارلوس سليم صاحب شركات الاتصالات على قائمة أغني أثرياء العالم عدة مرات وهو مكسيكي من أصل لبناني، وقد لا تستغرب وأنت مسافر في بلد أجنبي من مصادفتك لرجل أو امرأة لهم ملامح شرقية ليقولا لك بأنهما من أصول عربية لكنهما لا يتحدثان اللغة العربية، كما أن ديانتهن تكون قد تبدلت إلى ديانة البلد الذي يعيشون فيه، تقول والدتي بأنها عندما عادت إلى عنيزة أخذهم والدها إلى مكة للعمرة، وعندما رأت أمي الأنوار التي في الحرم قالت لأبيها متسائلة: وش هالنجميات؟ فقال لها بأن اسمها الكهرب، لا أعرف كم كان عمر أمي عندما تزوجت والدي، كانت قد نسيت بالتدريج حياة البداوة عندما عادت للعيش في عنيزة، وكان منزلنا لا يختلف في بيئة عن المنازل الأخرى، لقد أصبحت والدتي عنيزاوية بكل ما تعنيه الكلمة، كان جدي عبد الله حسن النعيم رجلاً كريماً ومن قصصه التي تداولها رفاقه وأبناؤه حتى إلى ما بعد رحيله أنه قال لأحد أبنائه: «أعط عمك ناصر خمسة جنيهاً»، فقال ابنه: «هذا مبلغ كبير»، فقال جدي: «أعطه عشرة جنيهاً»، فقال ابنه باستغراب: «بيّه كثير!» فقال: «أعطه خمسة عشر جنيهاً»، فقال ابنه: «سم»، أي حسناً، خوفاً من أن يزيد المبلغ إذا ما ناقشه وقال شيئاً جديداً، تقول أمي: «آخر مرة رأيت بها جدك عندما كان يتوضأ من مياه البئر، ذهب إلى المسجد ومات ساجداً»...

(5)

وصايا أمي

كانت علاقة أمي بوالدي علاقة جيدة، وكون والدي يعمل دلالاً، كان بيته يمتلئ بالبدو أو الذين جاؤوا بأحمالهم من المذنب، وكانت والدتي تطبخ الغداء والعشاء عدة مرات في اليوم، وكانت إذا ما طبخت العشاء لأبنائها فذلك لا يعني أن أبناءها هم من سياكلون ذلك العشاء بالضرورة، فكم من صاحب بضاعة جاء بصورة مفاجئة وأكل ما حضرته من طعام لأبنائها، حتى أصبح الزائر المفاجئ بالنسبة لنا أمراً غير مفاجئ، كانت تحلب بقرتين وبعض الأغنام وتمخض اللبن مرتين وثلاث حتى تظهر منه الزبدة، وتطبخ الغداء والعشاء عدة مرات، وتغسل الملابس للعائلة وتفصل وتخييط ملابسنا وتهتم بأطفالها وتكنس البيت الطيني، كل ذلك في يوم واحد وفي كل يوم، أعلم أن البعض يرى طبخ والدته هو أفضل طبخ في العالم، لن أدعي ذلك بشأن والدتي لكنها كانت تحسن تحضير أنواع الحيني (16) يدوياً بطريقة متميزة ولذيذة، طالما شعرنا أنها كانت تحبنا بعاطفة فائقة، كانت ترتعب خوفاً علينا من أدنى خطر، مازلت أذكر تعابير وجهها وهي تقول لي إذا جاءت الأمطار: «إمسك إيد أخوك ولا تقربوا للشعيب» (17)، كانت دائماً تنصحنا بأن نكون قريبين من بعضنا بعضاً في أي زمن وأي مكان وأن لا نفترق مهما تغيّرت الظروف، أكتب لكم الآن وقد أغلقت للتو سماعة الهاتف بعد أن تحدثت مع أخي عبد الله «أبو علي» لم نخذل وصايا والدتي، مازلت ممسكاً بيده وقد بلغنا التسعين، لقد عشت وأخوتي محبين لبعضنا البعض، ولكم تذكرت طوال هذه السنوات وجه أخي الأصغر، عندما كنت في التاسعة أو العاشرة تقريبا، مرض أخي الأصغر عبد الرحمن، لم تكن نعلم ما هو مرضه، لا أطباء ولا مستشفيات، ظلّ يعاني من مرضه، بدأ يهزل مع الأيام ونحن نراقب هزاله، في نهار ذلك اليوم كنت أشاهد أبي في ليوان (18) القهوة وهو يحضن أخي عبد الرحمن ويقبله... ثم جيء بصحن كبير لونه فضي... تم تجريد عبد الرحمن من ملابسه... وضعوه داخل الصحن وقاموا بتغسيله... كان عبد الرحمن قد مات! بقيت أتذكره... في يده بيضة كان قد أخذها من دجاجة توجه بها نحو والدتي قائلاً لها: «بوخه»... أي اطبخيها.. تناولتها من يده ووضعها في قدر ماء صغير ثم شرعت تقشرها له... لا أخفيكم بأنني نسيت الكثير من المشاهد التي كنت أحفظها لعبد الرحمن لكنني لم أنس وجهه وصوته عندما كان يقول: «بوخه»!، لم أنس تلك الأيام التي رأيت فيها والدتي صامته تحبس في صدرها حزنها على رحيل صغيرها. كان والدي

قويًا في تحمل ذلك الفقد، مازلت أذكر جملته التي حفظتها ورأيت فيها إيمانه بقضاء الله وهو يحضن عبد الرحمن بعد موته وقبل تغسيله: «الحمد لله.. هالحين رخص علي لما أخذه ربي»، أعلم بأن الموت قدر الإنسان، لكن رحيل أخي الصغير عبد الرحمن كان سببه أننا كنا نعيش في زمن صعب سبب الموت للكثير من الأطفال والناس بسبب عدم وجود الخدمات الصحية، لا تصدقوا أحداً مهما كان قريباً بأنه سيشعر بما سيشعر به الأب والأم عندما يفقدان أحد أبنائهما، أدركت إحساس والدي ووالدتي وحقيقة مشاعرهما على فقدان صغيرهما عندما كبرت وذقت ذلك الشعور عندما مرّ الزمان وفقدت بعض أبنائي الأطفال، واحد من أبنائي مات في عز شبابه، حينها شعرت تماماً بما شعر به والداي إثر موت عبد الرحمن.

لا أذكر أن يد والدي امتدت يوماً على والدتي، كانت بعض الخلافات البسيطة التي تحدث بين الأزواج وسرعان ما تنتهي، أستطيع أن أقول إنه كان بينهما احتراماً متبادلاً، كانت صابرة على كثر المسؤوليات التي وضعها على عاتقها خصوصاً تلك الوجبات اليومية التي كانت تجهزها للزائرين اليوميين، عندما كبر والدي ووالدتي كانت علاقتهم مازالت مستمرة على ذلك الود والاحترام الذي أبقاهما ينامان على فراش واحد رغم سنهما المتقدم، كنت أشاهدهما ينامان على السطح، لكن ذلك لم يستمر عندما رفض والدي الذهاب معي إلى الرياض بعد سنوات، ذهبت أمي معي وبقي والدي في عنيزة وحيداً، ثم قرر أن ينهي وحدته بالزواج، لم تنزعج والدتي من هذا الزواج حسب ما فهمت ورأيت وقد يكون هذا الأمر مستغرباً عند القارئ، فالمرأة قد تغفر لزوجها بعض أنواع الزلات إلا في مسألة الزواج بامرأة أخرى، اختارت والدتي أن تذهب حيث ما يذهب أبنائها وأن تبقى معنا دائماً، أتذكر أنها قالت عندما علمت بزواجه: «من حقه... خله يوسع صدره وتروح معه مكة!»، لا أظن بأن أي امرأة في العالم لن تحزن ولو مؤقتاً إذا ما تزوج زوجها بامرأة أخرى. أحسب أن أمي كتبت ذلك الحزن في صدرها وتحملت آلامه في سبيل الذهاب مع أبنائها باتجاه مستقبلهم.

(٦)

الكتاب: بداية تشكّل الحرف والحلم

لا أعتقد بأنني كنت قد تجاوزت السابعة من عمري عندما أمسك والدي بيدي واتجه بي نحو مسجد أم حمار(19)، كان بعض الصبية يجلسون على الجدار الخارجي من الجامع، يحيطون بالمعلم وييده عصي طويلة تسمى (رمح) باللهجة الدارجة، كانت تصنع من «عشبان»(20) النخل اليابس، أما سبب طولها فكان حاجة المعلم للوصول إلى أي من الطلبة دون الحاجة للوقوف إذا ما أراد أن يضرب أحدهم أو أن يلفت انتباهه، رحم الله معلمي الأول في الكتاب(21) عبد العزيز المحمد الداغ، كان معلماً ومؤذناً في الوقت نفسه، ولم يكن يطلق على المعلم اسم المعلم في الكتاب، بل كان اسمه (المطوّع)، أما تلك العصا التي كانت بيده فلم تكن تمتد على أحد بقسوة، كانت طيبة معلمنا عبد العزيز الداغ أبعد مدى من طول عصاه، في الكتاب يتعلم الطفل حروف الهجاء، ثم تشكيل الحروف، كانت أصواتنا تشكل لحناً معتاداً للمارة... أبانَ أبينَ أبون.. أي أو أه.. ه ه ه ه.. س س س، هل بدأتم أنتم أيضاً بتلحينها؟ لا بأس في ذلك وأهلاً بكم يا زملائي الجدد في الكتاب، وأمل أن لا تطالكم العصا الطويلة، عليكم بالانتباه للمعلم ولا تحاولوا الرسم على الرمل بينما عقولكم سارحة بعيداً.

كان عددنا يتألف من سبعة إلى ثمانية طلاب، وبعد أن تعلمنا الحروف، بدأنا نتعلم قراءة وكتابة الجمل، ثم بدأنا بقراءة القرآن وكانت سورة الفاتحة أول ما قرأناه، ونستمر هكذا حتى نهي جزءاً من القرآن، وكانت كل أسرة تحتفل بابنها عندما يختم القرآن فتقيم له حفلاً مصغراً يقدم فيه الأرز الأبيض، لا أتذكر أن أسرة قدمت اللحم مع الأرز، لم يكن وجود اللحم من عادة تلك الاحتفالات ولم تكن كل الأسر قادرة على تقديمه، يبدو أنهم اتفقوا على الاكتفاء بالأرز.

مساجدنا كانت مثل بيوتنا تُبنى من الطين وتنتشر حتى في المزارع، كان في أحد مساجد خريزة(22) إمام مسجد رأى أنه لا بد وأن يطوّر من قدراته ويصبح مشهوراً مثل الشيخ عبد الرحمن بن سعدي(23) -رحمه الله-، وابن سعدي كان شخصية علمية معروفة في عريضة وخارج عريضة، ذهب إمام المسجد هذا واشترى كتاباً كبيراً به مئات الصفحات، وقرر أن يجِدِّث المصلين من الكتاب بعد كل صلاة عصر، وكان معظم المصلين من الفلاحين الذين

كانت لديهم أعمالهم في مزارعهم بعد صلاة العصر، كان تعليم إمام المسجد قاصراً فلم يكن يقرأ الكتاب بصورة سليمة ولم يكن يعرف كيف يشرح للمصلين ما يقرأه بطريقة صحيحة، ضجر الفلاحون منه ومن الاستماع لحديثه، فبدؤوا يتهربون من الاستماع لحديثه بعد الانتهاء من الصلاة، ما إن تنتهي الصلاة حتى يخرجوا مسرعين من المسجد، شاهد الإمام ما كان يحصل، فاستعد ذات يوم للمصلين بشكل جيد، وما إن انتهى من الصلاة حتى أسرع راکضاً وسبقهم نحو الباب فقام بقلقه ووضع المفتاح في جيبه وقال: «اليوم أحدث عليكم غضب عليكم»!

لم أكن مدركاً كطفل أن تلك الخطوات التي مشيتها وأنا ممسك بيد والدي لأنضم إلى تلك الحلقة التي تحيط بـ (المطوّع) أنها لن تتكرر طويلاً ولن يستمر هذا المشوار الصباحي في اتجاه ذلك الجامع بل سيتحول إلى اتجاه آخر، كان التعليم ينتشر والمدارس تفتتح في أنحاء المملكة، فلم نكد نصل أنا وبعض الطلبة إلى جزء (تبارك) حتى تم الإعلان عن افتتاح أول مدرسة حكومية في عنيزة ١٣٥٦هـ، لم تتجاوز المدة التي قضيتها في الكتاب سنة واحدة، لكنني كنت قد تعلمت الكتابة والقراءة، واحتفظت طويلاً بذكريات ذلك العام وبالكثير من تفاصيله، ما زلت أتذكر بعض وجوه وأسماء رفاق الكتاب، محمد الحرکان، عبد الله العبد الرحمن الناجم، عبد الله العبد العزيز الصايغ، عبد الله إبراهيم الصانع وعبد الله العبد العزيز الصانع وعلي الشويمان الذي أنتقل مع أسرته إلى جدة، لم تخل تلك الدروس من الكثير من الضحك، ذات يوم كان لدى اثنين من زملائنا الطلبة بعض المال وانشغل كل تفكيرهما في شراء وأكل الكبد بعد الانتهاء من الدرس، وبينما كان المعلم يلقنا جملة تبدأ بـ (قال وقال) وكنا نردها خلفه، كان الاثنان يرددان قال وقال نبي نشري كبدة!، انتبه المعلم بأن هذين الاثنين اللذين جلسا بجانب بعضيهما كانا يرددان شيئاً مختلفاً فأوماً لبعض الطلبة بأن يصمتوا فاتضحت للجميع الجملة التي كانا يرددانها: «قال وقال نبي نشري كبدة»!، فضحكنا وابتسم المعلم ووكزهما برمحه. ورغم مشواري الطويل في التعلّم والتعليم إلا أنه كان لذلك العام طعم مختلف، ربما هو طعم البداية أو التجربة الأولى، ما زلت أذكر أن عبد العزيز الخويطر (24) - رحمه الله - عندما وصل إلى الآية الأخيرة في سورة البقرة، حينها كان قد ختم القرآن، كنا نبدأ بحفظ السور القصيرة ثم الطويلة، كان من عادة أسر أهل عنيزة إذا ختم ابنهم القرآن أن يقوموا بتجهيز الطعام ودعوة المعلم وزملاء الطالب لوجبة غداء، وعندما ختم عبد العزيز الخويطر القرآن ذهبنا إلى بيت الخويطر وكان معلمنا قد أمرنا بلبس ملابس نظيفة، ومشينا خلفه بانتظام، وكان كل طالبين اثنين يمشيان بجانب بعضهما وكل طالب ممسك بيد زميله الآخر، كنت ممسكاً بيد أخي عبد الله، مشينا داخل السوق باتجاه منزل عبد العزيز، كان كل من

يشاهدنا على هذا الحال يعلم بأن هناك من سيختتم القرآن اليوم، وُضع لنا الغداء المكوّن من الأرز في صحون تسمى صحون صين.

البنات أيضاً كنّ يلبسن أجمل ملابسهن ويرتدين حليهن الذهبية عندما تختتم إحداهن القرآن ويتوجهن نحو منزل الفتاة التي حفظت القرآن، لم تكن نسير بصمت بل كان عندنا ما نردده أثناء توجهنّا لمنزل الطالب، كنا نردد بلحن بسيط وجميل: «حافظ حافظ جزء عم... حافظ حافظ كل القرآن». لاحقاً أصبح عبد العزيز الخويطر واحداً من أشهر رجالات المملكة الذين خدموا ملوكهم وبلدهم، حيث تقلّد أكثر من وزارة. ومما يحكى عنه أنه عندما كان وزيراً للمعارف وكان ينوب عن وزارة المالية في الوقت نفسه، أي إنه كان مسؤولاً عن وزارتين، فجاءه خطاب من وزارة المعارف موجه لوزير المالية فيه مطلب مالي، فسأل وزارة المالية: «ما هو موقفكم من ذلك»، قالوا: «ليس لدينا اعتماد لذلك»، فقام برفض الطلب، أي إنه قام برفض طلب وزارته، بل إنني سمعت أنه كان قد وجّه الخطاب بنفسه عندما كان وزيراً للمعارف إلى وزير المالية قبل أن يتم إعفاء وزير المالية آنذاك وإسناد مسؤولية وزارة المالية إلى عبد العزيز، وبذلك أصبح يتولى مسؤولية وزارتين، وعندما وصل إليه الخطاب الذي كان قد وجّهه لوزير المالية كان قد أصبح هو وزيراً للمالية فرفض الطلب الذي طلبه هو بنفسه، أي إن عبد العزيز الخويطر رفض طلب عبد العزيز الخويطر!

لغاية اليوم لم أفهم ذلك المقطع الذي كنا نغنيه عن معاون المطوّع، كان اسمه حمد العيسى -رحمه الله-، كان بمجرد أن يقبل علينا أثناء غياب المطوّع حتى نردد: «حمد العيسى حا... ابن جبر جا»، حاولت عندما كبرت ولغاية اليوم أن أجد تفسيراً لذلك فلم أجد، كان حمد العيسى رجلاً محترماً وطيباً لكنه في إحدى المرات شعر أننا تجاوزنا حدودنا وأصبحنا نكرر دائماً (حمد العيسى حا) كلما أقبل علينا، ويبدو أنه أراد أن يضع حداً لذلك، فجمعنا في غرفة قريبة من المسجد وبدأ بضربنا ونحن بين تحاشي ضرباته وبين ضحك بسبب تصرفه المفاجئ ذاك. رحمك الله يا حمد العيسى، ماذا أفعل لذاكرتي... ما زالت تحتفظ بما أردتنا أن ننساه رغم مرور أكثر من ٨٥ عاماً!...



العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ١٨٨٩-١٩٥٦م



الدكتور عبد العزيز بن عبد الله بن علي الخويطر، تقلد
عدة مناصب وزارية

(٧)

صياد لؤلؤ

كان والدي كمعظم من عانوا صعوبة الحياة في بدايات حياتهم، وذاقوا مرارة الفقر والآلمه، وقد يصح أن نطلق على معظم الذين ولدوا في الفترة التي ولد بها والدي بأنهم مكافحون، هذا هو الوصف الذي أراه مناسباً لوالدي الذي توفيت أمه وهو طفل صغير، ثم عاش مع زوجة أبيه، ومما كنت قد فهمت منه أنه لم يجد الراحة بعد رحيل أمه، كان جدي كبيراً في السن عندما أصبح والدي في سن يسمح له في البحث عن ذاته، ذهب مع شقيقه الأكبر عبد العزيز إلى الكويت، وعملاً في البحر عدة أشهر على المراكب التي كانت تستخرج اللؤلؤ من أعماق البحر، ثم عادا دون أن يحصل والدي على شيء، وعندما قرر أخوه العودة مرة أخرى إلى الكويت رفض والدي الذهاب معه فأجبره أخوه على السفر معه بعد أن قام بضربه بالعصا، في الطريق إلى الكويت وأثناء توقفهم في غويمض شرق عنيزة للمبيت، وأثناء صلاة العشاء قطع والدي صلواته وركض تاركاً أخاه ومن كانوا يصلون معه... ركض طويلاً ولم يتوقف لنداءاتهم التي كانت تطالبه بالتوقف، حتى ابتعد ووصل إلى شجرة غضى، وحفر حفرة بجانبها ونام بداخلها حتى الصباح، ثم عاد إلى عنيزة ولم يمكث فيها سوى فترة قصيرة قبل أن يذهب إلى مكة بحثاً عن عمل، عمل والدي عاملاً عند تاجر أقمشة، لكن عمله لم يقتصر على العمل في محل الأقمشة، بل حتى لدى بيت التاجر، ثم انضم للمجموعات التي شكلها الشريف حسين لتخريب السكك الحديدية أثناء وقوفه ضد دول المحور، لا أعلم كم سكة حديد ساهم والدي في تخريبها، لكنه عاد بعد فترة إلى عنيزة دون أن يحصل على عمل يتخصص فيه ودون أن تتحسن حالته المادية، بعد ذلك بسنوات في إحدى ليالي الشتاء جاء رجل إلى عنيزة ولديه أحمال سمن (عكاك) وهو السمن الذي يوضع داخل قرب مصنوعة من جلد الخروف، كان الرجل يبحث عن يشتري بضاعته، قال له والدي أنا أشتري كل ما لديك من سمن لكنني لا أملك مالاً ولن أعطيك إلا من لحم (ثورك) أي إنني أسدّد لك قيمة السمن بعد أن أقوم ببيعه، وافق الرجل فوراً على عرض والدي، حتى إن والدي ذكر لي أن الرجل وافق على العرض قائلاً: «ما يخالف بس خلني أنام!». أي إن الرجل كان يحمل عبء بضاعته دون أن يتمكن من بيعها، كانت المعلومات التجارية وأسعار السلع آنذاك تأتي من الجبيل، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى جاءت الرسائل تتحدث عن ارتفاع كبير بأسعار السمن لكن والدي لم يكن يعلم بذلك، جاء اثنان من تجار عنيزة إلى والدي لشراء ما لديه

من كمية كبيرة من السمن، عبد الله الخويطر -رحمه الله- علم أن السعر ارتفع
وسأل عن الذي اشترى السمن وقيل له بأنه علي النعيم، فأرسل شخصاً
لوالدي يطلب منه عدم بيع السمن لغيره وكان الشخص المرسل يؤشر بيديه
لوالدي أن لا يبيع السمن وذلك دون أن يراه تاجران كانا يتفاوضان معه وكانا
قد قدما له عرضاً مالياً متواضعاً، اشترى عبد الله الخويطر السمن بسعر
مرتفع، يقول والدي إنه وبهذا الربح استطاع أن يدفع لصاحب السمن قيمة ما
أخذه منه وأن يفتح الدكان الذي أصبح مصدر دخل العائلة بعد ذلك.

أردت أن أقص عليكم كيف استطاع والدي أن يفتح دكانه الملاصق لمسجد
(المسوقف) من الجهة الشرقية، يبيع فيه السكر والشاي والأرز ويقوم
«بالدلالة» على التمور والحبوب لأنني لمست ذلك التغيير الذي حصل لأسرتنا
بعدما تحسنت حالتنا المادية، وكيف أن ذلك الدكان الذي كان يبيع فيه والدي
بضاعته بالجملة كان مصدر دخل جنبنا ضيق العيش وجعلنا نحيا في سعة
مالية ممتازة، ورغم أنني لم أمارس التجارة التي مارسها والدي إلا أنني رأيت
كيف أن النجاح في التجارة والحصول على المال يصنع للأسرة حياة مريحة
وبعيدة عن كل ما يخلفه الفقر من مشاهد حزينة تؤثر في النفس وتبقى في
الذاكرة.

(٨)

احتفال ذكوري!

أظن أن أغلب الناس من الجيل الذي أنتمي إليه وحتى الأجيال اللاحقة، يتذكرون تلك اللحظات التي تمّ تطهيرهم فيها (ختانهم)، قد يسترجع بعض القراء الآن تلك الذكرى، وهما أنا أتذكر حين جلست مع مجموعة من الأطفال والمطهر يمسك بيديه ما يشبه السكاكين... كنت أسمع بكاء الأطفال الذين تمّ تطهيرهم دون أن أعي تماماً سبب بكائهم، ولا حتى السبب الذي تمّ جمعنا من أجله، عندما وصل دوري كنت جالساً والمطهر أمامي، ثم قال لي: «طالع الغزّيل اللي في السما»، ما إن نظرت إلى السماء حتى شعرت بحرارة في الأسفل، ووجهت نظري نحو مكان الألم فشاهدت قطرات من الدماء بدأت تتساقط على الأرض، ثم انتقل المطهر إلى الطفل الذي بجانبني، كانت معظم الأسر تتفق على تطهير أبنائهم في وقت واحد ومع مطهر واحد كان يطهر الأولاد دون أن يتقاضى أجراً على ذلك، ثم تقام وليمة الغداء التي تقام عادة احتفالاً بهذه المناسبة يتشارك في تكلفتها الأهالي، وفي بعض الأحيان لا يدفع شيئاً من تكون حالته المادية سيئة أو كما يوصف بـ (الضعيف)، كم سببت عملية التطهير الإحراج للعديد من الفتية الذين تأخر ذويهم عن ختانهم، خصوصاً أولئك الذين كانوا يعيشون في البر ويتنقلون مع حلالهم (25) من مكان إلى آخر، سمعت العديد من القصص المضحكة والمواقف المحرجة التي حصلت لأولئك الفتية وللمطهرين أنفسهم، لا غرابة في ذلك فقد كان الزمن مختلفاً، وفيه الكثير مما لا يشبه هذا الزمن السهل في العديد من الأمور، يولد الأطفال اليوم في المستشفيات ويفضل الكثير من الأهالي ختان أبنائهم في المستشفى بعد ولادة الطفل بيوم أو يومين أو حتى بعد عدة أشهر، لو سألت العديد من الصبية اليوم إن كانوا يتذكرون اليوم الذي تمّ تطهيرهم به لأجابوا بأنهم لا يتذكرون ذلك وهذا أمر طبيعي، لقد تطورت الحياة بشكل ما كان ليصدقه جيل والدي وهم في شبابهم، قلو أنك قلت لأحدهم بأنك بعد خمسين عاماً لن تضطر للذهاب إلى بيت صديق لتعرف إن كان موجوداً في بيته أم لا، يكفي أن تتصل على آلة تسمى الهاتف المنزلي لتتأكد من وجوده لما صدقك، وسيصبح الأمر أكثر صعوبة إذا ما حاولت أن تخبره بأن هذا الهاتف بعد خمسين عاماً سيصبح بحجم كف اليد وفي جيب كل إنسان وتستطيع أن تتحدث مع من تريد صوتاً وصورة في أي مكان من هذا العالم، صدقوني أن ذلك كان أكبر بكثير من خيال المحيط الذي كنا نعيش فيه، حتى أنا عندما شاهدت الهاتف لأول مرة في المكتب الذي

عملت فيه كموظف أمسكت السماعة بالمقلوب، ثم علمني أحد الموظفين كيف أضع السماعة وكيف أدير الأرقام، كان جهازاً مدهشاً ولا يصدق!

وفي حكاية حقيقية أن حمد البسام وعبد العزيز الحمد المصيريعي سافرا إلى الهند مدة طويلة ثم عادا إلى عنيزة، وكانت العادة أن تقام الولائم للعائدين من السفر خصوصاً إذا كانوا من الأسر المعروفة أو الثرية، وقد تمتد هذه الدعوات والولائم إلى أيام وتصل أحياناً إلى شهر كامل، وقد ترهق مثل هذه الولائم كاهل بعض الأسر، لكنها العادة التي جرت ومن الصعب أن يعيش الإنسان ضد تيار محيطه، وفي إحدى هذه الولائم قال حمد البسام بأنه شاهد في الهند صندوقاً به مسمار وعندما تقوم بفركه يصدر الصندوق صوتاً أو موسيقى، قاصداً بذلك جهاز الراديو، وعندما لاحظ أن الناس كانوا (يبيغفون) أي إنهم لم يصدقوا ما قاله أراد أن يثبت صحة كلامه وقال بأن عبد العزيز المصيريعي (أبو حمد) كان معه حينما رأى ذلك الصندوق، بعد دقائق دخل أبو حمد إلى المجلس فقال حمد البسام: «يا أبو حمد هل رأيت معي ذلك الصندوق الذي تفرك المسمار الذي فيه فيصدر صوتاً؟»، فأجابه أبو حمد بأنه لم يشاهد شيئاً! تعجب حمد البسام وحاول تذكيره بالمكان والزمان، لكن أبو حمد بقي منكراً لرؤيته مثل هذا الصندوق، عندما انتهت الوليمة وغادرا المجلس قال حمد البسام لأبي حمد معاتباً: «لماذا قلت بأنك لم تشاهد الصندوق؟» فقال أبو حمد: «دعهم يضحكون على واحد منا خير من أن يضحكوا علينا نحن الاثنين!».«

عنيزة تشارك في الحرب

لم يكن لدينا كهرباء، وكان الناس يعتمدون على الفند (السراج) وهو عبارة عن إضاءة تصدر من فتيل قطني يغمر في الجاز ويوضع داخل زجاجة، والناس كانوا يمشون في الطرقات دون إضاءة إلا في شهر رمضان، كانت العادة في رمضان أن تضع كل عائلة سراجاً أمام منزلها بعد أن تعلقه في حبل ممتد من غرفة الروشن، حينها كنت أرى حارتنا مضاءة بالأنوار الأمر الذي أتاح لنا نحن الأطفال أن نلعب في ذلك الوقت المتأخر من أماسي رمضان، لم أشاهد نور الكهرباء إلا بعد أن أصبحت فتى في أول شبابه، وأظن أن أول بيت أضيء بنور الكهرباء في عنيزة هو بيت عبد الرحمن المقبل الذكي -رحمه الله-، جاء بموتور كبير، وأصبح يعطي بعض جيرانه الكهرباء عبر أسلاك يمدّها إليهم، وكان لديه راديو يضعه في مجلسه بعد صلاة المغرب، كان الناس يستمعون لأخبار الحرب العالمية الثانية (26)، وفي اليوم الثاني يمرون بالأسواق ويخبرون الناس بما استمعوا إليه وعن نتائج المعارك الدائرة، انقسم الناس في عنيزة إلى قسمين خلال الحرب العالمية الثانية، بعضهم كان مع دول المحور والبعض الآخر مع الحلفاء، كان أحد أبناء البسام من مناصري ألمانيا، وعندما قصفت ألمانيا مدينة لندن ذهب هذا الشخص إلى منازل الذين يناصرون دول الحلفاء فطرق أبواب بيوتهم وهو يقول لهم ضاحكاً: «خذوا قرب ماءكم وروحوا طفوا حرايق لندن!»، من الحكايا التي انتشرت في عنيزة بعد قصف أمريكا لليابان بالقنبلة النووية واستسلامها أن اليابان أعلنت إسلامها، وأن لديهم جامعاً يبلغ طول صف المصلين فيه ٤٠ كيلومتراً! ما يعادل المسافة بين مدينة عنيزة ومدينة الرس (27)، كان هناك من يصدق تلك القصص... قد أكون أنا واحداً منهم، هل تعتقدون بأنني صدقت تلك القصة في ذلك الزمن؟ لن أجيب على هذا السؤال لكن البيئة دائماً لها تأثيرها، لا أخفيكم بأنني تخيلت صف المصلين هذا، كنت أتخيله كل مرة في شكل مختلف، مرة ممتداً على أرض منبسطة، ومرة يعلو مع الجبال ويستفل مع الوديان، وكيف كان المصلون يسمعون الإمام وهم على بعد ٤٠ كيلومتراً!، كان بعض أهالي عنيزة يتابعون أخبار الحرب ويهتمون بمجرياتها اهتماماً شديداً، كان جهاز الراديو عند عبد الرحمن المقبل الذكي وكان يزوره محمد البراهيم المسلم مساءً للاستماع إلى أخبار ونتائج الحرب، وعند الصباح يخرج محمد المسلم وكان كفيف البصر جيد الحفظ، فيطوف على المحلات التجارية ويذكر لهم آخر نتائج المعارك، كانت تلك الأخبار تقسم أصحاب المحلات ما

بين سعيد بنتائج المعركة وما بين متذمر، كان محمد المسلم -رحمه الله-
مصدراً إخبارياً مهماً طوال فترة الحرب العالمية الثانية، أبي كان يؤيد
الحلفاء، وكان محمد الصالح الدغيثر يؤيد دول المحور، أتذكر أن أبي قال
لمحمد الدغيثر بعد معركة من معارك الحرب واطعاً حبلاً حول رقبة محمد
ممازحاً: «هزمناكم»!

بين «الكعابة» واليوتوب

هل سبق وفكرتم في بعض الأسماء التي نطلقها على الأشياء؟ بعضها لا نختار لها أسماء مثلما نختارها للمواليد الجدد، بل تؤدي بعض الحالات والظروف إلى اصطناع تلك الأسماء، محمد العجروش هو أول من أحضر الكهرباء إلى عنيزة بصورة تجارية وبمقابل مادي، كان العمال يمددون أسلاك الكهرباء ويعتمدون في تثبيت الأسلاك على جذران البيوت، أما الشركة فسمهاها الناس (مسو) وذلك لأن العمال عندما يمددون السلك كانوا يقولون (مسو) أي اسحب السلك واجعله مستقيماً، فراح (مس) السلك اسما للشركة ليصبح اسمها مسو لدى الجميع، قبل ذلك كان ابن سليمان وزير الملك عبد العزيز (عبد الله بن سليمان الحمدان (28)) قد أرسل مولداً كهربائياً للمسجد الجامع وهو أول جامع تُضاء به الأنوار في عنيزة وقبل أن تأتي مسو وتمس الأسلاك مساً ويخترع لها هذا الاسم، كان الناس بعد صلاة المغرب في المسجد الجامع الذي أضيء بأنوار الكهرباء وحتى في المساجد التي وصلت لها الأسلاك ووصلها الضوء كان الناس لا يبتعدون عن المسجد انتظاراً لصلاة العشاء، فتدور الأحاديث بين المنتظرين إلى حين صلاة العشاء، وكثيراً ما لعبنا نحن الأطفال في هذه الفترة، نلعب ونؤلف الألعاب، لعبة الضبعة المخيفة للأطفال الصغار يقوم بها بعض الصبية الأكبر منا سنّاً فيلبسون عبايات نسائية في الظلام على أساس أنهم ضباع، كان لها أرجوزة خاصة تقول: «الهبع الهبع.. يا رجل الضبع»، وبالرغم من أننا كأطفال كنا نعرف بأن هؤلاء الذين يلبسون العبايات هم أصحابنا ولم يكونوا ضباعاً إلا أننا في لحظة ما كنا نشعر بالخوف ونحن نركض بينما الضباع تلاحقنا!، في المجمل لم تكن لدينا ألعاب كثيرة، لعبة الضبع لعبة مسائية فهي تحتاج لوجود الظلام حتى يدب الرعب فينا، أما أبرز ألعابنا التي نلعبها في ضوء الشمس فكانت لعبة الكعابة، والكعابة جمع كعب، والكعب عظمة تستخرج من مفصل ركلة الخروف، بعض اللاعبين كانوا يطبخون هذا العظم مع الملح والماء حتى يذيبوا الدهون العالقة به ليصبح شكله جميلاً ونظيفاً، طريقة اللعب سهلة ولا تقتصر على عدد معين من اللاعبين، كان كل لاعب يضع كعباً واحداً أو اثنين حسب اتفاق اللاعبين داخل دائرة يتم تحديد حجمها حسب عدد اللاعبين المشاركين، توضع كعاب اللاعبين ويقف واحد داخل الدائرة، ويُرسم خط مستقيم خارج الدائرة كنقطة انطلاق، كل لاعب لديه كعباً يسمى الصول يضرب به الكعاب التي داخل الدائرة حتى يخرجها منها، عادة ما يكون

الصولة ذات حجم كبير وثقيل، ولزيادة ثقله كان البعض يصب بداخله الرصاص، من يبدأ أولاً يسمى سابق، فيقول الثاني عقيبك والثالث يقول عقيبك، يستمر اللاعب في اللعب مخرجاً الكعابة من الدائرة ولا يتوقف حتى يخطئ فيكمل (عقيبة) يگسب الفائزون كعاب الآخرين، وليس للعبة زمن محدد بل تستمر حسب ظروف اللعب لكنها تتوقف عند مغيب الشمس، وحتى يتميز لاعب الكعابة يحتاج أن يكون دقيقاً في التصويب، وكلما كان اللاعب دقيقاً ويمتلك صولاً قوياً وثقيلاً زادت نسبة فوزه في اللعب، تستخدم عدة مفردات ضمن اللعبة مثل زعبط وأكرز وبو، كل كلمة لها معنى، وقد لا تبدو مواصفات هذه اللعبة وأدواتها من كعاب الأغنام مثيرة بالنسبة لكم، لكنها كانت كذلك بالنسبة لنا، ونشعر بالمتعة والإثارة كما تشعرون أنتم بالألعاب التي تحبونها اليوم، انقرضت لعبة الكعابة، وحتى المصاقيل ذهب زمنها وحلت ألعاب أخرى بدلاً عنها، وستذهب ألعاب اليوم ويحل بدلاً عنها، والشيء الثابت الذي يبقى هو وجود المتعة مهما اختلفت اللعبة، أود أن أقول لمن يمارس لعبة حديثة ما، إن كانت اللعبة التي تمارسها ممتعة وليس لها آثار سلبية فاستمر فيها ولا تنزعج من انتقادات من هم أكبر منك سناً... سيقولون لك إن ألعابكم ليست مسلية وغير مفيدة مثل ما كانت عليه ألعابهم، اعلم أنه قد قيل لهم عندما كانوا يلعبون ألعابهم وهم صغار مثل ما يقولون لك الآن، لكل جيل ألعابه، فلا تصلح الكعابة لأن تكون لعبة عملية ومثيرة اليوم، حتى المصاقيل لم تعد لعبة صالحة للعب مع تغير أسلوب الحياة، من الواضح جداً أن التغيير الذي يحصل في الحياة يصاحبه تغيير في ألعابها أيضاً.

كان الناس ينامون باكراً، وهذا ما جعلهم يستفيقون عند الفجر، لم يكن لدينا كل تلك الأشياء التي تسهركم اليوم وتبقيكم يقضين حتى وقت متأخر، أظن أنه لو كانت لدينا في ذلك الزمان كل هذه الوسائل من يوتيوب وقنوات تلفزيونية ووسائل تواصل اجتماعية لكنا تأخرنا في وقت نومنا أيضاً، كان الفطور الصباحي غالباً ما يتألف من العصيد شتاءً، والعصيد جزء منه قمح وجزء منه ذرة، ما أجمل مذاقه في تلك الصباحات الباردة، غريب أمر ذاكرة الإنسان، سبحان الله، فالذاكرة قد توهمك بأنك نسيت بعض الأشياء إلى الأبد، لكنها قد تظهرها لك فجأة كما أظهرت لي الآن صحن العصيد بطعمه وشكله وكأنني أكل منه الآن ويجانبي أخوتي وأنا أشاهد أمي وهي تنظر إلينا بعيون يملؤها الحب والطمأنينة، لم تكن في البيوت أو ان منزلية كثيرة، في كل بيت قدر واحد أو اثنان وصحن أو صحنان، كان هذا أبرز ما يحتويه المطبخ من لوازم الطبخ، لم يكن الفطور يتكون من العصيد فقط، قد يكون الفطور حنيني وهو من القمح وتمر السكري المهروس، ثلثاه قمح وثلث من العبيط مع الزبدة، في الصيف لا أذكر أننا كنا نفطر صباحاً، أما الغداء فكان موعده في (الضحى) وغالباً ما كان يتكون من تمر ولبن، أما من كانوا

ميسوري الحال فكانوا يطبخون الأرز (التمن) مثلما كان أهل عنيزة يسمونه في الماضي، ولا أنسى خبز التنور، هل جربتم أن تتلقفوا الخبزة من التنور وتأكلوها فوراً، جربوا ذلك لمن لم يجربه، كان هناك نوع رديء من الأرز وكان الفقراء يأكلونه وكان فيه الكثير من الحبوب الحمراء، ويصعب بلعه، وكان البدو يفضلونه كونه بطيء الهضم فيبقى في معدة الانسان مدة طويلة قبل أن يشعر بالجوع، أما العشاء غالباً في الفترة ما بين العصر والمغرب، أما المزارعون وأصحاب الدكاكين فكانوا عادة ما يتعشون بعد المغرب كما كان يفعل والدي، كونهم أناس يعملون ويتطلب منهم عملهم أن يتأخروا في العودة إلى منازلهم، لم تكن اللحوم في كل مائدة ولا في كل يوم ولم تكن تباع بالوزن، بل كان لكل عضو من لحم الخروف سعراً يحدده البائع، ولا بأس من المفاوضة على السعر، أتذكر أن والدي كان يفاوض على ذلك، وكان القصابون يخفضون له السعر خصوصاً بعدما افتتح دكانه، ومن الطبيعي أن يعاملوه معاملة حسنة لأنهم يعلمون أنهم قد يحتاجون لشراء بعض الحاجيات منه يوماً ما وهم يأملون منه أن يعاملهم كما عاملوه، كل الأعمال اليدوية من بيع وشراء وزراعة وبناء جميعها كان يقوم بها أبناء عنيزة، ولا أخفي عليكم أن بعض الأعمال كانت تستنكف منها بعض الأسر والقبائل رغم أن القيام بها لم يكن محرماً، أجبر الفقر بعض أبناء القبائل أن يشتغلوا خفية ببعض الأعمال التي كانت ترفضها مفاهيم قبائلهم، لكل مجتمع عاداته وتقاليده، تلك العادات التي ورثناها واستمرت حتى غيرت المدنية بعضها وأبقت على ما هو عميق وممتد منذ مئات السنين لغاية اليوم.



عبد الله بن سليمان الحمدان، أول وزير سعودي ووزير
المالية السابق

(١١)

خليط العملات

لم تكن عملتنا موحدة بل خليطاً من العملات، العملة العثمانية وتسمى (القطعة⁽²⁹⁾) وهي من نحاس ومكتوب عليها ضرب في القسطنطينية، هذه القطعة كنت أشتري بها لب القرع الأبيض المطبوخ المفضل لدي كما ذكرت لكم، كل منا كان لديه في طفولته شيء يفضله، وأنا كنت أحب لب القرع الأبيض، عموماً لم تكن لدي خيارات متعددة، عندما أدخل اليوم محل بقالة وأرى ما بها من عشرات الأصناف المختلفة من أطعمة وحلويات، أشعر بالسرعة الفائقة للزمن، لكنني أشعر بالسعادة كون هذا الجيل يعيش بفارق ترفي شاسع عما كان عليه جيلي الذي عشت فيه، في الحقيقة لم أعرف الترف في طفولتي ولم يعرفه أبناء جيلي في طفولتهم نهائياً وبصورة عامة، لكن صوتاً واحداً قد لا يتفق مع قولي هذا، إنه صوت الأجيال التي سبقتني... صوت لعله يقول لي: «يا عبد العزيز لو شفت اللي شفناه كان شفت اللي كان عندك ترف!». الريال كان اسمه يأل فرنسا ولكنه نمساوي في الأصل كتب عليه ماريا تريزا⁽³⁰⁾، أما الجنيه الذهبي فكان اسمه الجنيه الإفرنجي (الإنجليزي)، عندما منّ الله علينا بالمملكة وبالخير الذي عمّ الجميع كان أول ما تمّ تغييره من العملات هو (القطعة) واستُبدلت بالقرش كعملة سعودية وكان من معدن النيكل، وكان والدي يعطيني قطعاً في كيس ويقول لي اذهب بها إلى عبد الله بن عبد الرحمن العبدلي لكي أستبدل القطع بالقروش.

مدرسة العززية

هل تؤمنون أن الرزق لا يعني المال فقط، وأن الصحة رزق، والأمن رزق، والحاكم العادل رزق، والعلم رزق، وعنيزة رزقت مما قد رزقها الله بالمتعلمين والمعلمين، وإذا كان لكل مدينة معالمها فإن ذلك لا يقتصر على مبان أو أماكن معينة، بعض الرجال يصبحون أيضاً من معالم مدنهم، وعنيزة بها عدة معالم من رجالها، وإذا ما جاء ذكر التعليم وتاريخه فإن صالح بن ناصر الصالح -رحمه الله- أحد ألمع هذه المعالم، ولا شك أن كل الذين تعلموا على يده كانوا محظوظين لأنهم ولدوا في زمن هذا المعلم الفاضل، والده من أهل الجمعية وأمه من عائلة الرشودي من عنيزة، وعائلة الصالح أصبحوا من تجار العراق في الزبير والبصرة عندما أقاموا هناك، لقد أخذوا جيناتهم التجارية معهم، وكان صالح قد سافر إلى حيث أعمامه في العراق عندما كان في سن الدراسة، درس هناك ثم انتقل إلى البحرين بعد ذلك ودرس في مدرسة النجاح، عندما عاد إلى عنيزة افتتح مدرسة خاصة درس بها الكثير ممن سيصبح لهم مستقبل ناجح من ضمنهم السفير المشهور محمد الحمد الشبيلي وعدد ممن عملوا لاحقاً في الديوان الملكي، منهم محمد العبد الرحمن الشبيلي وعبد العزيز الصالح العبدالله وحمد محمد البسام وكان محمد ذا صوت جميل عندما كان يؤدي الأناشيد التي يختارها له الأستاذ صالح بعناية، جميع هؤلاء وغيرهم كانوا أكبر سناً مني فلم ألتحق بمدرسة الأستاذ صالح الخاصة، لم تكن الأجور الشهرية التي يدفعها الآباء للمدرسة تتجاوز الريال أو الريالين كل شهر، ولكن التعليم كان ذا مستوى جيد حيث إن الأستاذ صالح كان معلماً ملهماً ومتقدماً، لم تكن الظروف ودية له أو للمعلمين الآخرين، كان عندما يختار قصيدة يحذف منها تلك الأبيات الغزلية التي يستهزل العرب بها قصائدهم خشية من بعض آباء الطلبة الذين كانوا يرون أن تلك الأبيات الغزلية قد تُفسد أولادهم، والأستاذ صالح جاء منفتحاً وأراد أن يدرس الجغرافيا والرياضيات المتقدمة، إذ لم تكن تُدرس مثل هذه المواد، وعندما بدأ الأستاذ صالح بتقديم هذه المواد لطلبته وجد مقاومة قادها بعض الأهالي وكبار الأسر، لقد خشوا أن يتعلم أبناؤهم ما يدمر عقولهم ويضعف دينهم، هكذا كان يعتقد من كان يعترض على تدريس تلك المواد فقد كانوا يجهلون محتواها وأهميتها، لكن الأستاذ صالح لم يتراجع ووجد مساندة من أمير عنيزة آنذاك عبد الله خالد السليم، في تلك الفترة كان هناك أكثر من مدرسة خاصة، مدرسة علي الشهيتمان التي درس فيها الشيخ محمد العثيمين،

ومدرسة عبد العزيز الصالح الدامغ ومدرسة صالح القرزعي، كانت المدارس عادة تتألف من (حوش) يتلقى فيه الطلبة دروسهم، ومع الحوش غرفة أو غرفتان يدرس بهما الطلبة وقت المطر أو البرد الشديد، كان عدد المدارس الخاصة أربع، أما اليوم وفي هذه اللحظة التي أكتب فيها لكم فإن عدد المدارس الحكومية الحالي هو ١٥٠ مدرسة، ٨٦ مدرسة للأولاد و٦٦ مدرسة للبنات، أما أول مدرسة حكومية في عنيزه فكانت في عام ١٣٥٦هـ وكان اسمها المدرسة العزيزية، عندما قامت الدولة السعودية الثالثة واستقرت وبدأت الدولة تدير شؤون هذه المساحة الشاسعة الأقرب إلى القارة، حيث تسافر بالطائرة من حائل إلى أبها بمدة ساعة ونصف، ظهر العديد من رجال عنيزة لاحقاً كمسؤولين يعملون في الحكومة، كان عددهم ظاهراً للعيان، ومن الطبيعي أن يتم التساؤل عن سبب وجود هذا العدد من الوزراء والمسؤولين والمدراء، والإجابة عن هذا ببساطة هي التعليم، ولطالما كان التعليم لدى أهل عنيزة ذا أهمية كبرى، ومن الواضح أنه كان موجوداً لديهم ذلك الإدراك بأهمية العلم، وأنه هو من يفتح ويوسع للإنسان المدارك، وهو من يتيح لك عملية التفكير بصورة سليمة في شؤون حياتك وكل ما يعترضك فيها، وما تلك التجارة التي عرف بها أهل عنيزة إلا شيء واحد مما اكتسبوه من تعليمهم، سافر بعض رجال عنيزة منذ مائتي عام إلى كلكتا، عائلة البسام وصلوا إلى هناك في ذلك الزمن، ودأب أهل عنيزة على إرسال أبنائهم للدراسة في البصرة والبحرين منذ زمن بعيد.

عندما افتتحت المدرسة العزيزية عام ١٣٥٦هـ جري - ١٩٣٧ ميلادي كنت ممن انتقل إليها مع بقية زملائي الذين درسوا عند الكتاب (المطوع)، تم تعيين الأستاذ صالح الصالح مديراً لها وضمت في عامها الدراسي الأول ٢٢٠ طالباً وشملت صفوف الأول والثاني والثالث الابتدائي، أما موادها فشملت اللغة العربية والقرآن الكريم والرياضيات والهندسة والجغرافيا التي كانت تسمى (تقويم البلدان)، ثم أضافوا مادة الزراعة باعتبار القصيم منطقة زراعية، وقد وزعوا علينا كتاباً أحمر صغيراً خاصاً بالزراعة، كان عدد نسخ الكتاب أقل من عدد الطلاب فأعطى الأستاذ صالح كل طالبين نسخة من كتاب الزراعة لنسخه في البيت، وقد أعطاني أنا وإبراهيم الديبان نسخة لنقل محتواها وإعادةها إليه، في هذا الكتاب شرح لكيفية غرس الشجرة ووضع السماد، ولا أعلم حينها لماذا كتب في الكتاب أن السماد من (مخلفات الحمام) دون ذكر السماد الناتج عن مخلفات الحيوانات الأخرى، فكلما أتوا على ذكر السماد كانت مخلفات الحمام هي المثال الوحيد. عموماً كان الحمام منتشرًا آنذاك في الكثير من البيوت، وله يوم مخصص لبيعه وشرائه في السوق كل أسبوع، كان الحمام يعيش أسعد فترات في عنيزة لأننا لم نكن نأكل الحمام، كان للهواية فقط، لم نأكل الحمام إلا عندما جاءنا بعض المعلمين المصريين الذين

يأكلونه، بل ويأكلون الحمام المحشي، فعرفنا أنه صالح للأكل أيضاً، وبذلك فقد الحمام أمانه وزمنه الجميل!، أريد العودة للأستاذ صالح الصالح، كان رجلاً طويلاً أنيقاً جسمه رياضي، يكثر المشي، غير مهتم بأمور الدنيا على الإطلاق، لا أتصور أنه يؤثر نفسه حتى بعلبة كبريت، كان كل تركيزه واهتمامه ينصب في التعليم، أما باقي أموره الشخصية فكان يهتم بها شقيقه عبد المحسن الذي كان معلماً أيضاً في المدرسة، وكان عبد المحسن معلماً ممتازاً وصياداً ماهراً، كان لا يصطاد الأرنب وهي نائمة، بل كان يلقي عليها حصاة وحينما تنطلق هاربة يطلق عليها النار. كان الأستاذ صالح شغوفاً جداً بالتعليم ودرست على يديه الرياضيات، كان يسعد إذا ما رأى طالباً نجيباً فيهتم به ويحرص على متابعته وإعطائه بعض المسائل الرياضية المقررة للسنة القادمة، كان يعلمنا الخط العربي فقد كان خطاطاً، ما زلت أتذكر الحكم التي كان كان يكتبها على سبورة الخشب التي كانت تطل (بالورنيش) الأسود ويكتب عليها بالطباشير، وكان أخي عبد الله الأصغر يدرس معي في الفصل، وكانت للأستاذ صالح نصيحة عامة لم يتوان يوماً عن تقديمها للجميع، القراءة، ما زلت أتذكر عندما قال: «أنت وعبد الله إذا مسكتوا كتاب تقطعون ظهره في يومين!»، أي إننا نقرؤه بسرعة، كنت طالباً جيداً وكنت رئيس الفصل معظم السنوات، لم تكن هناك دفاتر تُباع في السوق، فطلبت من الأستاذ صالح دفترًا فأعطاني دفتره الذي كان يأتيه من الوزارة، ما زلت أحتفظ به حتى الآن، ولهذا الدفتر رمزية كبيرة في عقلي، ليس لأنني أحتفظ بشيء يوثق مرحلة تعليمية في حياتي فقط، بل لأنه دفتر الأستاذ صالح، هل تعلمون ما معنى أن يكون معلمك محباً للمسرح؟ يعني بأنه ذو خيال ومحب لكل ما هو جميل ويقدر المواهب ويهتم بها، وهكذا كان... محباً للمسرح. قدم مسرحية عن النعمان بن المنذر(31) وكسرى ملك الفرس، كتب الأستاذ صالح المسرحية وأخرجها عن واقعة تاريخية شهيرة، كنت أحد الذين اختارهم لأداء المسرحية أمام الملك سعود الذي جاء لزيارة عنيزة فزار المدرسة، اختار الأستاذ صالح أحد الطلبة لأداء دور كسرى، كانت أمه شركسية من بشري من لبنان، كان أبيض البشرة، كسرى يجلس على كرسي يلبس تاجاً من قماش عليه (زري) وهو تطريز بلون ذهبي، ويقابله النعمان الذي كان واقفاً أمامه، أما أنا فكانت أقوم بدور عامر بن الطفيل(32)، كان الزعماء العرب يجادلون كسرى، ولما جاء دوري أنا عامر بن الطفيل وكنت أعطي إحدى عيني بقطعة من قماش لأن عامر بن الطفيل كان أعور، لا أعلم لماذا اختارني الأستاذ صالح لأداء دور عامر بن الطفيل أنا تحديداً، هل لأنني كنت أحول؟ هل تصدقون بأنه لم يتبادر إلي ذهني هذا السؤال إلا الآن وأنا أكتب لكم! عموماً، قال لي كسرى: «فإذا أتاك أت من جهة عينك العوراء فما أنت فاعل؟» فقلت له: «ما هيبتني في قفاي دون هيبتني في وجهي!»، قد تقرؤون اليوم بعض المقالات أو النداءات التي تطالب باستخدام اللغة العربية التي تتعرض

للإهمال، أردت أن أقول بأن هذا الأمر ليس بجديد، فمازلت أحفظ منذ أكثر من ٨٠ عاماً تلك القصيدة التي أمرنا الأستاذ صالح بحفظها لحافظ إبراهيم (33). وقد حفظتها في العام ١٣٥٩هـ، كان حافظ إبراهيم قد كتب عليّ لسان اللغة العربية ما تعائيه من إهمال وهجران أبنائها، وكنت أقف منشداً إياها بكل ما أستطيع من انفعالات تعبيرية:

رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حصاتي
وناديت قومي فاحتسبتُ عداتي
رموني بعقمٍ في الشبابِ وليتني
عقمتُ فلم أجزع لقولِ عداتي
ولدتُ ولما لم أجد لعرائسي
رجالاً وأكفاءً وأدثُ بناتي
وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً
وما ضقتُ عن آيٍ به وعِظَاتِ
فكيف أضيّقُ اليومَ عن وصفِ آلهِ
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدقاتي
إلى آخر القصيدة التي أشعر الآن بأني لا أتذكر ما تبقي من أبياتها فقد توقفت عند آخر بيت تذكّرتّه.

بعد سنوات أصبحت زميلاً للأستاذ صالح عندما أصبحت معلماً في المدرسة السعودية التي افتتحت بعد العزيزية، كان الأستاذ صالح يتميز بالصفات التي نختصرها بكلمة (نشمي) فكذلك كان شخصاً متميزاً خارج المدرسة ولا سيما في تلك الكشّات (الرحلات البرية) التي نخرج فيها في مواسم الربيع، في إحدى تلك الكشّات ذهبنا إلى شعيب الظليم في منطقة غويمض، أمرنا أن نحفر في الوادي متراً واحداً في الأرض فخرج لنا الماء، كانت مياهاً مطرية حفظتها الأرض، بعد أن كنا نحفر الحفرة كان يأمرنا بجمع حصى صغيرة

رخامية (مرمر)، ثم يقول لنا ألقوا بهذه الحصى داخل الحفرة، ما إن نلقيها حتى تصفى المياه وتصبح كالمرآة، حينها كنا نشرب ونملاً (قرب) مياهنا التي كنا نعلقها على شجرة الإثل حتى يبرد الماء، قال لنا في تلك الرحلة إن المكان الذي حفرتم فيه يسمى الثميلة، ثم أمرنا أن لا نتبول في المكان المرتفع حتى لا تمتص الأرض البول وينساب إلى الثميلة، ولكن أمرنا أن نتبول في المكان المنخفض، كان عدد المعلمين في تلك الرحلة بحدود سبعة أو ثمانية معلمين، أذكر منهم الأستاذ صالح وشقيقه عبد المحسن وحمد الشريف الذي كان يعلمنا الحساب ويعمل على مكينة خياطته مساءً لزيادة دخله، وعبد الله العلي يحيى وهو الذي أملى علينا قصيدة الشريف الرضي (34) وكان يلقبها علينا شارحاً كلماتها:

نبأتهم مثل عوالي الرماح

إلى الوغى قبل ثوم الصباح

فوارس نالوا المنى بالقنا

وصافحوا أعراضهم بالصفاح

استمر الأستاذ صالح الصالح كمعلم ومدير للمدرسة، إلى أن أنشئت إدارة تعليم في عنيزة وعُيّن مديراً لها، في أحد الأيام خرج متوجهاً للصلاة، صدمته سيارة ومات!.. هز ذلك الحادث قلوب أهالي عنيزة، وتأثرت كثيراً برحيله، لكنه لم يغادر قلوبنا نحن أهل عنيزة ولا أيامنا التي رسم فيها مكانته الكبيرة، بعد سنوات طويلة من رحيله قام أهالي عنيزة بتكريم الأستاذ صالح وأسسوا على شرفه جمعية خيرية أسموها (الجمعية الخيرية الصالحة (35)) وأنشؤوا مركزاً أسموه «مركز صالح بن صالح» وهو مركز للأنشطة الثقافية والعلمية والاجتماعية، وقد كلف هذا المركز أكثر من ٤٠ مليون ريال، كان أخي عبد الله هو المسؤول عن جمع التبرعات لبناء المركز، وقد كتب العديد من الخطابات إلى العديد من التجار، وأخذت أنا الخطاب الموجه لحمد القنيبط وكان من المقاولين المعروفين، أذكر أن حمد القنيبط قدم لي نصيحة مهمة في لقائنا ذاك عندما قال لي: «يا عبد العزيز دائق من العطاء أفضل من أطنان من الاعتذار»، والدائق وحدة وزن صغيرة، ثم تبرع بمبلغ مالي وأبدى استعداداه بالتبرع ببعض أعمال الألمنيوم للمبنى كونه يملك معملاً للألمنيوم، أصبح المركز من معالم عنيزة المعروفة، ولهذا المركز أنشطة وأثر على سكان عنيزة وكان الأستاذ صالح مُصرّاً على أن يقدم الفائدة للناس حتى بعد رحيله.



صالح بن ناصر الصالح

١٣٢٢-١٤٠٠هـ



المدرسة العزيزية، تأسست عام ١٩٣٧م - ١٣٥٦هـ



الجمعية الخيرية الصالحية

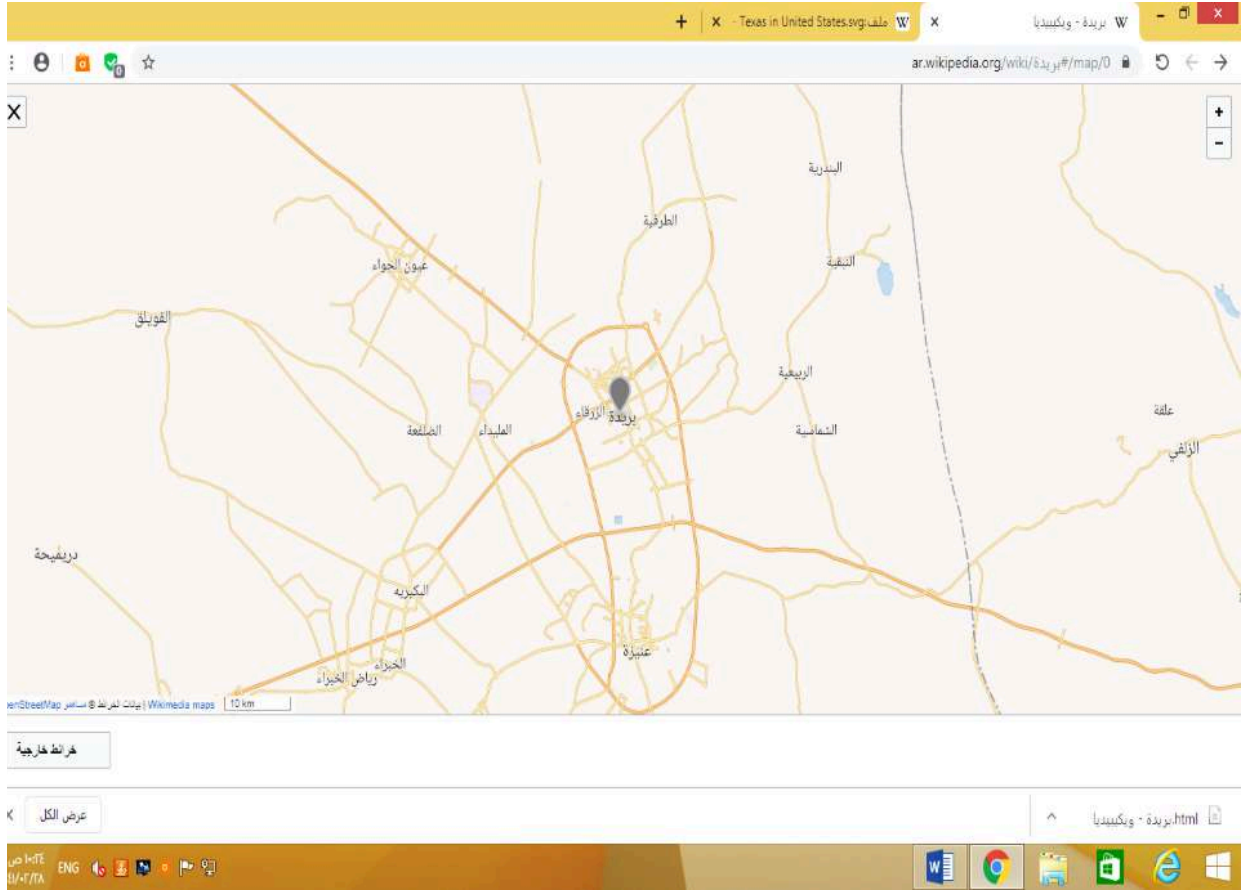
لهجة أهل عنيزة

لهجة عنيزة بها بعض الاختلافات عن لهجة أهل بريدة (36)، وإن كانتا تبدوان متشابهتين لغير العارفين، لكنني سأخبركم الآن عن أبرز هذا الاختلاف وهو ما سيدلكم على الفارق، إذا قال أهل عنيزة: «ناقّة»، فالبريدايون يقولون: «ناقت»، أي يضيفون حرف التاء في آخر بعض الكلمات، هيا نجرب ذلك سوياً، أهل عنيزة يقولون عن الحمار «حمارة»، بينما يقول أهل بريدة...؟ ماذا هل عرفتم الإجابة؟ «حمارت»... هكذا ينطقونها، تعالوا نجرب كلمة أخرى، لقد أعادتني طريقة الشرح هذه إلى أيام مزاويتي التعليم وشرح الدروس التي كنت أجد فيها المتعة التي لم أجد مثلها في أي مجال آخر عملت فيه، نأخذ كلمة جديدة، أهل عنيزة يقولون «شجرة» بينما يقول أهل بريدة: «شجرت»، نعم هذا هو أبرز فارق بيننا وبينهم، في إحدى المرات اختار وزير البترول عبد الله الطريقي (37) خمسين طالباً من خريجي الثانوية العامة وأرسلهم إلى تكساس في الولايات المتحدة لدراسة البترول وصار لهم أصدقاء من الطلاب الأمريكيان فلاحظ أحد الطلبة الأمريكيان أن طلاب عنيزة لهم نطق مختلف عندما يتحدثون الإنجليزية عن باقي الطلبة السعوديين، كانت ملاحظته تشير إلى نباهة عجيبة منه، قرر هذا الطالب الجريء أن تكون رسالته عن لهجة عنيزة! قدمها للجامعة ولم تقبل، لكن تعبته في وضع تلك الرسالة لم يذهب سدى، لقد قربته ذلك من بعض ثقافة المملكة فأحبها وأحب ناسها، وقد توظف هذا الطالب لاحقاً في أرامكو، دعوني أقول لكم بأن أهل القصيم يحبون القصيم ويفاخرون به، وبينهم ذلك الود الذي جمعهم المكان عليه، كما جمعت كل أراض المملكة ود وحب شعبها لها، لكن الود الذي جمع القصمان لم يكن يخلو من ذلك التنافس بين المدن ومميزاتها، بريدة أكبر تعداداً وهي مدينة امتهن أبناؤها التجارة وكانهم عندما ولدوا رضعوا مفاهيمها وفنياتها وصبرها، فتميز أهلها بهذه النباهة التجارية، أهل عنيزة أيضاً كذلك لكن عرف عنهم اهتمامهم بالتعليم أكثر، لكن التجارة عموماً غطت بطابعها على المدينتين، حتى إن الكثير من الأمثال الشعبية كانت نتاج هذا الحراك التجاري، «يا شاري بالدون تحسبك غابن وإنّ مغبون»! أي إنك إذا اشتريت سلعة رخيصة وظننت أنك أحسنت الاختيار فإنك مخطئ وظالم لنفسك.

يرتبط نجاح التجار بوجود مواصفات ثابتة، وأبرزها الصدق والأمانة، وهاتان الصفتان كانتا دائماً متواجدين في تجار القصيم كما أنهما متواجدتان لدى التجار في المناطق الأخرى، وإلا لَمَا كان ليكتب للتجار في كل مكان النجاح والاستمرار، حتى على صعيد الأعمال الصغيرة في عنيزة كان الناس يرفضون أن لا يلتزم أصحابها بالصدق والأمانة، كان إذا قام أحد (القصابين) بذبح ناقة هزيلة فإنه يواجه بالتوبيخ والتشهير، ذلك أن لحم الناقة الهزيلة (الهليم) ذو مذاق سيئ فاقد لطعم اللحم اللذيذ.



عبدالله بن حمود الطريقي



بريدة مقر الإمارة في منطقة القصيم

«سكرية يا مالة عنيزة»

«سكرية يا مالة عنيزة»، هكذا يقول أهل مكة، ورغم شهرة سكري مدينة عنيزة وجودة تمورها إلا أن أجود أنواع السكري توجد في بريدة وذلك لوجود أرضية أفضل لنخلة السكري في بعض الأماكن، لكن الشهرة نالتها عنيزه أكثر بسبب ما كان يردده بائعو التمور في مكة وهم يسوقون لتمور السكري: «يلا قزب سكرية يا مالة عنيزة»!!، لا يعني ما أقوله الآن أن تمور عنيزة ليست ممتازة، كلا هي ممتازة جداً جداً، لكنني تعمقت في الأمر وأردت أن أصل إلى أفضل أنواع الممتاز منها وهذا هو رأيي حسب معرفتي واطلاعي، الفلاح يعتبر النخلة إحدى حبيباته، تماماً كما أقول، فهو يهتم بها وقد تجذرت علاقته معها وأصبح هناك رابط عاطفي يفوق الرابط التجاري كونها مصدراً من مصادر رزقه، فهو مرتبط بها ارتباطاً روحياً كما يرتبط العاشقان ببعضهما البعض، ويبدو مجازاً أن النخلة تستشعر حب صاحبها فتعطيه مقابل هذا الاهتمام رطباً حلواً كتعبير منها عن حبها له وعرفاناً لاهتمامه بها، وبهذه الطريقة ترد له كل هداياه من تعهده لها بسقاية ماء ثابتة حسب كل موسم، وعدم التأخر في كربها وإظهارها بكامل حسنها وأناقته، كان أصحاب النخيل المتميز يتمتعون بسمعة وشهرة، الصديق والزميل عقلا العقلا كان معلماً للتربية البدنية ودرس في ألمانيا، لديه نخيل سكري يضرب به المثل لحلاوته وجودته حتى أطلق الناس على تموره جالكسي نسبة لنوع من الحلويات يستخدم فيها الكاكاو، كان لا يذهب إلى السوق لبيع تموره بل كان الناس هم من يأتون من كل مناطق المملكة إلى مزرعته، وعقلا العقلا، رجل صادق وخدوم ذو تقدير من الآخرين، لديه تلك التصرفات الطيبة الفطرية، حتى إنني كنت شاهداً في يوم ما على شهادته عندما كنا ندرس في القاهرة، كان يوم إجازة وتوجهنا إلى القناطر الخيرية، كانت هناك بعض الجسور الخشبية فوق ممرات مائية، وبينما كانت مجموعة من الفتيات يعبرن أحد الجسور إذ تحطم الجسر وسقطت البنات في الماء، فقام عقلة بتصرف عفوي بقذف نفسه في الماء وإنقاذ الفتيات بينما كان بعض المارة يسرقون شئنهن! لنخلة السكري نوعان، واحدة صفراء وأخرى حمراء، الحمراء مصدرها من المذنب، والمذنب مشهورة بإنتاج القمح اللقيمي الذي يصنع منه الجريش، ما رأيكم أن نذهب قليلاً إلى المذنب قبل أن أنسى ما تذكرته عنها، ثم أعود لنخلة السكري، حدث أن زار المذنب عدد من أفراد عائلة البسام واستضافهم أمير المذنب فهد العقيلي -رحمه الله-، وضع أمامهم

صحون الجريش (القمح) اللقيمي، فاستطاب لهم الطعام، ولما عادوا إلى عنيزة كتبوا للعقيلي يشكرونه على ضيافته ويطلبون منه إرسال حملين من اللقيمي ولما طبخوه في عنيزة لم تكن نتائجه مثل الذي أكلوه عندما كانوا في المذنب، فكتبوا للأمير العقيلي وقالوا له: «لم ترسل لنا نوع اللقيمي الذي أكلناه عندك!» فأجابهم العقيلي: «لقد أرسلنا لكم النوع نفسه لكننا لم نرسل لكم أيادي الناصريات اللاتي طبخن عندما كنتم في ضيافتي»، والناصريات نساء من أهل المذنب ويسمين بالناصريات لقبيلتهم النواصر، الأمير فهد العقيلي كان رجلاً كريماً، كان يقول للصبي الذي يصب القهوة أكثر من الهيل، وعندما تسوء الظروف المادية وينعدم المال لشراء الهيل، كان يأمر الصبي بوضع القرنفل بديلاً عن الهيل قائلاً: «إن ابن القيم ذكره في زاد المعاد»، وعندما كانت تتحسن الحال المادية للأمير فهد كان يشتري الهيل ويأمر الصبي بتنظيف (الدلال) من القرنفل قائلاً: «اغسل الدلال عن هالمصنح»، أما القرنفل فكان يسمى بالمسمار أيضاً، والبدو يسمونه بالعويدي. أعود للسكري... رغم كل هذا الإنتاج الممتاز الذي وصل إلى قارات العالم وكل هذه السمعة التي حققتها السواعد السعودية إلا أن هذه السواعد تخلت عن تلك العلاقة المباشرة مع النخلة، عندما توجهت نحو الوظيفة، بقي الحب وذكرياته، وبقي النخيل في عنيزة باسقاء، لكن الأيادي التي تشرق عليه غير سعودية، إذ اقتسم الباكستانيون والأفغان هذه المهمة وسيطروا على إنتاج التمور.

نخلة البرحي نخلة عراقية، وبالرغم من تعدد أنواع النخيل في العراق كما في المملكة إلا أن البرحي هي الأشهر والأطعم من بين نخيل العراق، يرجع الفضل بعد الله بإحضارها إلى عنيزة لأسرة البسام، الذين أحضروا نخلتين من البصرة حملتها الإبل، وغرست النخلتان في مزرعة البسام (المنيفية) (38) بعنيزة، وانتشرت انتشاراً واسعاً بالقصيم، البرحي انتشر في المملكة انطلاقاً من القصيم حسب اعتقادي الشديد بذلك، والعجيب أن موسم البرحي يستمر عدة أشهر في المملكة، فإذا ما انتهى موسم القصيم يأتي البرحي من حائل، ثم من تبوك ثم من الجوف، أي إن موسم الإنتاج يمتد إلى عدة أشهر، وتعتبر ثمرة البرحي ثمرة متألفة وشهرتها في اتساع، أذكر عندما كان سعر كرتون البرحي الذي يزن ٣ كيلو يباع بثلاثة ريالات، أما سعره اليوم فيصل إلى أربعين ريالاً!



المنيفية مزرعة لعائلة البسام في عنيزة.

رحلة صيد

عندما أفكر في الإنسان الذي يعيش ظروف وتقلبات الحياة، أجد أن رحمة الله تحيط به دائماً وفي كل وقت ومكان، لست خبيراً أو مؤرخاً بالأرصاد الجوية، لكنني أستطيع القول بأن نسبة الأمطار التي كانت تهطل في تلك الفترة التي كنت فيها صبياً كانت أكثر من اليوم، بدليل انتشار العديد من الطيور عندما تتشكل برك المياه من الأمطار (فيضات) (39) بصورة كبيرة في الصحاري، فأصناف الطيور وأنواع الحيوانات الأخرى كل ذلك مرتبط بالماء، لا يعني ذلك أن الأمطار اليوم شحيحة بشكل دائم، لا ليس كذلك، لكنني أفسر أن وفرة عدد الحيوانات البرية والطيور مرتبط بوجود المياه أولاً، وقد كان عددها في صحارينا أكثر بكثير مما هو موجود اليوم، شيء آخر يفسر أيضاً تكاثرها أو تناقصها وهو الصيد الجائر، حيث سهّل وجود السيارة هذا الصيد وأصبح الصياد يستطيع أن يقطع في سيارته مئة كيلومتر في اليوم يصطاد فيها الطيور والحيوانات في هذه المساحة، بينما كان وقبل ظهور السيارة لا يستطيع أن يصطاد بعشرة بالمئة من المساحة التي تصلها السيارة، كل ذلك على حساب البيئة التي فقدنا تنوعها، لكنني سعدت كثيراً بالقرارات الحكومية الحازمة التي أعلنت اعتبار مساحات شاسعة من المملكة كمحميات طبيعية، وعلى هذا الأساس سيعود التوازن الطبيعي الذي افتقدناه، أعود لرحمة الله الدائمة، وأقول إن شح الأمطار وجفاف العديد من الآبار كان يهدد إقامة الإنسان في المكان، لكن الله سبحانه منّ علينا بالنفط في الوقت الذي بدأت العديد من الآبار بالجفاف، إنها دائماً رحمة الله.

عندما كانت الأمطار تشكل برك المياه، كانت الطيور تزين السماء وتخبرنا بأصواتها بأن المواسم مما صنعها الله حتى يسعد بنو آدم ويُنوع ألوان الدنيا أمامه وحتى لا يصاب بالملل لأن الإنسان بطبيعته ملول، بعد هطول الأمطار كان طائر القطا لا يبتعد كثيراً عن برك المياه، وما كان أي صياد يفوت هذه الفرصة، كانت تنصب له الشباك بالقرب من مصدر الماء، وعندما يتم اصطياده تنزع منه عدة ريشات من جناحه حتى لا يتمكن من الطيران، كان الصيادون يضعونه في قفة (40) ويأتون به إلى السوق لبيعه، بعد ذلك صاروا يركبون السيارات لاصطياده بالبندقية (الشوزن) (41). باتت كميات صيده كبيرة عندما تكاثر وجود السيارات والبنادق، في الحقيقة لم تكن كبيرة فقط، بل كانت معظم طرق صيده فجة وتفتقر للذوق والمهارة، الفارق بين صيد

القطا اليوم والأمس أنه يتم صيده اليوم للتسلية، بينما كان صيده بالأمس لسد الجوع والتكسب من بيعه، لا أظن أن الأجيال الماضية لتقبل بما يحصل للحيوان عندما تطورت حياة الإنسان اليوم، لقد كانت الحيوانات شريكاً مفيداً ووفياً عندما كانت الظروف قاسية وصعبة.

يحكي لي والدي أنه وبينما كان خارجاً من دكانه وماراً بالحيالة (المكان الذي يباع فيه العلف) وإذا بامرأة تربط العلف بثوب، قالت لي: «اشترِ يا عم»، فقلت لها: «اشتريت سابقاً»، فقالت: «عشانا وقهوتنا بهالثوب هذا!». أي إنها وأسرتها لا يملكون شيئاً ولن يملكوا ثمن عشائهم وقهوتهم إن لم يبيعوا العلف المربوط بالثوب، فقال لها: «أوصليه إلي بيتي وأعطيني قطعة قماش ثانية حتى أضع لكم فيها السكر والشاي»، ثم يقول والدي بأنه توجه إلى بقالته، وفي ذلك الوقت كان هناك شخص اسمه القطعي ويعمل عند الأمير، كان يمر على البقالات طالباً منهم إغلاقها أثناء الصلاة، يقول: «كنت أريد فتح الدكان حتى أضع للمرأة ما وعهدتها به، فخفت من مرور القطعي، وإذا بعقيل المحمد العقيل مار من هناك وهو رجل وقور ومحترم، فقلت له قف هنا حتى إذا جاء القطعي واكتشف أنني أفتح دكاني تقوم بالشفاعة لي عنده، وكبرنا وتركت الدكان أصبحت ومجموعة من كبار السن نجلس بالمشراق، والمشراق هو مكان يجتمع فيه كبار السن عند جزء مفتوح من سور عنيزة، في إحدى صباحات المشراق ذكرت قصة المرأة تلك»، فقال لي أحد الجالسين: «هذي زوجتي أم ابراهيم ويعلم الله أننا الآن لا نشترى السكر بالكيس الواحد (الكيس مئة كيلو) بل بالكيسين»، كانت تلك الحكاية صورة لما حصل من تغير كبير في أوضاع الناس ورحمة الله بهم، لقد عشنا مع طائر القطا ونحن في تلك الظروف الصعبة، وكنا نصطاده غالباً في الشباك، فهل بعد أن من الله علينا بالنعم نقوم بصيد الطيور بهذه الطرق التي تؤذي التوازن البيئي؟ أشعر بأن الطيور بما فيها القطا تقول لنا: «لم تكونوا تصطادونا بهذه الطريقة المؤذية قبل أن تدخل السيارة في خدمتكم وقبل أن تصبح البنادق بين أيديكم، لقد صرتم تصطادونا بوحشية، هل نفهم بذلك أنكم لم تكونوا يوماً ودودين معنا؟ وأن الذي منعكم من تجلي قسوتكم على حقيقتها، هو غياب أدوات صيدكم الحديثة هذه في الزمن الماضي؟!؟»

في ١٣٦٩ هجري - ١٩٥٠ ميلادي، أي قبل ٧٢ عاماً ذهبت من عنيزة لزيارة أخي عبد الله الذي كان يعمل على خط أنابيب التابلاين (42) في حزم الجلاميد (43) في الخط الممتد إلى البحر الأبيض نحو (صيدا) في لبنان، وقد زودتني أمي بهدية عبارة عن «تنكة» كليجا (44) لأخي عبد الله، مازلت أذكر وفائي الشديد لأمي ولأخي عبد الله عندما قاومت كل رغبة كانت تدعوني إلى مدّ يدي نحو التنكة وأكل بعض الكليجا، قاومت تلك الرغبة وحدثت نفسي بأن منظر

التنكة وهي مليئة كما أعطتها لي أمي سيدخل السعادة على قلب عبد الله،
اصبر يا عبد العزيز وستتناول الكليجا مع أخيك، وهذا ما حدث... عندما
وصلت عند أخي عبد الله وفتحنا التنكة تناولت واحدة وقلت لأخي عبد الله:
«لقد مرت هذه التنكة بأخطار عديدة لكنني حميتها وحافظت عليها من كل
يد كانت ستمتد إليها»، أثناء عودتي بعد عدة أيام قضيتها مع أخي، وفي
الطريق من أبو مشعاب (45) إلى عرعر التقيت بأمير (كامب) الشركة الأمريكية
سليمان المحمد المطرودي -رحمه الله-، وهو قريب لنا وكان -رحمه الله-
شخصية معروفة ومحترمة وكريمة، أقمت عنده عدة أيام، وفي يوم من هذه
الأيام قال لي نريد أن نذهب للصيد (نقنص)، تعال معنا يا عبد العزيز لنصطاد
الغزلان، كانت هناك سيارتان وبداخلهما بعض العمال، إحدى السيارتين كانت
من نوع نسيميه (قلابي)، وهي شاحنة تنقل الأتربة والأحجار عادة، خرجنا في
الصباح وعندما حان وقت الظهر وإذا (هم) قد اصطادوا ٤٢ غزالاً وذئباً ونسراً.
جلس العمال يفتحون بطون الغزلان ويرمون ما بداخلها حتى تكون نظيفة
وصالحة للطبخ، ولما وصلنا إلى الكامب أعطي سليمان المطرودي -رحمه الله-
الموظف الأمريكي رئيس الكامب بعضاً من الغزلان، وأعطى بعض أفراد
الشرطة الذين كانوا يعملون في تلك المنطقة كذلك، والباقي منها قام عماله
بسلمه وتخليه، وأصبح غداً وعشاؤنا ولعدة أيام عبارة عن أرز وغزلان،
رحمهم الله جميعاً وأطال في عمر الأحياء منهم، لاحظوا بأنني قلت (هم) ولم
أقل (إننا) أي إنني لم أجمع نفسي معهم كون قرار الصيد لم يكن لي علاقة به،
لكنني وللحقيقة أكلت من الغزلان حتى شبعت، ومن كثرة ما أكلت منها
اعتدتها ونسيت أن ما أكله إنما هو لحم غزلان، أنا لم أطلق نحو الغزلان أية
رصاصات، كنت مدعواً فقط، ماذا... هل تعتبرون بأنني ساهمت في موت
الغزلان؟ لا أعتقد ذلك، لنكن منصفين، لقد كنت مدعواً فقط، لقد كان ذلك
الصيد سلوكاً عاماً تقريباً، الكل كان يصطاد بهذه الطريقة، في هذه الرحلة تم
اصطياد ٤٢ غزالاً، يا له من رقم كبير، لقد كان قطيع غزلان، بمعنى أن قطعان
الغزلان كانت تعيش في أراضينا بكثرة، كم منكم شاهد قطيع غزلان في
صحارينا الآن؟ لقد انقرضت بشكل عام بفعل صيدها، بقيت تلك الرحلة في
ذاكرتي، وبقي لدي سؤال طالما كنت أكرره، إذا كان اصطياد الغزلان لأكلها،
فلماذا تم اصطياد الذئب؟ قد يكون ذلك كون الذئب حيواناً شرساً مخيفاً،
السؤال الآخر هو: «لماذا تم اصطياد النسرا؟!».



الفيضة

(١٦)

سيبويه أخي!

.. بين فينة وأخرى، عندما أمرّ بجانب مدرسة وأنا في هذا السن، يعمل عقلي دائماً على أن يريني فيلماً قصيراً تمر به وجوه أساتذتي... وأصواتهم وحيطان الفصول بلونها البني، ها هم يتراوون أمامي... يبتسمون وهم ينظرون نحوي، ذاك هو الشيخ سليمان الشبل مدرس مادة الدين، يسمى بالشيخ لأنه يدرس مادة الدين، وذاك حمد الشريف، كان يعمل فراشاً لكنه كان ضمن من علمونا الحساب، يبدو أن الطموح جعله يمارس وظيفتين في آن واحد، أما ذلك المعلم الذي عرفه وراه الكثيرون فهو عبد الرحمن عبد الله أبا الخيل... لم نكن نعلم بأنه سيصبح وزيراً للشؤون الاجتماعية، لم نكن نعرف حينها أن هناك وزارة اسمها الشؤون الاجتماعية، كان معلمنا الوزير هذا مع عبد الرحمن الصالح العليان قد اشتركا في وظيفة واحدة (معلم) وكان يتم اقتسام الراتب بينهما، وكان أبا الخيل يدرّسنا التاريخ والأناشيد وكان يلحن لنا الأناشيد حتى يسهل علينا حفظها، لا أشك بأن موهبة التلحين عنده كانت عظيمة خصوصاً وأنني لم أنس ألحان تلك الأناشيد إلى غاية يومنا هذا، سأردد واحد من تلك الأناشيد الآن كما لحنه الأستاذ عبد الرحمن، هل توجد طريقة أسمعكم بها اللحن؟ انظروا.. سوف أسمح لكم بأن تلحنوا النشيد بطريقتكم وأنتم تقرؤونه، على أن يكون لحناً جميلاً:

سمعت شعراً للعندليب

تلاه فوق الغصن الرطيب

إذا قال نفسي نفس رقيقة

لم تهو إلا حسن الطبيعه

أطير فيها من فرط وجد

من غصن ورد لغصن ورد

أما عبد الرحمن العليان الذي ذهبت قبل أسبوع من الآن للاطمئنان على صحته ورأيته جالساً على كرسيه المتحرك وهو بصحة جيدة فلم أكن أحد

طلابه، أتذكر أنه كان يدرس مراحل الرابع والخامس الابتدائي، وأتصور أنني عندما التحقت بتلك الصفوف درسي زملاء الأستاذ عبد الرحمن، الأستاذ محمد الخليفة كان يدرس مادة الدين للسنة الابتدائية الثانية، كان ممن يساعد المدرسين أولئك الذين سافروا خارج عنيزة وخارج المملكة ثم عادوا بصورة مؤقتة، منهم منصور الغانم وكان ممن يسافر إلى الهند والعراق، عندما يعود لعنيزة يساعد المعلمين كمتطوع، ومنهم صالح الأحمد الذكر الذي درسنا التربية البدنية وعلّمنا الألعاب السويدية والجري، وهو أول من رأيتة يلبس البنطلون في عنيزة، لم تكن شنتنا من الجلود أو البلاستيك، بل كانت مما يتوفر من القماش، تخطها لنا أمهاتنا، كنا نعلق الشنطة على مسمار في جدار الفصل، لم يكن لدينا براية لبري الأقلام، كان الأستاذ عبد المحسن يملك سكيناً فضياً حاداً، نذهب إليه فيقوم ببري أقلامنا وهو ينظر إلينا مبتسماً ويرى إن كانت تصدر من وجوهنا ملامح إعجاب عن مهارته في البري وحده سكينه، بعد عدة سنوات أصبحنا نستخدم الحبر والريشة بديلاً للقلم، كانت الريشة من ماركة (الملا) كتب على علبتها هذا الاسم، يا له من أسلوب كتابة قديم، فالكتابة بالريشة طريقة قديمة جداً، لكن شعوراً جميلاً يعتريك وأنت تضع الريشة في المحبرة وكأنك عالم يوشك على حل مسألة رياضية عويصة، أو خليفة يكتب خطاباً مزلزلاً، أو شاعر يكتب قصيدة رقيقة، كان بعض الأولاد ممن يمتنعون عن الذهاب إلى المدرسة يضعون بعض الحبر على ملابسهم ليوهموا الناس بأنهم كانوا يدرسون وأن الحبر ما هو إلا دليل عن كثرة الكتابة والتعلم، كانت المدرسة تتفقد الطلاب الذين يتغيبون، وكانت إدارة المدرسة ترسل المراسل عبد الرحمن الغدامي إلى منزل الطالب المتغيب، فيسجل المراسل العذر الذي أدى إلى تغيب الطالب عن المدرسة، كانت بعض الأعذار ومن أشهرها: «ثوبه منشق ولا عنده ثوب ثاني!»، أو «كاشت برحله»، أو «أثره ما جا الحمار!» أي إن ابنهم خرج من البيت ولكنه لم يذهب إلى المدرسة وأنهم مندهشون من تصرفه فوصفوه بالحمار! كانت المدرسة منضبطة، كان من يخطئ كثيراً يعاقب بالضرب على يده، أما إذا كان الخطأ كبيراً وسلك به سلوكاً سيئاً مثل شربه التتن (دخان السجائر) أو اعتدائه على أحد زملائه وتنمره عليه، أو أنه شوهد وهو يسرق تمر النخل في مزرعة ما، كانت توضع أقدامه في المشلّة (46) (تسمى في بعض البلدان الفلكة) ويتم ضربه في الطابور الصباحي أو عند الانصراف، مع الإعلان عن ما اقترفه، لم أحرب المشلّة... بصراحة كنت طالباً لا يحب أن يخوض المغامرات... حسناً... كنت خوّافاً، هل هذا التعبير أصدق عندكم ويرضي بعضكم؟ ها أنا ذا أقولها لكم... كنت خوّافاً... أيها الناس... أيها القراء... لقد كنت خوّافاً! لا أظن أن هناك اعترافاً أكبر من هذا ولا أوضح منه، لا يمر حديث عن النخيل دون أن تسترجع ذاكرتي حكاية أو معلومة ما، ذكرت أن بعض الطلبة الذين يعاقبون كانوا يسرقون التمر، فتذكرت النخلة (الونانة)

وهي من النخيل المشهورة في القصيم، جاء بدوي للسوق لشراء التمر فقال للبائع: «وش هالتمر؟» فقال له: «هذه هي الونانة»، فقال البدوي: «الونانة والله اللي عندي»... قاصداً بذلك زوجته!، يبدو أنها كانت (تَوْن) على رأسه بالكثير من الأمور والطلبات، وقد لا تكون كذلك، لعلها طالبت ببعض حقوقها أو رفع ظلم عنها، أعود للونانة، كان هناك شخص اسمه سويلم، كان مطوَّع في قرية اسمها (نفي) أتى سويلم على حماره إلى عنيزة ليشتري لوازمه، وفي الطريق جلس ليرتاح وأعدَّ قهوته، فجاءه مجموعة ممن كانوا يسمون بالأخوان، وفي الأخوان فئة من المتطوعين الجهلاء، اضطر الملك عبد العزيز إلى تأديبهم لاحقاً، جلسوا عند سويلم فقدم لهم التمر والقهوة، والونانة (47) ثمرة تذوب في الفم مثل الشوكولاته فأعجبهم طعمها، فقالوا: «يا سويلم، ما نوع هذا التمر؟» فقال: «هذه الونانة»، فقالوا بعصبية: «ماذا تقول؟ اسمها الونانة!! وهل هناك تمر أو نخلة تَوْن؟، هل تستهزئ بنا؟». حاول سويلم -رحمه الله- أن يقنعهم بأن الونانة هو اسم النخلة وليس له علاقة بتسميتها بهذا الاسم، ولكن لم تنجح كل محاولاته، فقاموا بضربه ضرباً مبرحاً بعد أن شربوا قهوته وأكلوا ثمره! نخلة الونانة نخلة كريمة، وبمجرد أن تحرك عذقتها حتى تسقط لك عدة تمرات، وثمره الونانة ثمرة كبيرة، بالمناسبة أتدرون لماذا سميت الونانة بهذا الاسم؟ لا أعلم لكنني سأحكي لكم كيف تسمى بعض الأنواع من النخيل، عندما يغرس أحدهم النوى (العبس (48)) في الأرض تطلع نبتة صغيرة ثم تتضاعف أوراقها، ثم تصل لمرحلة الفرخ، ويسمونها البعض (الفريخ (49)) كتصغير للاسم، إذا زرع الفرخ في البيت أو في المزرعة يسمى غريسة، وإذا أثمرت النخلة يتم تقييم جودتها، ثم يطلق عليها صاحبها اسماً يختاره هو، عبد الرحمن العبد العزيز الزامل السليم أطلق على مزرعته اسم «العُبيَّة»، برفع العين وكسر الباء (الفظوها كيفما شئتم ما عدا أن تلفظونها الغيبة المأخوذة من الغباء) وعندما زرع فرخ نخلة وأعجبه إنتاجها أسمى النخلة بالزاملية نسبة لعائلته، ويستطيع كل من يريد أن يسمي نخيله أن يطلق الاسم الذي يشاء على ما يزرعه من نخيل، لكن ذلك لا يضمن أي انتشار للاسم أو النخلة، ذلك الانتشار يحتاج إلى حظ أقوى وجودة عالية، مثل نبتة العلي (50)، وسبّاقة، نبتة العلي يعود اسمها للذي زرعها ونشرها، أما سبّاقة فلا أعرف سبب هذه التسمية، لا أعتقد أن الذي زرعها كان اسمه سبّاقة!

عبد الرحمن العبد العزيز الزامل السليم -رحمه الله- كان رجلاً واسع الاطلاع، وثقافته عالية، كانت لديه مكتبة كبيرة وهو من طلاب الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، وطلاب الشيخ ابن سعدي في الفترة التي درست خلالها عنده كانا كباراً وضيغاراً، وعبد الرحمن الزامل وعبد الله البريكان وابراهيم الغرير وعبد العزيز محمد البسام وسليمان البراهيم البسام وحمد محمد البسام كانوا طلاب ابن سعدي الكبار، أما الصغار فأذكر منهم علي الزامل وحمد المرزوقي

وعبد العزيز المساعد وأنا عبد العزيز النعيم وأخي عبد الله النعيم، ومحمد العثيمين الشيخ المشهور، كان عبد الرحمن الزامل يحضر درس ابن سعدي بعد صلاة العصر ثم اشترى سيارة وأصبح يركن سيارته بجانب المسجد، كان عبد الرحمن الزامل مزارعاً ومزرعته «العَبِيَّة»، مزرعة جميلة وأنيقة، وكانت مصدر رزقه، ولا شك أن البركة كانت قد حلت بها، رحمه الله ترك أثراً طيباً في مدينته وعند كل من عرفه وتعامل معه. سأعود لاحقاً للحديث عن السنوات التي درست بها عند الشيخ ابن سعدي، وسأعود الآن للحديث عن المدرسة الابتدائية، لماذا أتيت على ذكر الونائة الآن؟ لقد انتهت تمورها الآن وليس لدي في البيت أي تمر منها، لها طعم رائع كما قلت لكم يشبه الشوكولاتة...

كنت من الطلبة المجتهدين، لكن أخي عبد الله (أبو علي) كان أكثر اجتهاداً مني خصوصاً في النحو وقواعد اللغة، جاءنا مرة إلى المدرسة مفتش من الحجاز اسمه (صادق كردي) وأعجبه ذكاء عبد الله وإجاباته، فأطلق عليه لقب سيبويه (51)، ما إن عدنا إلى البيت حتى أخبرنا والدنا باللقب الذي ناله عبد الله، فأسعده ذلك كثيراً، لكنه لم يستطع أن ينطق اسم سيبويه بصورة صحيحة، كان كلما رأى عبد الله مقبلاً يقول له: «هلا سيك پريص»، أو يقول له: «هلا بولدي اللي قال عنه المعلم إنه سيدرصيه!»، مازلت أذكر تماماً عندما دعى والدي المعلمين على العشاء، كان موعد العشاء بعد صلاة العصر، وضع الطعام على صحن «موكر» (52) والموكر صحن كبير له قاعدة دائرية مرتفعة، كان في الصحن جريش وقليل من الأرز خلط بالكركم المطحون للتلوين، تحت الجريش قطع لحم صغيرة مطبوخة مع المشمش الناعم (قمر الدين) (53) الذي كان يسميه أهل عنيزة جلدة الفرس! ذلك لشبهه بجلد الفرس، بالإضافة للمحلبية (المهلبية)، كل الصحون (المواعين) والبرقان (54) تم جمعها من عند حيراننا، كانت مسألة إغارة الأسر الصحون بعضها البعض في المناسبات أمراً عادياً، حتى قطع الذهب كان يتم استلافها من إحداهن فتحضر بها المرأة العرس ثم تعيدها إلى صاحبته لاحقاً، في ذلك العشاء الذي أعده والدي حاولت أن أقوم بخدمتهم على أكمل وجه، كنت نشيطاً لا أتوقف عن الحركة والعمل، أحضرت الماء وحملت الصحون وصببت ماء (البريق) على أيدي المدرسين بعد أن تناولوا عشاءهم، أعلم أن من هو مثلي كان عليه أن يفعل ذلك كون وليمة العشاء كانت في منزل والده، لكنني اجتهدت كثيراً وبذلت مجهوداً كبيراً رغبة مني في سماع بعض الثناء علي من بعض المعلمين، كنت أتخيل أحدهم يقول: «ما شاء الله أثره شاطر في المدرسة وفي البيت!.. لكن ذلك لم يحدث».

كنت وأخي عبد الله نحب القراءة كما ذكرت لكم، كان هناك في عنيزة كتب كثيرة عند بعض المشايخ كابن سعدي وغيره، لكنها كانت كتباً ذات طابع ديني وفقهي، وأعتقد أن أول مكتبة متنوعة تبيع الصحف والمجلات وأنواع مختلفة من الكتب كانت من تأسيس موسى عبد الله الضبيبن، وكان موسى رجلاً مثقفاً وكان موقع مكتبته في نهاية سوق الهفوف بالقرب من سوق الحرير، كان موسى يلجأ إلى تدبير أوراق المجلات حتى لا يري محتواها أولئك الذين يختلسون النظر إلى الصفحات ويقرؤونها دون أن يشتروا المجلة، ما زلت أتذكر توافر مجلة المصور (55) المصرية وآخر ساعة (56)، وروز اليوسف (57) وصحيفة البلاد السعودية ولاحقاً وبعد مدة ليست بالقليلة وصلت مجلة العربي الكويتية (58)، في أول سفرة لي مع أصدقائي للبحرين عام 1369هـ اشترينا بعض الكتب من ضمنها كتب شعرت بجرأة مضمونها وهي لمؤلفين مصريين، وأذكر أنني اشتريت مذكرات هتلر (59).

طيب نوق!

عندما ظهرت وسائل النقل الحديثة تغير معها العالم بشكل سريع، لقد سهلت عملية التنقل التي كانت تعتبر شاقة صعبة قبل ذلك، وقد كان نمط الحياة بطيئاً وما كان يستغرق أياماً أو شهوراً طويلة صار اليوم يتطلب ساعات في السيارات أو الطائرات، ليس في تنقل الأفراد فقط بل في تنقل البضائع أيضاً، كان السفر من عنيزة إلى الرياض يستغرق أياماً حتى يتم قطع ما يصل إلى ٣٠٠ كيلومتر، الآن لا تتجاوز المدة الساعتين والنصف في سيارة مكيفة مع وسائل ترفيه من راديو أو مما أحضره الإنترنت، كانت الرحلة على الجمال تتطلب عدة أيام والمبيت في الصحراء، لكن وجود وسائل جديدة دائماً يعني اختفاء وسائل أخرى كانت سائدة من قبل لأن الحاجة إليها لم تعد موجودة، وبمعنى آخر لم تعد نافعة، في داخل عنيزة كانت وسائل النقل هي الجمال والحمير، الجمال للأحمال الثقيلة والمسافات الطويلة أيضاً، أما الحمير فكانت للمسافات القصيرة والأحمال الأقل وزناً، أستطيع أن أقول إن الحمار يشبه سيارة صغيرة تتحرك بخفة، بينما الجمل يشبه سيارة نقل للبضائع، لم يكن كل بيت يمتلك حماراً كما يمتلك كل بيت سيارة اليوم، الحمارون هم من كانوا يمتلكون الحمير لاستخدامها في النقل مقابل أجره يتفق عليها بعض الفلاحين، أيضاً كان لديهم حميرهم الخاصة بهم وذلك لحاجتهم الدائمة لها، كان للحمارين سوقاً في عنيزة يسمى سوق الحمير تُباع وتُشترى فيه مثل ما هو حاصل اليوم في سوق الأغنام أو الجمال، قد يعتقد البعض أن الرجل الذي يعمل على حماره يعمل عملاً سهلاً، والحقيقة أنه ليس كذلك، بل له تفاصيله التي تظهر هذا التعب الذي يتكبده صاحب الحمار مع حماره، فالعمل في الصيف وفي الطقس الحار متعب ومرهق للغاية، وفي الشتاء أيضاً كذلك إذ يتحملان معاً ظروف الطقس البارد والطين الموحل، كما أن صاحب الحمار مطالب دائماً بأن يحافظ على ضمان دخل معين كل يوم حتى يوقر بعض المال من أجل قوت أسرته ولدفع مصاريف حماره من طعام وشراب، مما دفع الحمارين لأن يعبروا بكلمات خاصة بهم أمام من يحاول نقل شيء ما ويريد أن يبخرهم، إذ كانوا يلمزون بعض الكلمات التي لا يفهمها ذاك الذي يجادلهم ويفاوضهم على السعر، فكانوا يقولون مثلاً: «بالك يا خوه»، وهم يقصدون بذلك الذي يفاوضهم أنه أخ للحمار، لكن الزبون عادة لا يفطن لذلك فيعتقد أن صاحب الحمار يقول له يا أخي! هذا بعض مما كانوا يظنون أنهم كانوا ينتقمون به دون أن يستخدموا أسلوباً عنيفاً، أو كانوا يعتذرون للزبون

ببساطة إن ظنوا بأنه لن يعطيهم أجرتهم المستحقة قائلين: «الحمار ما يعدي العتبة»، أي إن الحمار لا قدرة له على تجاوز عتبة الباب كونه ضعيفاً، أو يقولون ذلك كرفض قاطع على قبول المهمة، في بداية ظهور السيارات كان الحمار ما يزال وسيلة نقل مطلوبة، استغرق انتشار السيارات في عنيزة سنوات طويلة حتى تقاعد الحمار من الخدمة، وفي إحدى المرات صدم سائق سيارة حمّاراً فمات الرجل ومات حماره معه، تجمع الناس وأخذوا سائق السيارة إلى القاضي (ابن عودان)، نظر القاضي في القضية فحكم على مالك السيارة بدية مقدارها ثلاثة آلاف ريال، وكان مبلغاً كبيراً، غبط الحمارون زميلهم الميت وقالوا: «والله فلان جاب قيمة!» أي إن ثمنه أصبح مرتفعاً، احتج صاحب السيارة وقال للشيخ: «يا شيخ لماذا حكمت عليّ بهذا الحكم القاسي... فالحمار يسمع صوت السيارة بينما أنا لا أسمع صوت الحمار؟» أجابه ابن عودان: «أعلم بأنك لم تتعمد قتله، ولو كنت متعمداً لحكمت عليك بفشقة (طلقة) في هذا المجلس!» احتار مالك السيارة بشأن الدية التي فرضت عليه، حاول أن يجمع المبلغ بكل الطرق لدرجة أنه طلب أخذ توصية ورسالة من الإمارة كتب فيها مبلغ الدية واضطر أن يسافر للحجاز حتى يجمع المال من أهل عنيزة الذين يقيمون هناك، كانت عدة عوائل تقيم في الحجاز منها عائلة الذكير والحمدان عائلة الوزير ابن سليمان وعائلة الخريجي والتركي.

لم تكن هناك سباقات مخصصة للحمير، بل للخيل والجمال، أتذكر أن سباقات الجمال كانت تُقام بشكل ثنائي، أي بين جمل وآخر، كان لطيور الحمام سباقاتها أيضاً، كان الصبية أو حتى بعض الشباب يأخذون حمامهم إلى مسافات بعيدة ويطلقونها من هناك ثم ينظرون أي الطيور ستعود إلى مالكها أولاً، كان بعض ملاك الحمام يفقدون بعض طيورهم التي لا تتمكن من العودة وتذهب إلى مكان آخر، تلك السباقات لا يدخلها إلا أولئك الواثقون من أن حمامهم يعرف مكانه جيداً، كان هناك أيضاً سوق أسبوعي لبيع وشراء الحمام، وسوق للجمال، حدث أن تراهن أحدهم مع آخر رهاناً عن عدد أسنان الجمل العلوية، كان الأول يقول بأن للجمل عشر أسنان علوية، بينما الثاني كان يقول أن لا أسنان علوية للجمل، ذهب إلى (الحيالة) وهو اسم يطلق على مكان تجمع الإبل، فتحا فم الجمل واكتشف الذي قال بأن للجمل عشرة أسنان علوية بأن لا أسنان علوية له! ففاز الآخر بالرهان، هل كنتم تعلمون بأن الجمل لا أسنان علوية له؟، قد يعرف بعضكم الإجابة، لكن بعضكم الآخر لا يعرفها، ولا ألوم من لا يعرف ذلك، فنحن في المدينة لا نتعامل اليوم مع الجمال كما كنا نتعامل معها في الماضي، كما أن للجمل شفة علوية تغطي موضع الأسنان فلا يظهر لنا إن كانت له أسنان علوية أم لا، لا بد أن الكثير منكم كان يعتقد أن الجمل مثله مثل باقي الحيوانات الأخرى له أسنان علوية، أرجو أن تكون

هذه المعلومة جديدة عليكم، أرجوكم قولوا ذلك... لكي أشعر بأنني أضفت شيئاً جديداً لمعلوماتكم!

انتظروا!!.. لدي معلومة أخرى قد تقنع من كان له رأي آخر بشأن معلومة أسنان الجمل، كونها كانت معلومة غير مهمة، هل تعلم بأن لدينا في ذلك الزمن مستشفى بيطري للحيوانات؟ ربما لم يكن مستشفى بالشكل الذي عليه المستشفى البيطري اليوم، لكنه كان يؤدي الغرض نفسه، أشهر الأمراض التي كانت تصيب الحمير هو ما كان يسمى بالكلز، والكلز مرض يصيب الحمار في لثته العليا من الداخل، يُؤخذ الحمار إلى المعالج الذي تعلم العلاج بالممارسة، يمسك بالحمار مجموعة من الرجال حتى يسيطروا عليه، يفتحون فمه بعد ذلك ويضعون الملح في سقف فمه وشفته من الأعلى، وكان هذا العلاج ناجحاً بصورة عامة.

أما الجمال فأبرز ما كان يصيبها هو الجرب، رحم الله محمد القدهي وقد كان رجلاً كريماً ومحترماً أعطاه الله موهبة علاج الجمال المصابة بالجرب، وكانت لديه مزرعة اسمها السكيتية، فإذا قابله شخص يريد أن يعالج ناقته يقول له أرسلها إلى السكيتية، محمد القدهي يخلط البودره بالماء ويضعها على الناقة فيسقط وبرها، ثم يضع السمن العرابي على جسدها في مرحلة ثانية وهو سمن ينتجه البدو في البادية، يخلط السمن بنوع من أنواع السم الذي كان يُباع ببعض البقالات، وكان الجمل يشفى من الجرب بعد ذلك، كان محمد القدهي رجلاً كريماً كما سبق وذكرت لكم، فهو يقيم دائماً وليمة لكل رجل جاء لعلاج ناقته، حتى انتشر مثل عن محمد القدهي -رحمه الله-، ويقول المثل عن كرمه: «محمد القدهي يطلي ويغدي!»، أيضاً في موسم الربيع تصاب الجمال بدابة صغيرة تشبه الصرصار ولونها أحمر، يتم معالجة الجمل أيضاً بطريقة مشابهة وذلك بإسقاط وبر الجمل من جسده، ودهنه عدة مرات ثم يتخلص الجمل مما أصابه.

لم يترك محبو صياغة الأمثال أية صورة إلا واستخرجوا منها مثلاً يُضاف لقائمة الأمثال التي تعبر عن حكمة أو قراءة لحالة إنسانية أو اجتماعية معينة، ومن ذلك قيل في الأمثال عن الشخص الذي يعد ولا يفي بوعوده: «هذا ذيل أجرب!» أي إنه لا كلمة له، فلا تستطيع أن تمسك بوعد من وعوده كونه شخصاً متبدلاً لا وفاء له، مثله مثل ذيل الناقة الأجرّب الفاقد للشعر بعد دهنه بالبودرة إذ يصبح ملمسه ناعماً وزلقاً يصعب الإمساك به.

معلمون في عنيزة

مضت السنوات الخمس التي درستها في المدرسة العزيزية سريعة وممتعة، اليوم وبعد حوالي ٨٠ عاماً مازلت أقول بأن جيل المعلمين في عنيزة آنذاك عملوا بحب لأبناء مدينتهم وبلدهم، ليس لديّ تفسير لحماسة صالح بن صالح الدائمة وزملائه سوى أن أقول بأنهم عملوا من أجل تغيير واقع قائم إلى واقع أفضل، ولا يغيّر الواقع كما يغيّره التعليم والعلم، كان صالح بن صالح واسع المعرفة وصادق النية وكان وزملاؤه يقدمون لنا أقصى ما لديهم، لا أقول ذلك من باب الحنين إلى الماضي، والإنسان بطبعه إذا ما اشتاق إلى أمر ما فإنه يتذكر إيجابياته ويتناسى سلبياته، ليست لديّ سلبيات أذكرها... بل لديّ محبة لأولئك المعلمين الذين أتذكّرهم الآن وأنا أشاهد تلك الحماسة التي تظهر على وجوههم وهم يشرحون لنا الدروس وتلك النظرات التي كانت تتفحصنا لتتأكد أو لتتحسس ذلك الشعور بأننا فهمنا الشرح وحفظنا الدرس، كان ابن صالح لا يفوّت زائراً متعلماً يأتي لزيارة عنيزة دون أن يستعين به لنقل خبرته للطلبة، كان من أبناء عنيزة الذين يعيشون خارجها من المتعلمين من يزورون عنيزة كل عام أو أشهر فكان ابن صالح يدعوهم لإعطاء الدروس في المدرسة وكانوا يلبون دعوته وأذكر من الطلاب الأستاذ صالح العبيكي الذي نجح نجاحاً كبيراً في سلك التعليم حتى أصبح أستاذاً مشاركاً ورفضت الجامعة إعطاءه إخلاء طرف عندما رغب بمغادرتها وذلك لأهميته وحاجتها إليه.

زادت مدرستنا عدد مراحل السنوات الدراسية ووصلت إلى غاية الصف الخامس، لم يفتح فصل دراسي للصف السادس وقتها لعدم وجود العدد الكافي من الطلبة، وكان لا بدّ من وجود عشرة طلاب على الأقل حتى يتمّ افتتاح الصف السادس، هكذا أنهيت سنوات المدرسة الخمس دون أن أنهى المرحلة الابتدائية، كل ما كان عليّ فعله هو الانتظار والتعلم بما هو متاح، أقول الانتظار لأن المملكة كانت تتقدم في كل المجالات، وكان التعليم هو من المجالات البارزة التي كانت المملكة تتقدم فيها، أستطيع أن أقول بأن المملكة حينها كانت أشبه بورشة عمل كبيرة، لقد وصل الأمر بالحكومة للدرجة التي وفرت صفوفاً تعليمية للبدو الرحل، ووصلت المدارس للقري البعيدة في أعالي الجبال، لا يعد هذا الأمر عادياً إذا ما رأينا خريطة المملكة وتأملنا مساحتها الشاسعة وتضاريسها المتنوعة، كان تحدياً نجحت به قيادتنا لعملها

الدؤوب وإخلاصها ونيتها الطيبة، لا تنجح الأعمال دون نوايا طيبة، أظن أنني أنا أيضاً كنت ذا نوايا طيبة، لست أنا فقط بل العديد من الأولاد الذين كانوا يكبرونني أو الأصغر سناً مني، أقول ذلك لأننا كنا من أبناء الجيل الذي درس وتعلم عند الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، هكذا وجدت نفسي بعد أن أنهيت الصف الخامس، ما بين مساعدة أبي في بقالته وبين تحصيل الدروس عند ابن سعدي، لقد كانت سنوات طويلة، لا أذكر تحديداً كم من الوقت لكنني أقدرها بثمان أو تسع سنوات تقريباً، كان المجتمع يتطور وكان الأطفال حينها موعودين بمستقبل مشرق إذا ما هم استمروا في تحصيل تعليمهم، وهذا ما حصل، كل من راكم تعليماً جيداً استطاع أن يحصل على وظيفة جيدة بل العديد حصلوا على وظائف مرموقة، كانت المملكة بحاجة إلى أكثر عدد من المتعلمين من أبنائها.

علامات فارقة من عنيزة!

من حظ مدينة عنيزة أن كان من أبنائها الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، هذا العلامة الذي فقد حنان والديه عندما توفيا في صغره واستطاع أن يحوّل ذلك الفقد إلى قوة عجيبة في مواجهة الحياة على أجمل وجه، كان نبعاً من حب يسقي من محبته الصغير والكبير، بشوشاً منذ طفولته التي أظهر بها ذكاءً متميزاً، قدرة على التفكير وقوة في الحفظ، وإخلاصاً دائماً، لا أشك أن المخلص يصل إلى مبتغاه وإن طال الطريق، الإخلاص سرّ من أسرار النجاح، الإخلاص هو التفسير الحقيقي والسر الخفي وراء تحقيق منجز ما، خصوصاً إذا ما كان هذا المنجز الناجح ذا فائدة تعمّ الجميع، كان متوسط القامة ذا مشية هادئة لا تلفت الأنظار، نظيفاً في ملبسه، أنيقاً دائماً، هادئاً، لم أشاهده يوماً غاضباً، عطوفاً جداً على الأطفال، لديه المقدرة على الاستماع إليهم بإنصات حتى إن لم يكن حديث أحدهم ذا طرفة أو ذا معنى، درس على يد الشيخ «صالح بن عثمان القاضي» (60) الذي درس بالأزهر قبل أن يعمل قاضياً في عنيزة، أنا أحب ابن سعدي لتواضعه رغم غزارة علمه، ولأنه رجل رغم شهرته إلا أنه لا يدعي معرفة ما لا يعرفه، لم يدخل الغرور إلى قلبه، يكفي أن أقول لكم بأنه وأثناء شرحه لنا «ألفية ابن مالك» (61) بينما كان يعلمنا القواعد وعند وصوله إلى الصرف قال لنا: «خلاص الحين... إذا لم تستطع شيئاً فدعه»، لقد أعلن لنا بذلك بأنه غير متمكن من إعطائنا دروس الصرف، كان ذلك وهو ابن سعدي الشهير، بقي قوله هذا واحداً من أسباب إعجابي به، كنت طالباً صغيراً، لم أتجاوز الـ ١٢ عاماً عندما التحقت أنا ومجموعة من الطلبة بالدروس التي يقيمها ابن سعدي في المسجد، كنت وأخي عبد الله ومحمد العثيمين الذي خلف ابن سعدي وأصبح عالماً على مستوى إسلامي بالإضافة إلى بعض الطلبة الذين لا يتصرون، علي الزامل الذي كان عبقرياً في النحو، وحمد المرزوقي وعبد العزيز المساعد، كنا نحاول أن نساعدهم دائماً، أذكر أنني كنت أسأل علي الزامل بعد أن أقرأ عليه مقطعاً هل تريدني أن أعيد قراءته؟ كان يقول لا... خل المعلومة (تركذ) في ذهني، الشيخ محمد بن عثيمين كان طالباً نجيباً وجاداً أثناء الدروس، لم يكن يضحك معنا عندما كنا نضحك لأمر ما، كان أذكى منا في البحث عن المعلومة، كانت مكتبة المسجد الجامع كبيرة ومليئة بالكتب وإذا ما سألنا محمد العثيمين أن يعطينا معلومة كان يقول بأنها موجودة في الكتاب الفلاني اذهبوا وابحثوا عنها، كان يريد منا أن نجتهد وأن نتعلم أكثر، كنا في

ذلك الوقت نجلس نستمع للدروس التي كان يعطيها الشيخ ابن سعدي في المسجد الجامع للطلبة الأكبر سناً منا، أذكر منهم إبراهيم الغزير، وعبد العزيز المحمد البسام، وسليمان البراهيم البسام، ومحمد عبد العزيز المطوع، وعبد الله البريكان، وكنا نأخذ بعض الدروس المباشرة في ذلك الوقت من معلمين آخرين، كان الشيخ محمد عبد العزيز المطوع والشيخ حمد المحمد البسام يعلمونا الفقه واللغة العربية، كانت دروس الطلبة الصغار عند العصر، وكان ابن سعدي يعطي دروسه على فترتين، فترة (الضحى) وفي العصر، كان ينهض باكراً ويبدأ يومه بقراءة القرآن مع سليمان العلي الزامل وقد استمر على قراءة القرآن معاً في هذا التوقيت سنين طويلة، ما إن ينهي ابن سعدي درس الضحى حتى يخرج من المسجد متجهاً نحو مزرعة مليحان العائدة لعائلة المنصور الزامل، كان فيها حجرة، وكان ابن سعدي يتوضأ أو يستحم من ماء البئر في هذه الحجرة التي تعطيه شيئاً من الخصوصية. لشخصية ابن سعدي دور كبير في نجاحه في تعليم الطلبة آنذاك، لقد كان الطلبة يحبونه ويحترمونه وهذا ما جعلهم دائماً يحرسون على الاهتمام بدروسهم حتى يظهروا أمامه بمنظر لائق. ورغم علمه الغزير وما ألقه من كتب إلا أنه رفض أن يكون قاضياً رغم عرضهم القضاء عليه عدة مرات، وأفسر ذلك بسبب أمرين، الأول أن القضاء مسؤولية ويحتاج إلى التفرغ التام، الثاني أنه كان محباً للتعليم ولم يكن يريد أن يحرم نفسه من هذه المتعة ومن القائدة التي يعطيها للطلاب، وابن سعدي بدأ تعليم الطلبة منذ مطلع شبابه، فأصبح يعلم ويتعلم، كان الناس يستفتون المشايخ في أمور حياتهم، ليس من الضروري في بعض الأحيان أن تذهب إلى الشيخ أو إلى القاضي في مسكنه أو في الجامع، لا يمنع أن تلتقيه في الطريق لتعرض على القاضي قضيتك أنت وخصمك، أو أن تلتقي بالشيخ في مكان تصادفه به لتستفتيه في أمر ما، أذكر عندما جاء أحد الصبية الصغار إلى الشيخ ابن سعدي قائلاً له: «يا شيخ كان عندي ديك ورميته بحجر فأصاب الحجر رأسه»، أجابه ابن سعدي: «اذهب لأهلك واطلب منهم ريالاً وتصدق به على أحد الفقراء». كان ابن سعدي يفسر القرآن في المسجد الجامع ما بين صلاة المغرب والعشاء، وهو ما يوضح لنا كيف سخر هذا الرجل يومه للعلم والتعلم، أذكر أنني وفي درس من دروس ما بين المغرب والعشاء بينما كان الشيخ عبد الرحمن بن سعدي يفسر سورة (الملك) ووصل إلى آخر آية فيها: (فمن يأتيكم بماء معين) (62)، عندما سمعتها قلت بصوت مرتفع سمعه كل الحاضرين: «يأتي به الله»، فأسعدت إجابتي والدي الذي كان حاضراً في المسجد، وأصبح يروي ذلك في كل مكان يذهب إليه وكنت أسعد كثيراً عندما يحكي لأصدقائه عن إجابتي تلك، وإذا ما جاء أحدهم إلى الدكان كنت أنتظر أبي أن يخبر الزبون عن قصة إجابتي التي لا يجيبها إلا الأذكىء حسب اعتقاده آنذاك، وكنت أحزن قليلاً إذا نسي أبي أن يحكيها لأحد الزبائن أو الضيوف ويغادر دون أن يعلم بما

حدث ودون أن أحصل على عبارات الثناء التي كانت تملأ صدري سعادة، كنت صبياً صغيراً وكانت تؤثر بي كلمات المديح تلك، بل كل الأطفال والصبية كانت تسعدهم تلك الكلمات وتملؤهم طاقة وفرحاً، ليس الأطفال فقط بل حتي الرجال والنساء، الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - وإن كان ودوداً بشوشاً إلا أنه كان ذا شخصية قوية، في وقت من الأوقات عُيِّن قاض جديد في عنيزة، لا نعلم لماذا كان القاضي يطلب من الناس أن يكتفوا بارتداء الشماع الأحمر وأن لا يرتدوا الغترة البيضاء، كان طلبه غريباً، لم يعجب ذلك الطلب معظم أهالي عنيزة، ما إن ألح في طلبه حتى أصبح كل طلبة ابن سعدي يرتدون الغترة البيضاء، أعتقد بأن ابن سعدي أراد أن يوصل للقاضي رسالة مفادها أن لا يتدخل في ما لا يعنيه وأن لبس الشماع أو الغترة هي حرية شخصية يجب أن لا يعتدي عليها. درس العديد من رجال عنيزة على يد ابن سعدي ولا أشك لحظة بأنهم كانوا محظوظين عندما شاءت أقدارهم بأن يكون معلمهم ولسنوات طويلة شخصية بهذا العلم وبهذه الأخلاق، ولا أشك أيضاً أن شخصية ابن سعدي أثرت بصورة ما في شخصيات العديد من طلبته وبقي تأثيره عليهم طويلاً، فالمعلم الفاضل يؤدي دوراً أكبر من إيصال المعلومات وشرحها لطلبته، بل يتجاوز ذلك ويصل إلى زرع القيم الأخلاقية والصفات الحميدة في عقول وقلوب الطلاب، كان كل وقت الشيخ للعلم وللناس، هذا هو الإخلاص وهذا من أسباب نجاحه. للشيخ ابن سعدي أخ اسمه حمد، وكان حمد تاجراً وقدم الدعم المالي كثيراً لأخيه ولسنوات طويلة، وكذلك فعل أبناء الشيخ ابن سعدي الذين عاشوا لاحقاً في المنطقة الشرقية والرياض، كان أبناؤه خير سند مالي له بحيث إنه لم يأخذ مالا من أحد ما ولم يأخذ مالا مقابل دروس التعليم التي قدمها لعشرات السنين وخرّجت أسماء لامعة ليست على صعيد عنيزة فقط بل على مستوى المملكة، بل إن بعض أسماء طلبته فاقت شهرتهم حدود المملكة، كان وما زال ملوك المملكة وولاة الأمر يحرصون أن يكون علماء الدين والفقهاء في حالة ميسورة وأن يكونوا في غنى عن سؤال أحد أموالاً أو قضاء حاجة، أرسل الملك خالد - رحمه الله - مالا للشيخ عبد الرحمن بن سعدي فأخذ الشيخ المال وقام ببناء مسجدين بالمبلغ المرسل إليه. كان ابن سعدي يدفع من جيبه جوائز لطلبته حتى يحفزهم على المثابرة وبذل المزيد من الجهد ويكافئهم عن ما يبذلونه، أذكر أنه قال لنا بأن الذي يحفظ كتاب (بلوغ المرام) أعطيه جائزة قدرها مئة ريال، لم يفوت أخي عبد الله تلك الفرصة، جلس منكباً على الكتاب حتى قال للشيخ ابن سعدي لقد حفظته يا شيخ، قام ابن سعدي باختبار عبد الله ثم أعطاه مئة ريال فضية! يا له من مبلغ كبير وكم هو رجل كريم شيخنا رحمه الله، كان رحيماً خفيفاً على القلب، حتى في نصحه كان رقيقاً ومقنعاً. كان التدخين يعد تهمة كبيرة والمدخن كان يعاني من قلة احترام الناس، في إحدى المرات اشترى ابن سعدي حمل حطباً من جمال،

فسقط من الجمال كيس الدخان، التقط الشيخ الكيس وأعادَه للجمال، قيل للشيخ لماذا أعدت إليه الكيس وأنت تعلم بأنه كيس دخان، قال: «لو لم إعطه إياه لذهب واشترى كيساً آخر وقد يحرم أبناءه بذلك من الطعام».

يحكى أنه في إحدى المرات سافر إلى مكة وكان الكثير من سائقي السيارات من المدخنين، كان ابن سعدي يطلب من السائق أن يتوقف كل ساعة أو ساعتين وينزل من السيارة ويمشي بعيداً كأنه يريد أن يقضي حاجته، والحقيقة أنه كان يفعل ذلك حتى يعطي فرصة للسائق ليدخن .

الذئب والأغنام

لم يكن أبناء عنيزة هم فقط من يتعلمون عند الشيخ ابن سعدي، بل كان الطلبة يتوافدون إليه من المناطق المجاورة، كان الشيخ قد حقق شهرة واسعة، ما زلت أذكر محمد الحسياني، جاء من المذنب حتى يتعلم عند ابن سعدي، شكلنا معه صداقة بعد إن استأجر بيتاً في حارتنا، كنا نجمع القروش حتى نشترى كبدة ونطبخها عنده، وما زلت أذكر تماماً ذلك الضير الذي كان لقبه خرعان، لا أعرف الأسباب التي دعت لإطلاق هذا اللقب عليه، كان لديه كيس فيه تمر من شقرا، وتمور شقرا لا تقاوم، كان لديه أيضاً زبد ذو مذاق رائع، كنا ننتظره حتى يخرج فنهجم على تمره وزبدته، أذكر ذكاهه ورهافة إحساسه ودقته في تحديد الأصوات، ليست أصوات البشر والآلات فقط، بل أبعد من ذلك. في موسم من مواسم الحج ضاعت لخرعان أضحية، كان سوق عنيزة يمتلئ بالأغنام لبيع وشراء الأضاحي، سمع صوت شاة تتغو من بين مئات أصوات الأغنام، فقال هذه شاتي الضائعة! أخبر راعي الأغنام بأن الشاة شاته، قال له راعي الأغنام: «ما هو ذليلك؟» فقال خرعان: «هناك ورم صغير في بطنها وبجانب سرتها»، تلمس راعي الأغنام بطن الشاة ووجد الورم الصغير بجانب سرة الشاة، وتمت إعادتها إلى خرعان، لم يعتبر راعي الأغنام ضم الشاة سرقة، فقد كانت ضائعة، ذلك أن الشرع يبيح أخذ الشاة الضالة، لم أنس ذلك الخروف الذي وجدناه وحيداً وأنا وأخي صالح وسبعة أشخاص آخرين، لم يتبق منهم إلا أنا وعقلا محمد العقلا -أطال الله في عمره-، أتذكر رحلتنا تلك وكأنها حدثت بالأمس، عندما كنا متوجهين إلى المدينة المنورة، كنا نذهب كل عام للعبادة، هبت عاصفة في الليل، وفي الصباح وقبل أن نصل إلى (البدائع 63)) وجدنا ذلك الخروف الجميل، كنا نستطيع أخذه لكننا لم نكن نعرف ماذا نفعل به، فتركناه في وحدته، كان ينظر إلينا بينما نحن نبتعد عنه، أستطيع أن أقول بأنه كان تحروفاً أنيقاً، كان صوفه نظيفاً ومجزوزاً وكأنه خارج للتو من صالون حلاقة! ترى ماذا كان ليقول عنا بعد أن تركناه دون أن نحوله إلى وجبة غداء؟، هل تساءل وقال:

«هل تبدلت عادات الإنسان بتأثير تلك العاصفة؟» لا أعلم ما الذي حلّ به، سمعت أن لابن القيم بحث يقول فيه إن الله سبحانه وتعالى أحلّ البركة في الأغنام، الناس يأكلونها والذئب يأكل منها والأمراض تفتك بها ومع ذلك فهي تملأ الأرض وهي لا تلد في السنة إلا مرة أو مرتين، بينما أنثى الذئب تلد كل

سنة أشهر، وفي كل مرة تلد خمسة أو ستة أبناء ورغم ذلك فمن النادر أن ترى ذئباً كما أن أعدادها لا تقارن بالأغنام، وذلك أن الله بارك في الأغنام.

كانت للذئاب آنذاك قصص كثيرة تروى حولها كونها تعيش في الصحراء وكان العديد من السكان يعيشون في الصحراء ويتنقلون فيها، والذئب حيوان تعلم من الحيل ما مكنه من البقاء والاستمرار، يحكى أن ذئباً دخل إلى فناء بيت في قرية في عسيلة من قرى (السر(64)) الواقعة بين القصيم والوشم، دخل الذئب عبر مجرى صغير ممتد من خارج البيت إلى داخله، وهو مجرى على شكل أنبوبة مخصص لتصريف مياه السيل، دخل الذئب جائعاً ببطن خاوية، فوجد مجموعة من الأغنام فقتل كل الأغنام وأكل واحدة منها، لكنه لم يستطع الخروج من مجرى السيل لأن بطنه أصبحت منتفخة، جاء سكان البيت فوجدوا أغنامهم مقتولة والذئب ميتاً بجانبها، سحبوا الذئب وأخرجوه خارج البيت، ما إن شعر بأنهم ابتعدوا عنه حتى انتصب على قوائمه وراح يركض بعيداً، لا أعرف لماذا يقتل الذئب مجموعة من الأغنام إذا كان يريد أن يأكل واحدة فقط!، قد تكون تلك هي غريزة القتل، لا شك أنها صفة سيئة في الذئب تلحق الخسارة الكبيرة بأصحاب الأغنام، فلو أنه يأكل ما يقتله لتفهمت سلوكه، لكنه يقتل من أجل أن يقتل وهذا ما جعلني لا أحب هذا الحيوان. حكى لي والدي -رحمه الله- أنه وزميل له كانا مسافرين، وبينما هما في واد مليء بالحطب كانت مياه السيل قد أزالَت تربة أرضه وأبقت الأحجار الصغيرة، يقول والدي إنه بينما كان يعد القهوة سمع صوتاً خلفه يشبه وقع أقدام على الأحجار الصغيرة، ما إن التفت حتى وجد ذئباً خلفه يتربص وهو يتهيأ للوثوب عليه، فقام والدي وبسرعة كبيرة جداً بإطلاق النار على الذئب الذي سقط ميتاً، لا أظن أن الذئب كان يريد الحصول على القهوة! يقول والدي بأن زميله أراد أن يأكل كبد الذئب ظناً منه أن أكل كبد الذئب يعلم الشجاعة! ما أعلمه أن أشرس أنواع الذئاب في منطقتنا هي التي كانت تستوطن المنطقة القريبة من ساحل البحر الأحمر ويعرف بذب الساحل، لقد تلاشت هذه العلاقة بين الإنسان والذئب واندثرت قصصها كون الإنسان راح يستوطن المدينة بينما بقي الذئب على حالته، يبقر بطون الأغنام منتقماً من راعي الأغنام الذي لم يفعل له شيئاً سيئاً حتى يجازيه الذئب بهذه الوضاعة!

أعود للحديث عن الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله، وقد أكرر بعض القصص عنه في القادم من حديثي، كونه جزءاً لا يتجزأ من تاريخ عنيزة خلال عشرات السنين الماضية، لا شك في أن ذكره عطرة كون ما قدمه هو العلم، والعلم خير، والناس تذكرك بالخير إذا فعلت الخير، ما زلت أذكر شخصاً أتذكر منه اسم الغندور، كان طالباً عند ابن سعدي ويبدو أنه لم يكن متفوقاً أو جيداً في دروسه، أذكر أنه كان يرثي حاله وحال بعض زملائه بسبب ضعف

ذاكرتهم، قال الغندور جملة ما زلت أذكرها لغاية الآن: «بينما يتحدث ابن سعدي في المسجد نسمع كلامه ونفهمه وإذا ما خرجنا نسيناه، نحن مثل (الزبيل) إذا وضعت في البركة يمتلئ بالماء وإذا رفعته خرّ منه الماء كله!».

اهتم أهل عنيزة كما ذكرت لكم بالتعليم، وأصبحوا يفرقون في تعاملهم بين المتعلم وغير المتعلم، كما أصبح للمعلم مكانة محترمة، يبدو أن تلك المكانة هي من دفعت أبي لتوجيهي حتى أصبح معلماً حيث يحظى المعلم بالاحترام والتقدير، كان للمعلم راتب جيد جداً، كما أن ملبسه تكون دائماً نظيفة وغير متسخة، يحكى أن رجلاً غير متعلم خطب فتاةً متعلمة من أبيها المتعلم أيضاً، كان الرجل من عائلة طيبة الذكر، كان يعمل بوظيفة تتطلب أن تكون ملبسه متسخة دائماً، لم يرفض الأب طلب الرجل مباشرة لكنه سأل الرجل السؤال التالي: «عندما فتح البنك العقاري وأقرض الناس فبنوا بيوتهم، ما كان نوع أبواب البيوت؟» فقال الرجل: «مصنوعة من الحديد، وعليها نقوش مختلفة»، فقال والد الفتاة: «هل رأيت إحدى هذه البيوت الحديثة لها باب (إنبوع) -والإنبوع هي نخلة مقطوعة تصنع من جذعها الأبواب التقليدية-، فهم الرجل أن والد الفتاة لن يزوجه ابنته لأن ابنته متعلمة تشبه (الفيلا) الجميلة بينما هو مثل الباب الخشبي التقليدي الذي لا يصلح للفيلا، لا أعتبر أن ذلك قسوة من والد الفتاة على الرجل، لكن المتعلم يختلف عن غير المتعلم، ومن عدم التكافؤ أن تتزوج فتاة متعلمة ومثقفة برجل لا يجيد القراءة والكتابة.

زواج بين عنيزة وبريدة!

سنوات وأنا بعمر الصبا، بين عملي في دكان أبي بشكل يومي وبين الدروس التي أحضرها في المسجد، أساعد أبي في دكانه بجانب أخي صالح، تعلمت البيع وكنت ممتازاً في استخدام الميزان والكيل، كنت دقيقاً وأعيد عملية الوزن إذا ما ساورني أي شك في عملية الوزن، القمح والأرز والذرة كنا نزنها بالمكيال، وكانت الأوزان أربعة، الصاع وأصغر منه النصف ثم الربيع ثم الثمين، كان لدي والدي دفتر للدكان يسجل فيه حركة البيع لكن أحداً لم يكن يستطيع قراءة ما يكتب سوى أنا وأخي صالح، كان خط والدي أشبه بشفرة لا يستطيع فكها سوانا نحن الاثنين، عندما كبرت وسافرت إلى القاهرة كنت أتبادل مع والدي الرسائل، وكان البريد المصري حينها يفتح الرسائل ويراقبها ويكتب على ظرف الرسالة المفتوحة «فتحت بواسطة الرقيب!» لا أشك أن رسائل والدي كانت لغزاً عصياً على الرقيب، فأنا وأخي صالح فقط كنا نعرف أشكال الحروف التي كان يقصدها والدي عندما يكتب الكلمة، وأن الحرف الذي يبدو شكله أقرب إلى حرف الهاء هو في الحقيقة حرف الدال وأن ما يشبه الراء هو حرف الكاف وأن الميم في أحيان كثيرة تكون أقرب إلى حرف الياء!

سنوات مضت بعد خروجي من المدرسة، التعلّم في الجامع كانت له متعته أيضاً، لكن عنيزة كانت تتغير، وما أسعد الناس إذا ما كان كان التغيير نحو الأفضل، بدأت المدارس تنتشر، أصبحت هناك ثلاث مدارس في عنيزة وجميعها للمرحلة الابتدائية، كان على كل من يريد أن يكمل تعليمه بعد الابتدائية أن يذهب إلى مكة أو إلى الرياض، كان المعهد العلمي في مكة المكرمة يستقبل الطلاب من مختلف الأنحاء، وإذا ما أراد الطالب أن يكمل تعليمه بعد المعهد فإن الوجهة المفضلة كانت هي مصر، بدأنا نشاهد المعلمين العرب وهم يتوافدون إلى عنيزة كما توافدوا إلى باقي مدن المملكة وقراها، كانت هناك طفرة تعليمية في كل الأرجاء احتاجت فيها المملكة إلى كل من يستطيع من أبنائها المساهمة فيها بالإضافة إلى المعلمين العرب لسدّ النقص في عدد المعلمين.

مازلت أتحدث عن مرحلة لا يوجد فيها كهرباء، الكهرباء المتوفرة هي تلك التي ذكرتها لكم، بدأت بعض السيارات بالظهور في الطرقات، وبدأت أجهزة

الراديو بالانتشار، اشترينا جهاز راديو مستعمل من نوع (فيليبس)، كان والدي يستمع لإذاعة موسكو، وكنا نستمع معه، والدي كان يحب الاستماع للأخبار، وكانت إذاعة موسكو آنذاك تتحدث عن الاشتراكية وأفكارها، كانت الحرب العالمية قد انتهت بانتصار الحلفاء، وعادت الأسواق للانتعاش بعد شخّ في بعض أصناف الأطعمة وبعض المنتوجات، مازلت أتذكر أزمة الشاي، وأزمة الكبريت، ما إن توقفت الحرب حتى امتلأت الأسواق بالبضائع القادمة من الهند، لكن انتهاء الحرب وحقق دماء الملايين لم يكن بالأمر الجيد لبعض التجار الذين كانوا قد اشتروا بأموالهم بضائع بأسعار مرتفعة الثمن، عندما توقفت الحرب أصبحت الطرق آمنة وما كان يستخدم للحرب أصبح يستخدم مدنياً كالسفن والمصانع، انخفضت الأسعار فأفلس العديد من التجار الذين كانوا قد كدسوا بضائعهم في المخازن أو الذين اشتروها بأسعار مرتفعة ولم يصرفوها قبل انتهاء الحرب. التجارة عموماً ربح وخسارة ويلعب التوقيت دوراً مهماً في ذلك، لا شك أن الكثير من الناس أيضاً أصبحوا تجاراً بفضل الحرب، كانت الهند خطأً تجارياً مهماً لتزويد مناطق الخليج عموماً بالبضائع. أسرة البسام تواجدت في الهند منذ مائتي عام تقريباً واستثمرت في بضائعها، كما أن تواجدها هناك أعطى العديد من أبنائها الثقافة والمعرفة، حتى إن بعض أبنائهم كانوا يجيدون اللغة الإنجليزية، عندما كانت تصل إلى عنيزة برقية كتبت باللغة الإنجليزية كان يترجمها أحد أبناء البسام ممن يجيدون التحدث بها. أستطيع القول إن عنيزة كانت مدينة صناعية على صعيد محلي وصغير، كان بها سوق للصناع، لم تكن نستورد شيئاً له علاقة بالأواني المنزلية مثل القدور والصحون، ما إن تحدثت الآن عن سوق الصناع حتى تذكرت السوق المخصص للنساء أيضاً، كانت هناك امرأة تلقب بأم المالا، كانت تبيع لنا نحن الأطفال التمرة الواحدة مقابل عشرة نوى من التمر ونسميه العبس، كان الأطفال يبحثون في الأرض عن العبس ثم يتوجهون به لأم المالا لتستبدله لهم بتمرة، كانت أم المالا تبيع العبس للمشتريين ولكن بمقابل نقدي، أعتقد أن أم المالا هي الوحيدة التي استخدمت العبس كعملة تجارية، رحمها الله وأسكنها فسيح جناته، لا غرابة في أن أم المالا كانت تبيع العبس في ذاك الزمن، ففي الظروف الصعبة يتم استثمار كل شيء، ولا يبقى شيء دون أن تكون له فائدة. عموماً النخيل في عنيزة أو القصيم بشكل عام أو في أي مكان له مكانته التجارية والعاطفية أيضاً، فالنخلة شجرة مباركة وكل ما فيها صالح للاستفادة منه. أهل عنيزة، حتى بعد أن مرّ الله على المملكة بالخير ولم يعد النخيل يشكل أحد مصادر دخلهم الرئيسية حافظوا على تلك العادة الطيبة، وهي (تدليل) النخلة والاهتمام بها، لا تدل النخلة في عنيزة فقط، بل في بريدة وفي المناطق المجاورة أيضاً، بل إن في كل مكان يوجد فيه إنتاج ممتاز للنخيل إلا ويوجد فيه دلال للنخلة، هي عملية تبادل، عندما ذكرت الدلال وبريدة تذكرت تلك الحكاية التي تشير إلى

بعض الاختلافات في بعض الطباع بين بريدة وعنيزة، المعروف أن رجال عنيزة يكتفون بزوجة واحدة ولا يعددون في زوجاتهم، بينما رجال بريدة لا يرون ذلك وتعدد الزوجات أمر طبيعي لديهم، تزوج رجل من عنيزة بامرأة من بريدة، بعد سنوات قليلة أراد الرجل أن يتزوج بامرأة أخرى، فقالت له المرأة: «إني لم أقبل بالزواج منك إلا لأنك من عنيزة»، ورجال عنيزة لا يتزوجون على زوجاتهم، فقال لها الرجل: «وأنا لم أتزوجك إلا لأنك من بريدة»، والرجال في بريدة يتزوجون على زوجاتهم والنساء في بريدة اعتدن على ذلك! لا أعلم ما الذي حدث لهما وإلى ماذا انتهى نقاشهما، أنا شخصياً لم أفكر يوماً بالزواج على زوجتي... وهل كنت أستطيع فعل ذلك؟ لا... لست ممن يفكرون بهذه الطريقة، كنت محباً لزوجتي أم محمد وكنت مهتماً بها وبأبنائي، كنا دائماً نسعى إلى ما يقربنا من بعضنا البعض، قد يقول أحد القراء بآني لم أتزوج من امرأة أخرى لأنني كنت أخاف من زوجتي! حسناً كنت أخاف منها، هل ترضيك هذه الإجابة؟ هل تريدني أن أقولها بصوت يسمعه كل القراء؟ أيها القراء الكرام ها أنا وبصوت مرتفع أقول لكم نعم لم أتزوج على زوجتي لأنني كنت أخاف منها! كنت أخاف... كنت أخاف... هل رضيت بذلك عزيزي القارئ المشكك؟!، لماذا افترضت أن هناك قارئاً فكر بأن عدم زواجي بأخرى سببه خوفي من زوجتي؟ لماذا اتجهت لهذا الاتجاه الذي جعلني أقول وبصوت مرتفع بآني كنت خائفاً، الحقيقة كما قلت لكم، نحن أهل عنيزة لا نعدّد على زوجاتنا، أولئك الذين عددوا هم فئة صغيرة، كما أنني كما ذكرت لكم كنت أحب زوجتي ومازلت أحبها بعد رحيلها ولها فضل كبير عليّ بعد الله.

عن ماذا كنا نتحدث...؟ حسناً كنت مازلت أتحدث عن عنيزة الجميلة التي اهتمت بالتعليم فأفاد العلم أبناءها، يقول أهل عنيزة بأن أول طبيب سعودي كان من عنيزة هو حمد البسام، لا أستطيع تأكيد ذلك فالمملكة كبيرة، ولكن حمد البسام قد يكون من أوائل الأطباء إن لم يكن الأول. من الأمور التي تشعرني بالسعادة اليوم هو رؤيتي للأطباء السعوديين وهم يملؤون المستشفيات، أنا شخصياً عملت على ذلك بطريقة ما عندما دفعت أبنائي نحو التعلّم حتى أصبح ثلاثة منهم أطباء، سأحكي لكم ذلك لاحقاً، فأنا مازلت وأنا أتحدث إليكم الآن أرى طرق عنيزة الرملية وبيوتها الطينية وأمسياتها التي تشع فيها المصابيح، طوال سنوات عملت خلالها في دكان أبي لا أتذكر أنه حدثت هناك مشكلة لها علاقة بالبيع أو الشراء، لا شك أن الثقة وحسن النية كانتا مبدأ التعامل الأول، فالناس كانوا بطبيعتهم طيبين ومسالمين، حتى المشاكل التي تحصل لم يكن القاضي يجد صعوبة في حلها أو في تنفيذ الناس لأحكامه، كان هناك من يساعد القاضي من المختصين في بعض المشاكل، كان القاضي يرسل المتخاصمين إلى عثمان العباد في القضايا التي

تكون لها علاقة بالبقر، كان خبيراً اكتسب خبرته من خلال معرفته بالأبقار، وكان يرسل المتخصصين إلى عبد الله الصهيل في حال كان الخلاف له علاقة بالجمال، أما الغنم فإلى عليّ الباني، كانوا جميعاً خبراء وكل في مجاله، وخبرتهم هذه أعطتهم فُرَاسة في استنباط الحقيفة وموقع الحق، كان هناك جزار -رحمه الله-، ما زلت أتذكر كيف كان يأسف من اتهام الناس له بأنه لا يتقيد بذبح الناقة السمينة، وقد كان فعلاً يذبح الناقة الطيبة والهزيلة سوياً، لكنه كان يقول بأنه مظلوم وأنه لو ذبح ناقة سمينة بخمس مائة يُلّ لقال الناس بأنه ذبح (هليم) أي هزيلة وضعيفة، فالناس لن تصدق ولن ترضى! ولأهل عنيزة في رمضان عادة جيدة، يذبحون كل خميس في رمضان ذبائح من إبل وغنم، وكانوا يوزعون منها (طعمة) أي يوزعون لحومها على الناس وعليّ المحتاجين، أما آخر خميس من رمضان فكان يسمى بالخميس اليتيم لأنه الخميس الأخير في رمضان فيتم زيادة الذبح فيه، أما ما كان يسمى بعيد الأبرار والمقصود بالأبرار هم البارون بوالديهم والمتصدقون عنهم، وهو يصادف اليوم الثامن من شوال فقد كانت تُذبح فيه الكثير من الذبائح، قيل إن أحد القضاة كان في زيارة لعنيزة وشاهد كل هذه الذبائح وسمع مسمى (عيد الأبرار) فكتب للملك عبد العزيز أن أهل عنيزة لديهم عيد ثالث وهذا لا يجوز!

كان للناس الحق في إبداء الرأي في القاضي الذي يعين عندهم، إذا لم يعجبهم قاضياً ما كانوا يرسلون برقيات أو مندوبين للملك في شأنه، بعض من أهل بريدة أبرقوا للملك عبد العزيز أنهم لا يقبلون عمر بن سليم (65) قاضياً لبريدة، لم يرد عليهم الملك، بعد مدة قصيرة زار الملك عبد العزيز -رحمه الله- بريدة وعند العصر حمل أربعة رجال (جنى) نخلة تسمى بالشقرا، والجنى هو ثمر النخل، وقدموه للملك، فقال الملك: «أنتم يا أهل بريدة الله أكرمكم بهالشقرا وبال سليم»، رحمهم الله جميعاً، كان ابن سليم شخصية محترمة لها مكانتها وعرف عنه الذكاء، قيل إن أحدهم جاء إلى منزل ابن سليم وأدخل ثلاث (طاسات) من التمر، عندما عاد الشيخ إلى بيته سأل عن مصدر التمر، قالوا له جاء بها رجل لا نعرفه، أمر ابن سليم بوضع طاسات التمر تحت سلم البيت، وبعد أيام قليلة جاءه متخاصمان فحكم ابن سليم لأحدهم، ثم سمع الذي وقع الحكم عليه وهو يتمتم بكلمات منها: «يسرق طويساتي!» فقال له ابن سليم: «لا .. هذي طويساتك تعال وخذها كما هي».

كان لدينا في عنيزة قاض محترم ولطيف، كان ذا بشرة سوداء اسمه ابن عايض، وكان يدرسنا في الجامع قواعد النحو والألفية، كان ذكياً جداً وكان ذا فكاها لغوية، في إحدى المرات كان جائعاً وقابل إحدى الخادمت وكانت تعمل لدى أسرة البسام، كانت الخادمة تحمل حليباً كانت قد حلبته من الناقة،

قال لها ابن عايض: «ما هذا الذي بيدك؟» فقالت: «حليب الناقة»، قال لها: «أعطيني الحليب»، فقالت: «أخشى أن يغضبوا مني»، فقال: «إذا سألوك قولي لهم: العبد أبو طرياقة.. شرب حليب الناقة!». ومما يحكي عن الشيخ ابن عايض -رحمه الله- أن أحد البدو كانت لديه خصومة مع أحد أبناء عنيزة، فذهبا للشيخ ابن عايض، ولم يكن البدوي قد رأى ابن عايض سابقاً، عندما فتح الشيخ الباب قال البدوي: «قل لعنك الشيخ بأننا نريده»، فقال ابن عايض: «أنا الشيخ»، فقال البدوي مستغرباً وغازباً: «أنت الشيخ؟.. لا والله لا أريد حقي وإني متنازل عنه ولا أريدك أن تحكم لي!»، كان ابن عايض -رحمه الله- في أحد الأيام مدعواً عند رجل من أبناء البسام، كان الوقت فجراً وبعدهما صلوا صلاة الفجر توفي في البيت طفل صغير من أبناء البسام، وفي الوقت نفسه كان الشيخ ابن عايض ينتظر (الحنيني) الذي كان يُعدُّ له، قال الذي من البسام للشيخ ابن عايض: «هل ندفن الطفل ثم نأكل الحنيني؟» فقال ابن عايض: «بل نأكل الحنيني ثم ندفن الطفل»، أكل ابن عايض طعام الحنيني وذهبوا وصلوا على الطفل ودفنوه ثم مات ابن عايض مباشرة عند قبر الطفل.

لم تكن الأحكام تسجل ورقياً، بل كانت تتم شفهيّاً وكان يمكن عرض القضية التي يريد المختصمون البتّ فيها في أي مكان يصادفون فيه القاضي كما ذكرت لكم أو الذهاب إلى بيته.

بداية التفكير بدراسة الحقوق

تشكل السنوات الأولى من عمر الإنسان والحارة التي يعيش فيها تلك السنوات علاقة تستمر طويلاً جداً، بل إنها تستمر طول العمر، فأنا ما زلت أحنّ لتلك الحارة ولذلك المسجد، مسجد أم حمار. زارنا داعية إيراني كان اسمه محمد الجاركي، أكرمه أهل الحارة وشعر بالاهتمام والتقدير، لكنه لم يكن معجباً باسم المسجد، فحاول أن يكون لطيفاً عندما اقترح أن نغيّر اسم المسجد، فكر في طريقة لا يشعر بها أهل الحارة بأنهم تخلوا عن اسم مسجدهم تماماً، فاقترح أن يكون اسم المسجد أم حمار بدلاً من أم حمار، بالطبع لم يلقَ مقترحه أي قبول، ولا شك أن هذا المسمى الجديد لو أنه تمّ قبوله واستخدامه كان ليفتح باباً من الأسئلة لن يتوقف: من هي أم الخمار؟ وهل هي المرأة نفسها التي قال الدارمي (66) عنها:

قل للمليحة في الخمار الأسود

ماذا فعلت بناسك متعبد

قد كان شمّر للصلاة ثيابه

حتى وقفت له بباب مسجد

ردي عليه صيامه وصلاته

لا تفتنيه بحق دين محمد

للمساجد قصصها، فالذين كانوا يؤمنون المصلين لم يكونوا جميعهم من المتعلمين، لذلك كانت تحدث تلك الحوادث التي يبقى الناس يتداولونها لغرابتها وطرافتها، يحكى أن إمام جامع كان لديه عقل مهم يوم الجمعة، ولم يكن يستطيع أن يخطب بالمصلين يوم الجمعة ذاك، فقال للمصلين: «ابحثوا عن من يصلي بكم يوم الجمعة»، فقالوا: «لا يوجد من هو مؤهل لذلك»، فقال: «ما رأيكم أن أصلي بكم الجمعة يوم الخميس؟» فقالوا: «وهل يجوز؟» قال: «نعم!» وصلى بهم الجمعة يوم الخميس، وفي يوم الجمعة جاء رجل بدوي للجامع، وجد المؤذن فسأله عن المصلين ولماذا لا يوجد أحد في الجامع لأداء

صلاة الجمعة، فقال المؤذن: «صليناها بالأمس»، فذهب البدوي إلى قصر الأمير وقال للأمير: «أهل تلك القرية صلوا الجمعة يوم أمس الخميس»، فقام الأمير بعزل الإمام عن إمامة المسجد وقال له: «هل فعلاً صليت الجمعة يوم الخميس؟» فلم ينكر الإمام، فقال الأمير للإمام: «سوف أؤدبك»، فقال الإمام: «لدي عذري يا أمير فقد كان عندي عمل مهم أقوم به في المدينة، ولن أكرر ذلك وأرجو أن تسامحني»، فقال الأمير: «إني مسامحك تشريطة أن لا تعاود فعل ذلك وإلا ذبحتك»، فقال الإمام: «أعطني ورقة تؤكد بأنك قد سامحتني وأعدتني لإمامة المسجد»، فأعطاه الأمير ورقة بذلك، عاد الإمام إلى المسجد ودخل ليصلي بالناس فقال للمؤذن أقم الصلاة، فقال المؤذن لست إماماً فقد تمّ عزلك، فأخرج الإمام الورقة من جيبه وقرأها على المؤذن والمصلين وقال للمؤذن: «أقم»، فأقام الصلاة، وعندما كان يستعد للصلاة بهم قال: «استوا نعنبو ذا اللحي!». لكن هذه القصة لم تحدث في عنيزة، مما قيل أنه حدث في مسجد من مساجد عنيزة أن رجلاً عطس أثناء الصلاة، فقال الذي بجانبه: «يرحمك الله»، فقال الذي على يساره: «لا يجوز التحدث أثناء الصلاة»، فقال الرجل الذي عطس: «كلكم ما لكم صلاة!» أي إن صلاتهم غير مقبولة لأنهم تحدثوا أثناء الصلاة ونسي نفسه بأنه هو أيضاً تحدث!

في أحد المساجد الريفية أيضاً كان هناك إمام حاد المزاج، وكان يحفظ السور الطويلة، قال له أحد المصلين أنت تطيل علينا في الصلاة والعديد منا هم كبار في السن، ردّ عليه الإمام بعصبية المعهودة: «كل الجماعة ماكلين تبين وساكتين إلا أنت!؟».

كان كبار السن في حارتنا إذا ما انتهوا من صلاتهم جلسوا في ما صار أشبه بالمجلس التابع للمسجد، وهو عبارة عن قبة وكرايس من طين، أذكر أن أحد الجالسين قال إن عبد الرحمن عبد العزيز الزامل يجلس من صلاة الفجر حتى طلوع الشمس وهو يقرأ الورد، فقلت له وأنا صبي صغير: «إن ما أعرفه عن قراءة الورد لا يتطلب كل ذلك الوقت، فالورد عبارة عن آية الكرسي وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، إن قراءة هذه الآيات والسور لا تأخذ وقتاً طويلاً»، فقال لي: «لا... إن مئة وجر من الرمل أحسن من وجر واحد»، أي كلما كثر الدعاء كان ذلك أفضل.

كانت المساجد تشكل جزءاً من حياة الناس فهم مرتبطون بها دينياً واجتماعياً، وهي المكان الذي يلتقي فيه الناس يومياً فيطلعون أحوال وأخبار بعضهم البعض، في رمضان كانت تقفل المدارس، فكانت الليالي تمثل لنا متعة كبيرة نحن الصبية الصغار، كانت الحارة تُضاء بأنوار الفنر، وصلاة التراويح كانت طويلة، كنا نلعب بينما كانوا يصلون ١١ تسليمة مع الوتر، كان

وقتا كافياً للعب حتى وقت السحور، وفي أيام رمضان الحارة كنت أستحم في ماء بئر المسجد البارد وأصب الماء على ملابسي وأنا ملامبسي مبتلة حتى أستمتع بالبرودة، كانت تلك الطريقة هي ما توصلنا إليه حتى نحصل على البرودة، تخيلوا الفارق بين تلك الطريقة وبين جهاز الريموت الكنترول الذي يكفي أن تضغط على زر به فيشتغل جهاز التكييف بالقوة والبرودة التي تختارها، يا له من فارق كبير، أتذكر أنني صمت رمضان وعمري ١١ عاماً، لم أفطر يوماً ولم أشرب الماء خفية لأدعي أنني صائم، هل سبق وقعل أحدكم ذلك يوماً أعزائي القراء؟

لرمضان أجواؤه الجميلة الكريمة، أتذكر أنه عندما وصلت رسالة من رجل اسمه محمد علي حجار، وكانت قادمة من دولة أوروبية، كان الرجل يستفتي الشيخ ابن سعدي قائلاً: «إن البلد الذي يعيش به مع بعض المسلمين لا تغيب فيه الشمس أشهراً طويلة، فماذا يفعلون وكيف يفطرون؟»، أجابه ابن سعدي بأن يفطروا مع أقرب دولة مسلمة منهم، اليوم أظن أن هذه الدولة التي جاءت منها الرسالة هي إحدى الدول الإسكندنافية، كالنرويج أو السويد، ففي تلك الدول مناطق لا تغيب عنها الشمس في بعض الأوقات، وفي أوقات أخرى لا تشرق الشمس عدة أشهر.

لم يكن غريباً أن يوقفك رجل ما من رجال حارتنا ليعطيك رسالة من أحد أبنائه لتقرأها له، كان النفط قد ظهر وأرامكو وخط التابلاين قد وفرا آلاف فرص العمل، وكانت رسائل العمال تصل إلى ذويهم مع مبالغ مالية ترسل مع حملة تلك الرسائل، كان بعض الآباء يقولون لقارئ الرسالة: «إن لم يكن مكتوباً يا صلك وإلا شققه!» أي إن لم يكتب المرسل في الرسالة يصلك مبلغ مالي مع أحد ما فقم بتمزيق الرسالة فوراً! واجهت ذلك أكثر من مرة!

في تلك الأيام وحين كنت ما أزال أدرس في المسجد الجامع وأعمل في دكان أبي عندما زارنا محمد السليمان الذكير، كان متخرجاً من كلية الحقوق في بغداد، كنا قد دعوناه إلى شرب القهوة في بيتنا، جلس يتحدث عن كلية الحقوق التي يتعلم فيها، ثم شرح معنى الحقوق والقانون، كان حديثه شيقاً وترك أثراً بالغاً في نفسي عن الحقوق، حتى إنني كنت بين كل فينة وأخرى أتجه إلى خارج الأحياء السكنية حتى أخلو بنفسي، فمذ أن سمعت حديث محمد السليمان الذكير لما زارنا وفكرة دراسة الحقوق تشغل تفكيرى كلما خلوت وحيداً بنفسى، يبدو أنني حددت طموحي الدراسي منذ ذلك الوقت وفي تلك الخلوات، انظروا... لقد أخبرتكم طوال الصفحات السابقة عن مواضيع مختلفة، وذكرت بعض المواقف والقصص عن بعض الشخصيات،

لكنني إلى غاية الآن لم أحدثكم عن له مكانة في قلبي لا ينازعه عليها أحد،
رفيق الدرب وعضيد الحياة، إنه أخي عبد الله.

أخي عبد الله

يصغرنني أخي عبد الله بسنة ونصف وهو ما نسميه بفرق الحمل، ورغم أن أمي كانت غير متعلمة إلا أنها كانت امرأة ذكية وماهرة في تقوية الروابط بيني وبين أخي عبد الله، كانت تقول لي: «هذا عضيدك»... ولا شك أن الأخ عضيد أخيه.

والشاعر يقول:

أخاك أخاك إن من لا أخاً له

كساع إلى الهيجا بغير سلاح

الرابط بيني وبين أخي عبد الله رابط قوي قبل أن أقرأ هذا البيت من الشعر، فلم أقرأ هذا البيت من الشعر إلا بعد أن بلغت التسعين عاماً، لكن وطوال هذا الزمن بقيت وصايا أمي وصوت والدي محفوراً في ذهني عندما كان يقول لي ولأخي صالح... «انتبهوا لأخوكم عبد الله»، والحقيقة أننا انتبهنا لعبد الله لكنه هو أيضاً انتبه لنا، فرجولة عبد الله كانت مبركة، وكان ذا شخصية قوية منذ أن كان صغيراً، وأخي عبد الله جزء لا يتجزأ من سنوات حياتي الطويلة فهو موجود فيها بمودته وعطفه واهتمامه، أتذكر عندما كان كان صغيراً قبل حوالي ثمانين عاماً وهو ابن ١١ عاماً، عندما ذهبنا للحج، كان الطريق صحراوياً متعباً للراكبين وللسيارة نفسها، كان من العادة إذا سافر الحجاج في شاحنة كبيرة (لوري) أن يفرشوا ثلثي المساحة في اللوري للنساء والباقي للرجال، وكان أخي عبد الله طوال المدة يجلس على خشبة تمتد من أول الشاحنة إلى آخرها، وقد تجمع الدم في إيته إثر جلوسه الطويل وانحسب فتشكل الخراج، أصبح يتألم دائماً لدرجة أنه لم يستطع النوم، كنت حينها أتألم مثله وأشعر بما يشعر به، ربما لم أكن أشعر بقدر الألم الذي كان في جسده هو، لكني كنت أشعر أن جزءاً منه كان بجسدي أنا أيضاً، لم أكن أطيق النظر إلى وجهه وهو يعتصر ألماً، استدعى والدي ابن خويطر -رحمه الله- وهو شخص كانت له مهارات علاجية، طلب ابن خويطر بعض الحطب وأشعل ناراً وأحضر إبرة كبيرة، وضعها في النار حتى أصبح لونها أحمر، قام بثقب المكان الذي تجمع به الخراج، فخرج كله وزال الألم من أخي عبد الله في الحال، وضع ابن

خويطر بعضاً من صابون (أبو عنز) على مكان الثقب، صابون أبو عنز أخذ اسمه من صورة رأس عنز مطبوعة على علبة الصابون، وكان يستخدم هذا الصابون لغسل الملابس، وهو صناعة مصرية من شحوم المواشي، قبل أبو عنز كان يستخدم نبات (الشنان) لغسل الملابس، وهي نبتة تجلب من وادي الرمة (67) وهو واد كبير يمتد من المدينة المنورة إلى البصرة في العراق، لكن الرمال التي تشكلت في القصيم مع الزمن عملت على طمر هذا الامتداد وأوقفته عند القصيم. نبتة الشنان تنبت عادة بالقرب من (الفياض) وهي تجمع مياه الأمطار، لا أريد أن أبتعد في الحديث عن أخي عبد الله الذي أحبته طوال عمري وسأبقي محباً له إلى آخر يوم في حياتي، ذكرت لكم ما تعرض له أخي عبد الله من ألم، ما جعلني أشعر بالألم نفسه في تلك اللحظة، لا أتذكر بأن أيدينا امتدت على بعضنا البعض يوماً حتى عندما كنا أطفالاً، كنا رفيقي بعضنا البعض ولم نفترق إلا بعد أن ذهب هو للعمل في خط التابلاين في الشرقية، ولم أتوقف عن زيارته، لم يعمل هناك أكثر من عامين ثم عاد إلى عنيزة وعمل معلماً ثم تزوج، أجواء عنيزة تمنحك مناخاً مناسباً للتفكير، فهي مدينة هادئة، كنت وعبد الله نذهب إلى بر عنيزة كثيراً، لست ممن يقول بأن الماضي كان أفضل، لا... ولكن البراري كانت أكثر مياهاً وريبعاً، كانت والدتي تعطينا إبريقاً معدنياً وتضع بداخله السكر والشاي، كنا في طريقنا نمر بمزرعة (أم شичه) وما تزال باسمها نفسه لغاية اليوم، كنا نقوم بحصاد الحشيش الذي ينبت في البر، وبعد أن نقوم بقصه نبقية في إحدى المزارع حتى يكثر وييبس، ثم نتفق مع حمار لنقله إلى بيتنا، كان هذا الحشيش علف البقرة التي كانت في بيتنا.

توافرت في أخي عبد الله صفات القيادة منذ أن كان طفلاً صغيراً، سواء في ألعابنا التي كنا نلعبها أو في مبادراته التي كان يقوم بها، وكان يدافع عن نفسه بشراسة إذا ما حاول أحد أن يعتدي عليه، كان متفوقاً في الدراسة، في إحدى المرات وبعد زمن طويل ذهبنا للسلام على الشيخ ابن عثيمين، فقال الشيخ -رحمه الله-: ترى عيد الله كان أجودنا في النحو، كان وما زال بيننا شبه كبير، بعد أن أصبح عبد الله رئيس بلدية الرياض، وقد كنت في إحدى المرات ماشياً في شارع الشيخ عمر بن سليم في الرياض، وكان أحد الأشخاص يبني بيته وعندما مررت بجانبه قام بالسلام عليّ وقال: «يا أخي لا أريدك أن تمر بهذا الشارع»، فقلت له لماذا؟ فقال: «أريد أن أخالف نظام البناء وأخشى أن ترى ذلك فتقوم بمنعي بصفتك رئيساً للبلدية!»، ضحكت وقلت له: «أنا عبد العزيز شقيق عبد الله ولست بعبد الله»، ذكرت هذه الواقعة لأصف لكم حجم الشبه بيني وبين أخي عبد الله. حصل أخي عبد الله على الثانوية من المعهد العلمي في مكة المكرمة، شغل عدة مناصب أولها كان في سلك التعليم، وعمل في جامعة الملك سعود نائباً لأمين عام الجامعة، عمل في الملحقية

الثقافية في لندن لشؤون طلاب جامعة الملك سعود، حاول أن يستغل وجوده بالحصول على الدكتوراه، قبلت جامعة كامبريدج أبحاثه للدكتوراه لكنه لم يكمل تحصيله لنيلها بعد طلب جامعة الملك سعود عودته للرياض، أزعج هذا الطلب عبد الله، عاد ولم يجد مكتباً له في الجامعة، ولم يعمل بصورة ترضي طموحه، لكن شخصيته ومثابرتة أظهرت أحقيته في تبوؤ المكانة التي يستحقها لاحقاً، كان أخي عبد الله يعمل في سلك التعليم في عنيزة وكان إدارياً في ثانوية عنيزة، عندما تم افتتاح المعهد العلمي بعنيزة كان المعهد يعطي الطالب مئتا ريال كمعونة، انصرف الطلاب عن الثانوية واتجهوا للدراسة في المعهد من أجل المكافأة، قاوم عبد الله وآخرون ذلك وخشوا أن تغلق الثانوية أبوابها وسعوا لبقاء الثانوية مفتوحة ولو على عدد محدود من الطلاب، فدار نزاع بين مسؤولي المعهد العلمي والثانوية العامة، وتطور النزاع ووصل إلى بعض سكان عنيزة من خارج سلك التعليم، بعض الناس كانوا يرون أن الثانوية تعلم الطلاب مبادئ الشيوعية!، الشيخ ابن سعدي كان يحب عبد الله، فأشار عليه لاحقاً بترك عنيزة والتوجه إلى مكان آخر فذهب إلى ثانوية جدة وعمل بها إدارياً، اختير كواحد ضمن اللجنة التي واجهت ما سمي بأزمة الغاز التي طالت كافة أنحاء المملكة وهي أزمة نقص الغاز من الأسواق بسبب سوء إدارة سببت هذه المشكلة، صعد نجم عبد الله عندما ساهم مساهمة كبرى في حل هذه المشكلة ولفت أنظار المسؤولين إليه ثم أصبح رئيس مجلس إدارة الغاز، ثم مناصب أخرى كان منها رئيس بلدية الرياض، وعرف عنه الصرامة في تنفيذ القوانين وعدم التساهل مع أي شخص أثناء مدة رئاسته.

في (السليمانية) في الرياض كان هناك مبنى تابعاً للسفارة الأمريكية، أرادت السفارة بناء دور ثالث، وكان القانون يقتصر على بناء دورين فقط، فرفض عبد الله إعطاءهم تصريحاً لبناء الدور الثالث، اتصل الأمير سلمان -حفظه الله- وكان أميراً للرياض حينها يستفسر عن سبب رفضه إعطاء السفارة الأمريكية تصريح البناء للدور الثالث فقال: «لقد منعنا الناس من بناء دور ثالث، ماذا نقول لهم إذا ما أعطينا السفارة الأمريكية تصريحاً ببناء دور ثالث»، فلم يعترض الأمير سلمان على قرار أخي عبد الله. حتى السفارة الفرنسية كان لديها حالة ما وحاولت الحصول على تصريح يخالف الأنظمة، رفض عبد الله إعطاءهم التصريح، أرسلت السفارة الفرنسية من يتوسط لدي أخي عبد الله، كانت (الواسطة) تعمل في الديوان الملكي وشخصية معروفة، سألت الشخصية هذه أخي عبد الله إذا ما كان بإمكانه استثناء السفارة الفرنسية، فرد عليه عبد الله: «هل تريد أن تعيدنا لزمان الامتيازات الأجنبية؟» (كان قانوناً معمولاً به في مصر يعطي الأجانب استثناءات كبيرة)، فقال الوسيط: «بالطبع لا، وابق على ما أنت عليه ولا عليك منهم»، حتى الأمير عبد

الله -رحمه الله- عندما طلب منه أحدهم أن يوصي عبد الله النعيم بإعطائه تصريحاً مخالفاً للأنظمة، قال له الأمير عبد الله: «أنا لا أتدخل بعمل عبد الله النعيم».

كان وما زال عبد الله أخي وصديقي، ومن حظ المرء الجيد أن يكون أخوه هو صديقه، وعبد الله صديقي منذ أن وعيت على ما يجري في الدنيا، وأكاد أتقاسم معه جل الذكريات في عنيزة ومن بينها تلك الأمسيات قي منزل علي الزامل، كنا نجتمع عنده مع حمد المرزوقي وعبد العزيز المساعد، تسهر ونغني وفي بعض الأحيان نطبخ (الحميسة(68))، كنا نذهب إلى منزل عبد الرحمن وكان عبد الرحمن أحد الجزارين في عنيزة، ما إن نطرق باب بيته حتى يذهب بنا إلى السوق ليفتح دكانه ويبيع علينا لحم الحميسة، عبد الرحمن هذا كان يحب فن السامري(69)، وكان مع أصدقائه القصابين يشكلون مجموعة أشبه بفرقة تغني (السامري) وبعض الألوان الفنية الأخرى، في إحدى الأيام فقد عبد الرحمن حماره، سأل عن حماره في كل مكان استطاع الوصول إليه لكن لم يجد أثراً لحماره، كان من المعزوف أن جلد الحمار مناسب جداً لصناعة الطبل، وكان زملاؤه الذين يسهر ويغني معهم هم من سرق حماره وذبحوه وصنعوا من جلده بعض الطبول دون أن يبلغوه بذلك، في إحدى ليالي السمر بينما كانوا يغنون ويضربون على الطبول قال عبد الرحمن للذي بجانبه وكان بيده طبلًا: «ألم ترَ حماري؟» فقام الرجل بضرب الطبل وقال: «يا عبد الرحمن هذا حمارك ينهق حي ميت!»، عاتب عبد الرحمن زملاءه لأنهم لم يبلغوه بسرقة وذبح حماره وتركوه يبحث عنه طويلاً!

مازلت أتذكر رجلاً وقوراً -رحمه الله-، كان يحب لعب السامري لكنه كان يخجل أن يلعب السامري من تلقاء نفسه، فكان يطلب من الآخرين بأن يقسموا عليه بأن يلعب السامري، ثم يبدي لهم تمنعه لكنهم يلحون عليه فيضطر بذلك أن يلعب السامري لأنهم أقسموا عليه! فن السامري فن جميل وهو فن وقور كما أن القصائد التي تُغنى فيه عادة تحمل معاني جميلة وبليلة.

لنا في الغرفة التي كانت مخصصة لي ولعبد الله ذكريات عديدة، أتذكر تلك الجدران وزواياها وحتى أثار بعض أيادي من قام بينائها، كنا نتغطي أنا وعبد الله في ليالي الشتاء بسجادة تسمى (خكرية(70)) مصنوعة من صوف الأغنام، لم تكن نعرف (البطانيات) التي انتشرت لاحقاً، كنا أنا وعبد الله في الليالي الباردة نسحب السجادة كل إلى جهته فيبقى واحداً منا يشعر بالبرد، فيقوم الذي شعر بالبرد بسحب السجادة ناحيته مرة أخرى فيشعر الآخر

بالبرد، إلى أن اهتدينا ذات يوم إلى حل مريح وعادل، حيث قمنا بوضع علامة في منتصف السجادة وكان على كل واحد منا أن يحرص ألا تتجاوز هذه العلامة المنتصف عندما يسحب السجادة إلى ناحيته، لكن الزمن كان يمضي، وأعمارنا كانت تكبر، هذه سُنَّة الحياة ولا شيء يبقى على حاله، كان ذلك الحل الذي توصلت إليه مع أخي عبد الله حلاً ناجحاً ومنصفاً لكن هذا الاتفاق لم يصمد لسنوات طويلة ولم نعد بحاجة إليه، لأنني أصبحت أنام في غرفتي الخاصة، ليس وحدي بل وبجانبي زوجتي!



أخي عبد الله بين أبنائي وأبنائه - التقطت الصورة عام
١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م



أنا على يمين الصورة وأخي عبد الله في سنوات
الشباب

أصبحت معلماً ولم أحصل على الشهادة الابتدائية!

كبرت وأنا ما بين العمل في دكان أبي وبين أخذ الدروس في المسجد الجامع، كانت أرامكو تستقبل العمال، ذهب أخي عبد الله إلى هناك، وكان في الشرقية رجل كريمة من أهل عنيزة هو محمد الجار الله التميمي -رحمه الله-، كان بيته مفتوحاً في وجه أبناء عنيزة الذين لم يجدوا عملاً، كان سليمان العليان (71) -رحمه الله- كبير المقاولين مع أرامكو وكان سليمان قد حقق شهرة آنذاك في مجال عمله وكان يزور محمد الجار الله دائماً، يقول أخي عبد الله بأنه ذهب إلى محمد الجار الله وقال له أنا عبد الله بن علي النعيم أبحث عن عمل، قل لسليمان أن يجد لي عملاً، فقال الجار الله لابن عليان وتم توظيف أخي عبد الله في خط التابلاين وكان عمره حوالي ١٨ عاماً تقريباً، كما أن أم عبد الله هي أخت زوجتي لولوه محمد التركي .

كنت متردداً بين البحث عن عمل في المنطقة الشرقية كما فعل الكثيرون من أبناء عنيزة وأبناء المناطق الأخرى، وبين مساعدة أبي في الدكان ومتابعة تعليمي في الجامع الكبير، كانت لدي رغبة في البقاء بجانب والدي وأسرتي، كان والدي يذكر لي مميزات المعلم، ملابس نظيفة، واحترام من الناس، وراتب جيد، حرص -رحمه الله- أن نكون قريبين من عالم التعلم والتعليم، أنا متأكد بأنه كان يدرك تماماً أن العلم طريق بعيد عن طريق التعب الذي قاساه هو وأبناء جيله، ولا أعلم إن كانت له رؤية آنذاك بأن المستقبل الجيد كان وسيكون للمتعلمين الذين كانت الدولة بحاجة إليهم، كان عدد المدارس يزداد و صار في عنيزة ثلاث مدارس ابتدائية، هي السعودية والعزيرية والفيصلية، أثرت كلمات أبي ورغبتني في البقاء بجانب أسرتي على موافقتي على طلب الأستاذ صالح بن صالح عندما طلب مني أن أكون معلماً في المدرسة السعودية كونها قريبة من بيتنا، وهكذا أصبحت معلماً وعمري ما بين ١٩ و ٢٠ عاماً، كانت المدرسة بيتاً مستأجراً من صالح العلي السليم فيه أربع غرف في الطابق الأرضي وغرفة واحدة في الطابق العلوي، لم نمكث بها طويلاً، ثم انتقلنا إلى بيت للقرعاوي، كان الطلبة يجلسون على الأرض، وقد حملنا معنا رمالنا عندما انتقلنا إلى مقر المدرسة الجديد، كان المعلمون على درجتين، الأولى راتبها ٢٢٠ ريالاً، والثانية ١٨٠ ريالاً.

درّست الفصول العليا بالمدرسة وهي من الصف الرابع إلى السادس الابتدائي، لم أكن قد حصلت على شهادة الصف السادس بعد، كنت أهني طلبتي الذين تجاوزوا اختبار الصف السادس بينما أنا معلمهم لم أكن حاصل عليها، بعد سنتين قررت أن أتقدم لاختبار الصف السادس مع طلبتي الذين أدّسهم حتى أحصل على الشهادة الابتدائية، لكنني تراجعت في ذلك العام، كان المدرسون جميعهم بلا شهادات وكانوا يحاولون إقناعي بعدم جدوى خوض امتحان الصف السادس، وكانوا يدعمون وجهة نظرهم تلك أن وزير المالية (عبد الله الحمدان) لم تكن لديه شهادة، حتى إن أحدهم قال إن ولي العهد الأمير سعود بن عبد العزيز لا توجد عنده شهادة فلماذا تسعى أنت وزاءها؟! في الحقيقة استطاع زملائي إقناعي بعدم التقدم لاختبارات الصف السادس، كان تأثيراً سلبياً، هذا ما يناله المرء عندما يحيط نفسه بمن لا يدفعونه نحو الأمام ويريدونه أن يبقى علي شاكلتهم، لكن الفكرة لم تمنح نهائياً من ذهني، يبدو أنه كان إقناعاً مؤقتاً، ففي السنة التالية أخبرت مدير المدرسة الأستاذ عبد الرحمن صالح العليان بأنني أريد التقدم لاختبار الشهادة الابتدائية، وأقنعت زملائي محمد الراشد البرية وحمد الجمل على التقدم للاختبار، لكنهم انسحبوا بعد تعبثهم الاستثمارات، أما أنا فتقدمت للاختبار ونجحت وحصلت بذلك على الشهادة الابتدائية، تخلصت من كوني معلم الطلبة في الصف السادس غير الحاصل على شهادة الصف السادس! كان الطلبة يعلمون ذلك، لكن علاقتي بهم كانت فعلاً رائعة، وكانوا يرغبون في حضور الحصص التي أقدمها، أتذكر أنني وقبل تقديمي للاختبار قال لي حمد العبدالي وكان أحد طلبتي: «افترض يا أستاذ أنك رسبت في الاختبار!» كنت أقول: «إن شاء الله لن أرسب»، في الحقيقة ما كنت لأكون في وضع لائق أمام تلاميذي في الصف السادس لو أنني لم أنجح في ذلك الاختبار، كان ذلك الهاجس ينتابني أحياناً، كانت تلك الشهادة هي شهادة الابتدائية التي حصلت عليها، بل كانت أول شهادة في طريق العلم الطويل، عندما عملت كمعلم لم أستلم راتبي لمدة ١٨ شهراً، لست أنا وحدي بل كل زملائي في المدرسة أيضاً، كنت آخذ مصروفي من والدي، لم يتخلف أي معلم عن إعطاء الدروس مع استمرار تأخر الرواتب لمدة عام ونصف، كنت وزملائي المعلمين نشعر بالمسؤولية تجاه الطلبة ونثق أيضاً بأن الحكومة ستدفع لنا رواتبنا وهذا ما حدث، تم دفع رواتب ١٨ شهراً دفعة واحدة وكانت جنيهاً ذهبية، كان ذلك المبلغ بالنسبة لنا نحن الشباب ثروة محترمة.



سليمان صالح العليان

الزواج في العشرين

عندما أصبحت معلماً كنت في العمر الذي يتزوج به الشاب عادةً، أحوالنا المادية كانت جيدة، والزواج له فرحته وافتخاره، كان اقتراحاً من أمي عرضته على والدي وأنا استلطفت الأمر عندما قالت والدي ذلك، في الحقيقة لم يكن استلطافاً فقط بل فرحة حاولت أن أكتمها حتى أبدو رزينا قدر المستطاع، قامت والدي بتجهيز لوازم الزواج، تم تجهيز غرفة من غرف البيت لتكون غرفة خاصة بي وبزوجتي، كنت أنتشي كلما شاهدت أمي تجهز الغرفة، سعيداً كلما سمعت في البيت كلمة زواج مقترنة بإسم عبد العزيز، تم تخصيص الغرفة بالدور الأول من البيت ثم جهزت والدي (الدوشق) (72) وهو فراش قطني مع مخدتين واحدة كبيرة للرأس وأخرى للأقدام، كان هذا هو تجهيز الغرفة، هل حسبتم أن تجهيزها يتطلب أشياء أخرى وتكاليف مادية باهظة؟ لم يكن تجهيزها يتطلب أكثر من ذلك الدوشق والغطاء والمخدات، عندما تم تجهيز الدوشق داخل الغرفة كنت كلما زارني أحد الأصدقاء أخذته إلى الدور الأول وفتحت باب الغرفة قائلاً له: «شوق هذا فراشي .. أنا راح أتزوج!» فعلت ذلك مع العديد من الأصدقاء، كنت آخذه إلى الغرفة دون أن أبلغه عن سبب صعودنا إلى الدور الأول ثم أفتح باب الغرفة وأقول له ما أريد قوله وأنظر في وجهه منتظراً ردة فعله والابتسامة على وجهي! لو أن واحداً منهم سألني: «وبنت من التي ستتزوجها؟» لما عرفت كيف أجيبه! كل ذلك التجهيز للغرفة ولم تتم خطوبة البنت التي سأتزوجها، بل لم نكن نعرف من أي بيت ستكون! عندما تمت الخطوبة لم أكن أتدخل في أي شيء، قال لي والدي: «سنخطب لك من بيت القرعاوي»، كان بيتهم قريباً من بيتنا، لم أكن قد شاهدتها في حياتي، عندما سألت عن اسمها قيل لي حصة... كان وقع الاسم على سمعي رائعاً، لأول مرة أشعر أن هذا الاسم جميل جداً، كيف لم أنتبه لجماله طوال الزمن الماضي؟ كنت أعيش شعوراً جديداً لم أعهده سابقاً، أستطيع أن أصفه بأنه شعور أحببت البقاء داخله، حاولت زوجة أخي صالح أن تطمئنني عن شكل وجمال زوجة المستقبل فقالت بأن أقدامها ليست كبيرة مثل أقدام الفلاحات! لا أعلم من وضع في اعتقادها أو اعتقاد من كان يظن أن كل فلاحه أقدامها كبيرة! تمت الموافقة وتم تحديد يوم الزواج... لا أتذكر اليوم لكنني أتذكر أنه كان صيف عام ١٣٦٧هـ، كان عمري لا يتجاوز العشرين عاماً، تمت الملكة وحفل الزواج البسيط باليوم نفسه، جلست في ديوانية عبد الله القرعاوي والد حصة، كان

المكان مليئاً بالرجال، يتوسطهم الشيخ عبد الرحمن بن سعدي الذي قال لي: «يا عبد العزيز تعال واجلس جنبي»، ثم قال لوالدها: «قل زوجتك بنتي حصة عبد الله القرعاوي»، فردد والدها ذلك، ثم قال لي الشيخ: «قل قبلتها للزواج»، ما إن نطقت قبلتها للزواج حتى شعرت بالسعادة تملأ نفسي وشعوراً بالراحة أحاطني بالطمأنينة، أبلغتها بذلك لاحقاً، تمت الملكة والدخلة في يوم واحد، كنت على بعد دقائق من رؤية من كنت أتخيل وجهها في الأيام الماضية، كنت على بعد أمتار قليلة من رؤية من سأضع يدي في يديها لننطلق في مشوار الحياة معاً، ما إن رأيتها حتى عرفت بأنها جميلة، قلت في نفسي (رونة) وهي كلمة مشتقة من كلمة (رون) نقولها لأي شيء جميل، كانت خجلة جداً جداً في لقائنا الأول، في الحقيقة لم يكن لدي تخوف من كوني أحول، نعم فأنا كنت أحول العين، هل نسيتم ذلك أم ما زلتهم تذكرون (عيارتي) وأنا صغير (إحدهش)، لم أكن متخوفاً حيث إن الأمر لم يكن يؤثر في نفسي وقد اعتدت عليه، وكنت أنساه بين فترة وأخرى، كما أن النساء في ذلك الوقت يغلبهن الحياء، لم تكن تتحدث عن الحول الذي في عيني إلا إذا ذكرته أنا من باب الدعابة، مع مرور الوقت والأيام والسنوات كبرت محبتها في قلبي حتى أصبح حجم محبتها خارج عن قدرتي عن وصفه.

دعوني أقول بأن أبرز صفاتها أنها امرأة صالحة، قامت بتربية أبنائي تربية راقية، وعلمتهم الأخلاق الحميدة وصنعت لنفسها أمامهم شخصية محترمة، كان الأبناء يهابونها أكثر مما يهابونني أنا، وهذا ما جعل البيت منضبطاً كوني رجلاً وأقضي الكثير من وقتي في العمل، لكنها في المقابل كانت تشبعهم مودة ورحمة ومحبة، كانت امرأة مكافحة وحريصة على أولادها، كان لأخي صالح مزرعة بها بئر مياهه حلوة، ولكي تغسل ملابس أولادها على أفضل صورة كانت تذهب إلى المزرعة وتغسل ثياب أولادها لأن ماء البئر الحلو كان الأنسب لغسيل الملابس ويبقيها نظيفة لامعة، أذكرها وهي متجهة إلى هناك، على رأسها (بقشة) الثياب وهي تحمل طفلين واحداً على كتفها الأيمن والآخر على كتفها الأيسر، كانت تقوم بذلك الجهد المضاعف حتى يلبس أبنائها ملابس نظيفة وجميلة، وكانت حريصة على صحة أولادها وبمجرد أن تشعر بأن الطفل يشعر ببدايات تعب من نزلة برد أو ارتفاع حرارة كانت تطلب مني أن أخذه إلى المستوصف دون تأخير أو تأجيل، كنت حريصاً على راحتها ولم أتخاصم معها لأنها امرأة صالحة ومن أجل الأبناء أيضاً، حتى إذا ما كانت هناك بادرة خلاف كنت أجعلها هي من تتغلب عليّ أمامهم في النقاشات حول أمور المنزل والتربية، حتى لا تكبر الأمور وتتحول الخلافات البسيطة إلى مشاكل كبيرة، كانت امرأة راقية تتقن أعمالها بصورة ممتازة، متدينة وتحرص على متابعة صلاة أبنائها ونظافتهم الشخصية، لم تكن تمنع أبنائها من مشاهدة المسلسلات لكنها إذا شعرت بأنهم أطالوا مشاهدة التلفزيون

تقول لهم: «يا عيال قوموا ترزقوا الله»، أي قوموا وراجعوا دروسكم، لم تكن ترضى أن أخرج من البيت وملابسي غير مرتبة، كم مرة أوقفتني عند الباب قبل خروجي حتى تغلق زراً نسيت أن أغلقه في ثوبي، أو أزالتي شيئاً صغيراً عالقاً به، لم ترض أن أخرج في الشتاء بملابس خفيفة، هل تعتقدون بأنني أبالغ في وصفها؟ لا.. صدقوني بأنني لا أضيف حرفاً على ما كنت أعيشه وأراه معها، رفيقة الدرب الطويل، طبخها كان جيد جيداً، لا أقول ذلك لأنها زوجتي لكنها كانت ماهرة جداً في أصناف عديدة، في الماضي كان الطعام من القمح، إما مرقوق أو مطازيز أو قرصان أو جريش، أو خبز التنور، أم محمد كانت ماهرة في هذه الأصناف التي كنت أحبها وكونها كانت الوجبات التي أحببتها واعتدت عليها منذ طفولتي، الأرز لم يكن وجبة رئيسية، كان يوضع الجريش في الصحن ثم يرش عليه بعض من الأرز وكان الأرز يطبخ بالكرمك فيظهر دائماً بلون أصفر، كنت أحب «السليق» (73) من يد أم محمد بالأرز المصري، ومازلت أذكر شكل (المقرصة) التي كان تعد لي بها القرصان (74)؟ أشعر الآن بأن ذاكرتي متقدمة، أظن أن سبب ذلك هو حديثي عن أحبها، ما ألد الحنيني الذي تصنعه بيدها، هي من كانت تدير أمور البيت المالية، حتى عندما كان راتبتي ٢٢٠ ريالاً، كآئت تعرف كيف تتصرف في الراتب وتدير شؤون المنزل إدارة ناجحة بعد أن خرجنا من منزل الوالد وسكننا في الرياض، بعد سنوات طويلة جداً من زواجي ظهرت في لقاء تلفزيوني في برنامج اسمه أسر ناجحة، أثبتت على زوجتي ثناءً عطرًا بالحب، قلت لمقدم البرنامج إن زوجتي هي من ساعدتني وساعدت أبنائي في الوصول إلى ما وصلنا إليه، وأنها أعطت وقتها لنا وبذلت جهدها وطاقاتها لصالح زوجها وأبنائها، كانت تلك الكلمات أقل ما أستطيع قوله بحقها، بعد سنوات وجّه لي الدكتور زياد عبد الرحمن السديري في سكاكا الجوف دعوة لزيارته، كان قد أعد لي وليمة وهو رجل كريم، ما إن اجتمع الرجال في المكان حتى سمعت أحدهم يقول هذا هو عبد العزيز النعيم الذي امتدح امرأته على شاشة التلفزيون؟ لم يكن يوجه سؤاله نحوي، لكنني التفت إليه وقلت له: «نعم أنا من امتدحها وسأمدحها أيضاً لو أتاحت لي الفرصة مرة أخرى».

كيف تكون الأسرة ناجحة إن لم تكن المرأة في هذه الأسرة قد أخذت كامل الاحترام والتقدير؟ كيف ستربي أبنائها تربية سليمة ومحترمة إن لم يشاهد الأبناء كيف أن والدتهم تعيش بكرامتها، كيف سيحترم الأبناء زوجاتهم إذا لم يشاهدوا أن والدهم يحترم أمهم؟ كيف يلغى رأيها وهي التي لديها القدرة على ما ليس للرجل قدرة عليه، فهي التي لديها الحب الذي لا نهاية له لأبنائها فلذلك تتحمل منهم ما لا يتحملة الرجل، وهي التي لديها الصبر على إدارة بيتها بشكل يومي وهذه مقدره لا ينافسها الرجل فيها، فماذا لو رزقك الله

بامرأة يمثل هذه الصفات مع عقل راجح، تعطي الرأي السليم وتشارك في اتخاذ القرارات المهمة، تدير اقتصاد المنزل ببراعة، وهذه الإدارة تلعب دوراً مهماً في مستوى معيشة أفراد الأسرة، ليس من الإنصاف أن لا يشير الرجل إلي أفضل زوجته عليه وعلى أبنائه، بعض الرجال تغيرت حياتهم إلى الأفضل لأن زوجاتهم كن زوجات فاضلات، ظلمت بعض العادات المرأة، وجاء هذا الظلم على حساب الأبناء أيضاً كونهم حرموا من مقدرات أمهاتهم اللواتي لم يجدن احترامهن والمساحة الكافية لإظهار قدراتهن.

لا يكبر الحب بين الزوجين في المواقف السعيدة فقط، الحزن المشترك أيضاً يساهم بصورة ما في تثبيت أساس هذا الحب، عندما يقتسم الزوج والزوجة حزنهما ويخففان عن بعضهما البعض، لم تكن الحياة بسيطة آنذاك كما تبدو للكثيرين، لقد كان التعب صفة ملازمة لذلك الزمن وسيبدو أن لا مجال للمقارنة نهائياً بين عالم الأمس وبين عالم اليوم، فما كان يسبب لك الألم والحزن في الماضي قد لا يسبب لك أبسط ألم اليوم، لم يمض عام واحد على زواجي حتى رزقت بمحمد، ثم بعد عام رزقت بسامي.

ملا المكان جمالاً... كان محمد ذا بشرة بيضاء وشعر كثيف، أتذكره مبتسماً، وأستمع لصوت ضحكاته وأشاهد أولى خطواته، سافرت لزيارة أخي عبد الله في حزم الجلاميد عندما كان يعمل في خط التابلاين، بعد عدة أيام من وجودي مع عبد الله وصلتني رسالة مع أحد المسافرين، كانت الرسالة من أخي صالح... قرأت الرسالة فإذا المكتوب بها أن والدي مرض مرضاً خطيراً وشفى منه، أما بالنسبة لابنك محمد فقد توفي! في الحقيقة كان أخي صالح يحاول في رسالته أن يخفف عني وقع موت ابني محمد عندما ذكر لي أن والدي أصابه مرض شديد لكنه شفى منه، فوالدي كان بصحة وعافية ولم يصبه أي مرض، لم أعد مباشرة لعنيزة، بل أكملت بعض الأيام مع أخي عبد الله بعد أن أعطاني ما جمعه من رواتب حتي أخذها معي إلى عنيزة، كان قد أودع رواتبه عند صالح الرميح وهو من أبناء عنيزة لكنه افتتح دكاناً في عرعر، عدت ووجه ابني محمد في مخيلتي، ضحكاته ولعبه، كان موت الأطفال أمراً شائعاً والطب ضعيفاً، وكنت أنا واحداً ممن دفعوا ثمن ضعف الطب آنذاك... كان ذلك قبل حوالي ٧٥ عاماً، حزنت زوجتي كثيراً وحزنت أمي على موت محمد حزناً شديداً، هذا ما كنت أقصده، بأن ما كان يسبب الألم في الماضي قد لا يسبب أبسط ألم اليوم، فالطب الآن جعل ما كان يسبب الموت للأطفال مشكلة بسيطة تُحل بمجرد زيارة للطبيب مع وصفة علاجية تجدها في أي صيدلية.

لم يكن في عنيزة أي مستشفى، كان هناك مستوصف من دون طبيب، يعمل به ما يسمى بالمأمور الصحي، تم أخذ محمد إليه... لم يكن باستطاعة المأمور الصحي تشخيص حالة محمد فلم يكن طبيباً... كل ما كان يفعله هو تجهيز الإبرة وتداخلها مضاد حيوي يحقنه في جسم المريض مهما كان نوع مرضه، هكذا فقدت العديد من الأسر أبناءها.

كان ابني سامي ذا شعر ناعم وطويل يصل إلى رقبته، وجهه أبيض، كان طفلاً أنيقاً، وتبدو عليه قطع الملابس جميلة، كانت زوجتي تسرح شعره الطويل وأذكر أن إحدى خالاتي إذا رأت سامي تمسك بشعره وتحاول أن تعبت به حتى لا يبدو مسرّحاً لأنها كانت ترى أن تسريح الشعر للبنات فقط.

رزقت بعد حوالي سنة من ولادة سامي بمولود أسميته إبراهيم، بعد أن بلغ سامي حوالي السنة وعدة أشهر مرض وتعب... حينها كان قد جاء إلى عنيزة طبيب سوري، لم تكن العادة آنذاك أن يتم شرح مرض الطفل لذويه، هذا في حال استطاع الطبيب معرفة المرض، أتذكر أن الطبيب كتب لي ورقة، أخذت الدواء وخرجت من المستوصف، لازم المرض سامي... كان يضعف أمام أعيننا... ثم تكرر الحزن الذي أصابنا عندما مات محمد... مات سامي أيضاً... وحزن البيت كله على موت سامي... ولأن موت الأطفال كان شيئاً معتاداً في ذلك الزمن فقد مات ابني إبراهيم أيضاً وهو رضيع في حضن أمه، كانت المملكة في بدايات نشأتها وتسبق الزمن من أجل محاربة الأمراض، ولأن القيادة متخلصة فقد نصرها الله في ذلك، عندما استطاعت بأقصى درجة ممكنة بناء المستشفيات وإحضار الأطباء من كل مكان.

مات أبنائي الثلاثة في أربع سنوات، وقد تحملت زوجتي ألم فراقهم بصبر، كانت أمي أيضاً تحزن بشدة كلما فارقنا أحد أبنائنا، وتحملت أنا كذلك آلام ذلك الفراق بصبر وقوة كونه قضاء الله وقدره، هكذا هي الحياة، تستمر ولا بد أن نمضي فيها، فهي لن تتوقف من أجل حزن أحد ما.

عام ١٣٧١هـ رزقت بمولود جديد، أسميته محمد حتى يستمر ذكر محمد الأول، لم أكن أخشى رحيل محمد الثاني حتى بعد موت أبنائي الثلاثة، كنت مؤمناً بقضاء الله، أقول ذلك الآن وأنا أشعر بإيماني آنذاك... عاش محمد وكبر وتبعه عبد الرحمن وتبعه أحمد، ثم يوسف، ولد أبنائي الأربعة جميعهم في تسع سنوات، ثم رزقت بهدي بعد ذلك بسنوات.

عشقي للخط العربي

تبقى العديد من الذكريات في ذاكرة الإنسان ولا تغادره، وتلك الأيام التي مضت كانت أياماً جميلة بكل ما كان بها، كما أن أيام هذا الزمن أيام جميلة أيضاً بسبب تطور وسهولة الحياة، أحببت التعليم منذ الأيام الأولى التي بدأت بها إعطاء الدروس، شيء كان ينسيني الوقت وأنا منهمك في شرح كلمة أو عبارة ما، كنت أعطي الطلبة دروس اللغة العربية، أحببتها وأحببت النحو، أحبني الطلبة أيضاً بسبب قربي منهم، لم يكن كل الوقت لشرح الدروس، كنت أحاول أن أجعل وقت الحصة ممتعاً، لا بأس من ذكر القصص والتعليقات المضحكة، أعتقد بأن ذلك حَبَّب الطلبة بالدروس التي كنت أعطيها حتى في المرحلة الجامعية، كنت أساعد الطلبة الذين يحتاجون بعض الدرجات القليلة، لم أكن أرى أن يعيد الطالب عاماً دراسياً من أجل درجة أو درجتين، لذلك كنت أعطي علامات إضافية للذين يعطوني ورقة الاختبار وهي نظيفة وخطها واضح ومقروء، كنت أبلغهم بذلك، الخط الرديء الذي يكتبه الطالب دون اهتمام يتعبني ويشعرنني بالملل، لم أترك ممارسة تعلم الخط العربي بشكل شخصي منذ أن كان يعلمنا الأستاذ صالح بن صالح، كانت مادة الخط من ضمن القلامات التي تحسب للطالب في علاماته الدراسية، وهذا ما جعل الطلبة يحرصون علي تعلم الخط، وقد يقسر هذا الأمر وجود العديد من الناس في الأجيال الماضية أصحاب خط جميل، كانت لدينا كراسة لتعلم الخط، مكتوبة بيد الخطاط هواويني وهو مصري، كان اسمه مكتوب في دفتر الخط، تلك الكراسات كانت موجودة في المكتبات، لا شك أن العديد منكم يتذكروها فقد استمر وجودها سنوات طويلة جداً، كان هواويني يكتب في كل صفحة من الكراسة سطرًا مكتوباً بنوع من أنواع الخط، كنا نحن أيضاً نصنع أقلامنا الخاصة بالخط من نبات العصفر، نأخذ ساق العصفر بعد أن يبس ثم نقطعه بصورة مناسبة وصالحة لكتابة الخط تشبه الطريقة الموجودة في الأقلام المصنعة في المصانع والمخصصة للخطاطين والراغبين بتعلم الخط، أظن أن عدم استمرار دروس الخط العربي في المدارس أثر على مستوى الخط عند الطلبة، سمعت أن مادة الخط الآن غادت إلى المدارس، أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً، أجدت كتابة خط الرقعة، مع مستوى جيد لخط النسخ، لكن الإنسان كلما تقدم في العمر كلما فقد مهاراته في الكتابة بخط جميل، لكنني ما زلت أحصل على بعض الثناء ممن يشاهدون كتابتي.

لم أكن أنا فقط من أحب التعليم واهتم به، العديد من المعلمين في عنيزة كذلك، كنا في وقت الاختبارات نعطي دروساً مجانية للطلبة حتى يتفوقوا، وكنا نعطي تلك الدروس عند العصر ونحضر الطلبة أحياناً في المساء ونستخدم إضاءة (التريك) (75) لتتير لنا المكان.

أخي عبد الله أيضاً كان محباً للتعليم جمع التبرعات من بعض المحسنين وافتتح مدرسه ليلية لتعليم كبار السن وكان المعلمون من المتطوعين، والتحق بهذه المدرسة العديد من المتقدمين في السن، زيد الشرار -رحمه الله- كان أحدهم، بعد الاختبارات سأل أخي عبد الله وكان مديراً للمدرسة: «هل أنا ناجح؟» فأجابه عبد الله: «يا عم زيد أنت ساقط!» رد العم زيد على عبد الله: «الساقط أنت وأبوك!» عندما علم أبي بهذه الحادثة قال للعم زيد: «أنا وش دخلي.. لماذا لم تكتف بعبد الله!» كلمة ساقط تحمل أكثر من معنى، فالساقط في المدرسة هو الذي لم ينجح في الاختبار، لكنها تعطي معنى آخر خارج المدرسة إذا ما قيلت للرجل، والرجل الساقط تعني الرجل السيئ الأخلاق، رحم الله العم زيد وكل الرجال المحترمين الذين درسوا في تلك المدرسة الليلية.

في عنيزة كنا نحترم المدرسين العرب، الذين التحقوا بالتعليم، وكنا نهددهم التمور والكيلجا واللبن محبة بهم، بعض الطلاب كانوا يهدونهم الدجاج والديكة، كنا نعتقد أن الدجاج للبيض فقط، لم نكن نأكله في بيتنا، فعل المصريون مع الدجاج ما فعلوه مع الحمام، لا شك أن الدجاج والحمام لو كانا يستطيعان منع قدوم المصريين لعنيزة لفعلا ذلك حتى لا يكشف لنا المصريون ما كنا نجهله من أن لحم الدجاج والحمام صالح للأكل وأنه لذيق إذا ما كان مشويماً على جمر أو مطبوخاً بأيدي ماهرة، بعد ذلك كنت وبعض الأصدقاء من عائلة المنصور (الزامل) في عنيزة اشترينا ديكاً فذبحناه وأزلنا الريش منه دون أن ننظف أحشائه فطبخناه مع أحشائه، لم يمنعنا ذلك من التهامه، كنا حديثي معرفة بأكل الدجاج والديكة، قد يقول قائل الآن كيف لم تعرفوا أن الحمام والدجاج صالحان للأكل، وأجيب من يلعب هذا السؤال في ذهنه بأن لكل زمن تفكيره وظروفه، رغم مرور السنوات الطويلة تبقى بعض الأسماء في الذاكرة ولا تُنسى، تلك الأسماء هي الأسماء الفاضلة وصاحبة التأثير العميق الذي لا يزول، ومازلت أذكر فضل المعلم الفلسطيني ربحي خليل البهلول الذي علمني اللغة الإنجليزية والرياضيات، ارتبطنا به بعلاقة أخوية، وكان يزورنا في بيتنا وكأنه يزور بيت أقربائه، حتى تمت تسميته في عنيزة بربحي النعيم، علمنا الأستاذ ربحي بعض المهارات منها صناعة الكيك، لم تنقطع علاقتنا بالأستاذ ربحي كونها كانت قائمة على المحبة والاحترام،

استمرت هذه العلاقة إلى أن توفي -رحمه الله- في الرياض، وما زالت علاقتي
بأبنائه مستمرة إلى يومنا هذا.

وطالما أنني تذكرت الأستاذ ربحي الذي تكوّنت بينه وبين عائلتنا علاقة
خاصة، فإن عنيزة كوّنت مثل هذه العلاقة مع الأستاذ عبد الكريم أسعد،
فلسطيني الأصل لكنه حصل فيما بعد على الجنسية السعودية، كان محباً
لأهل عنيزة وبادله أهلها هذا الحب، كان مدرساً في المعاهد العلمية، معلماً
مخلصاً وودوداً، انسجم مع المجتمع وذاب به، أخذ عادات أهل عنيزة ولبس
مثل ملابسهم، صار واحداً منهم، انتقل إلى الرياض وعاش بها بسبب مرض
القلب الذي أصابه لوجود مراكز طبية مختصة لعلاج أمراض القلب، أستطيع
أن أقول بأن من مظاهر ما زرعه الأستاذ عبد الكريم من محبة واحترام في
قلوب الناس كانت واضحة في اليوم توفي فيه، خرج أهل عنيزة كلهم
ودفنوه في المقبرة وكأنه والد لهم أو أخ من إخوانهم وقد كان كذلك.

أول إذاعة في عنيزة

اليوم وأنت في سيارتك أو عبر هاتفك تستمع إلى عشرات الإذاعات عبر موجات ال WM وموجات AM، و FM، بالإضافة لعشرات الإذاعات عبر الإنترنت. كثيراً ما أتذكر راديو طراز فيلبس الذي اشتراه والدي وأنا أقلب اليوم الموجات في السيارة، في الحقيقة لم أعد أفعل ذلك بنفسني، بل يفعل السائق ذلك عبر جهاز الراديو الرقمي، لا حاجة لشحن الراديو في السيارة كما كنت أفعل مع راديو فيلبس قبل حوالي ٧٥ عاماً، كان في كل بيت رحي لطحن الحبوب، وأتذكر أن رجلاً محسناً من أهل عنيزة وضع رحي بجانب حائط متروك، وبنى عليها بناية صغيرة تشبه الغرفة الصغيرة، وكانت تلك الرحي للذين ليس لديهم رحي في بيوتهم، تأتي المرأة وتطحن حبوبها ثم تمضي، لكن ذلك لم يستمر بعد أن أحضر رجل من أهل المدينة طاحونة لطحن الحبوب، ثم ركب على الطاحونة (دينمو 76) لشحن البطاريات، كنا نستخدم بطارية السيارة لتشغيل راديو فيلبس، وكنت أخذ البطارية إلى الطاحونة لشحنها كل ستة أو سبعة أيام، لم يكن في السعودية إذاعة حينها، وانتظرت مدينة الرياض مدة حتى ظهرت بها أول تجربة إذاعية عام ١٣٨١هـ سميت بإذاعة طامي واستمرت ثلاث سنوات تقريباً، وإذاعة طامي أسسها عبد الله بن سليمان العويد -رحمه الله-، وحصل على ترخيص لإذاعته من مجلس الوزراء، وطامي هو لقب الأستاذ عبد الله -رحمه الله-، كان قد تعلم على اللاسلكي أثناء مشاركته مع الجيوش العربية في الشام في مقاومة الجيش الفرنسي، كانت الإذاعة تغطي مساحة صغيرة لكنها حصلت على شهرة، وكانت ذات اهتمام محلي ويعلن فيها طامي عن بعض الأخبار المحلية والمفقودات، شجعت إذاعة طامي رجلاً من أهل عنيزة هو عبد الرحمن بن محمد الزاملني، افتتح عبد الرحمن أول إذاعة خاصة في عنيزة، كان قد التحق بمدرسة اللاسلكي في مكة المكرمة، ثم توظف في الرياض وعمل في ما يسمى بالشنطة اللاسلكية التي ترافق الملك عبد العزيز، قال عبد الرحمن بأنه سمع أن الحكومة أعطت طامي مبلغاً قدره عشرة آلاف ريال تشجيعاً له، فقرر هو أيضاً أن يطلق إذاعة لعنيزة، جمع قطعاً من أجهزة راديو ومكبرات للصوت واستخدم البطاريات لعدم وجود الكهرباء، ووضع المرسلات الصغيرة (الإيريل) في مجلس بيته، أطلق الإذاعة ولقي تشجيعاً من الناس، قدم بها القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وبعض الأخبار المحلية وكانت بلدية عنيزة تزوده بأخبارها وفعاليتها، وقد تجاوزت إذاعة عبد الرحمن حدود عنيزة

ووصلت إلى بريدة، وقد ذكر عبد الرحمن أن مدى بث إذاعته كان يصل من ٢٥ إلى ٢٧ كيلومتراً، ساعد عبد الرحمن في التقديم الإذاعي كل من علي محمد التركي وكان يقرأ القرآن ويقدم الأحاديث على الهواء، وكان محمد العبد الله المرشد هو من يقرأ التعليمات التي ترسلها البلدية، أما الأناشيد فكان يقدمها يوسف عبد الله الصالح، كان عبد الرحمن يتحدث بالإذاعة أحياناً وكان يقوم بتسجيل الحفلات المدرسة ثم يبثها على الهواء، بعد أيام من ظهور إذاعته، طالبه بعض أهالي عنيزة ببث بعض الأغاني، لم يكن لديه إسطوانات للأغاني فقام بتسجيل مجموعة من أغاني أم كلثوم وفريد ثم بثها على الهواء، وفي بعض الأحيان كان ينقل الأغنية مباشرة من الإذاعة التي تبثها، أي إنه كان يقوم بما يسمى اليوم بالبث المشترك، لم تستمر الإذاعة أكثر من ثلاثة أشهر، وقد قال عبد الرحمن بأن من أسباب توقف إذاعته أنه لم يحصل على ترخيص رسمي للإذاعة، كما أنه لم يجد دعماً مالياً يمكنه من الاستمرار، لكنه ساهم لاحقاً في تأسيس الإذاعة المدرسية في مدرسة الملك عبد العزيز، ووضع مكبراً للصوت للجامع بطلب من الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله-، هذه هي أول تجربة إذاعية في تاريخ عنيزة، كانت تجربة شخصية رائدة، ورغم الإمكانيات البسيطة إلا أنها كانت إذاعة، وإن كانت تبث من داخل بيت.

كان في معظم بيوت عنيزة بقرة تعتبر مصدراً للحليب، قيل إن أثناء بث الإذاعة سمع صوت البقرة واضحاً على الهواء فقال المذيع: «نأسف على هذا الخلل الفني!» قد لا تكون هذه الحادثة الطريفة صحيحة، لكن الصحيح أن عبد الرحمن الذي أطلق تلك الإذاعة كان سباقاً ومبادراً.

بريدة أكثر جسارة!

في عنيزة شخصيات لا تغيب عن ذاكرتي، سواء التي أعرفها شخصياً أو تلك التي لا أرتبط بعلاقة شخصية معها، منصور القاضي -رحمه الله- كان شخصية محترمة ومعروفة ومحبوبة، أتذكر عنه العديد من القصص لكن هناك قصة سمعت عنها فكرت فيها عدت مرات، حاول -رحمه الله- أن يدخل عالم التجارة، ومنصور القاضي -رحمه الله- فيه العديد من الصفات الممتازة لكنني لا أعتقد أن مهارة التجارة كانت إحدى صفاته، لكنه كان رجلاً جسوراً في محاولاته التجارية، قيل إنه ذهب إلى بريدة، وبالمناسبة رجال بريدة جسورون في التجارة، ففي عنيزة إذا أفلس أحدهم يحزن طويلاً ويفكر كثيراً في ما فقده من مال، أما أهل بريدة فليدهم القدرة على تحمل الخسارة الكبيرة ويعتبرونها من الأمور العادية التي تواجه الإنسان في الحياة، لا شك أنها صفة لا تخلو من شجاعة، لا شك في ذلك، ومن المعروف أن أهل بريدة أهل نخوة وكرم. أعود لمنصور القاضي -رحمه الله-، ذهب إلى بريدة وحاول أن يتاجر بالأدوات الزراعية لكن مشروعه لم ينجح، وكان لديه دجاج وفكر في طريقة يجعل بها الدجاج يبيض مرتين في اليوم، قام بإنارة المكان الذي وضع به الدجاج بالمصايح طوال الليل، لم تنجح الطريقة لكنها فكرة سبّاقة وتتم عن ذكاء، ومن المعروف اليوم أن العديد من الشركات قامت بتنفيذ مثل هذه الفكرة، لا أعتقد بأنهم سمعوا بما فعله منصور القاضي لكنني أعتقد بأنه هو من فكر بها ولم يسمع عنها، كانت لديه مزرعة اسمها الروضة، وكان قد اشترى المتر بـ ١٣ هللة، أرض خصبة وتنتج كوسى فائقة الجودة، بل إنها ذات مستوى نادر، جاء إليه رجل وقال له: «يا أبو إبراهيم إن عمالك يسرقونك!» فأجابته: «شكراً لك... دعهم يسرقونني فما يعطونني إياه كافياً»، وهذا دليل طبيته وكرمه وهدوئه في معالجة الأمور، قد يحتاج التجار إلى الدقة في الحسابات المالية ولا أظن أن أبا إبراهيم كان لديه الاستعداد لذلك.

لم أحاول أنا ممارسة الزراعة، حاولت أنا وأصدقائي محمد الصالح السلطان وعبد الرحمن القاضي أن نزرع البطيخ في بيت محمد السلطان، تكفل عبد الرحمن القاضي بالبذور، كل ما فعله أنه ذهب إلى السوق وجمع البذور من جانب المحلات التي كانت تبيع البطيخ، حيث تترك بذور البطيخ بعد أكلها، ورغم أن عنيزة تنتج بطيخاً ممتازاً إلا أن محاولتنا باءت بالفشل.

سعد الخويطر!

أهل القصيم يحبون الدعابة والنكات وقد يقول قائل بأن الجميع يحبون الدعابة والنكات خصوصاً إذا ما كانت في أوقاتها المناسبة، وهذا صحيح، لكن أهل القصيم كان عندهم من يصنع النكتة، وكانوا يطلقون النكات على أنفسهم إن لم يجدوا من يطلقونها حوله. ومما أطلقه القصمان على لهجتهم واستخدامهم لكلمة «يوه» بعد الماء أن امرأة قصيمية في الحرم تقول لأُمها: «أجيب لك ماء يوه؟» فقالت امرأة مصرية كانت بجانبها: «تعملوا في المايوه إيه وأنتم في الحرم؟!». كان سعد الخويطر -رحمه الله- مصدراً مهماً طوال سنوات للنكتة، يؤلفها ويخترع لها قصة، كان سعد -رحمه الله- مسرحية متحركة وواحد من أسماء عنيزة اللامعة، رجل ذو ذكاء شديد في التقاط ما لا ينتبه إليه الآخرون، يصنع منه نكتة مضحكة تنتشر انتشاراً كبيراً، كان بموهبة فنان كبير يساهم في نقد بعض الأمور بطرافة، أستطيع القول بأنه مسرحيٌّ بالفطرة، يقف أمام المايكروفون مقابلاً الجمهور ملقياً عليهم النكات ومعلقاً على بعض مشاهد الحياة بذكاء شديد وهذا ما يسمى اليوم بالستاند أب كوميدي، وكان سعد يقدمه منذ خمسين عاماً تقريباً، له مكان يجلس فيه عادة عند بقالة سليمان الرميح -رحمه الله-، وكان سليمان لا يغادر بقالته ويمكث فيها طوال الوقت، فقال له سعد: «يا سليمان ليه ما تبيع الباب!»، أي أن لا حاجة للباب كون سليمان لا يستخدمه في فتح أو إغلاق البقالة لأنه متواجد بصورة دائمة، وسعد للذين استمعوا إلى نكاته وتعليقاته يجدون أنه كان رجلاً إيجابياً ومحباً للجميع فهو لم يسلط قوة ملاحظاته ونكاته ضد أشخاص معينين، ورغم أنني لم تربطني به علاقة شخصية إلا أنه من المعروف أنه كان شخصاً طيباً ومسألماً، لم يسلم الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله- من إحدى نكات سعد، كان الشيخ يلبس (مشلحاً) (77) قصيراً، يحركه الهواء فلا يسقط عن كتفيه، فما هي الأسباب؟ فسر سعد ذلك بأن لكل إنسان على كتفيه ملكان، واحد يكتب الحسنات وواحد يكتب السيئات، فقال ملك الحسنات لملك السيئات: «طالما أن ابن عثيمين ما عليه سيئات امسك المشلح لا يطيح!»، قيل إن أم سعد أرادت إيقاظه من نومه فقالت: «يا سعد قم الشمس اطلعت»، فقال: «غظ الشمس واطركيني نايم!» لا شك أن تواجد سعد بجانب بقالة سليمان الرميح كان ذا نفع لسليمان كون أن الناس كانوا يأتون عنده لسماع تعليقاته ونكاته، ظهور سعد الخويطر وشهرته في تلك الفترة دليل على قوته فيما كان يقدمه من مستوى كوميدي خصوصاً أن تلك

الفترة لم تكن المناسبة لاحتضان مثل هذه الموهبة الفذة، فلم يتم الاهتمام بسعد إعلامياً ولم يستفد المسرح من قدراته ولأن المسرح والحركة الفنية أيضاً بصورة عامة لم تكن في أفضل حالاتها، توفي سعد في العام ١٩٩٨ ولم يبلغ الـ ٦٠ عاماً.

الدرس الذي حفظته جيداً

مضت السنوات الأولى في التعليم بهدوء، أعطي الدروس وأستمع بها، حتى ارتكبت خطأ أوقعني في ما لا يتمناه المرء لنفسه، كنت معلماً صغيراً عندما جاء إلينا أنا وبعض المعلمين من يطلب منا أن نوقع على طلب موجه للملك نطالب به بتغيير أمير عنيزة خالد العبد العزيز السليم، أقنعنا بسرعة ثم وجدنا أنفسنا ندخل في غرفة ونوقع على ورقة ونكتب أسماءنا بجانب توقيعنا، وتم إرسال الطلب بالتواقيع كبرقية للملك، أذكر أنه قيل لنا بعد أن قمنا بالتوقيع أن يبقى ذلك سراً لا يعرفه أحد، بعد أيام قليلة وصل خطاب فيه أمر فصلنا من وظائفنا أنا وزملائي المعلمين الذين وقعنا على طلب تغيير الأمير، ورغم أن رواتبنا لم تنقطع إلا أنني وجدت نفسي جالساً في البيت من دون عمل أفعله، ما فعلناه تسبب بغضب البعض علينا، وتضايق من تصرفنا آخرون، كنت حزينا بسبب سوء تصرفي، ما علاقتي أنا بمن أراد تغيير الأمير؟ لماذا تدخلت فيما لا يعنيني وفي ما لا أعرف حقيقته؟ كيف سلمت عقلي لغيري؟ مرت الأيام بطيئة، ثم جاء خطاب آخر يعيدنا نحن المعلمين إلى وظائفنا، لا أشك بطيبة وسماحة المسؤولين عندما تسامحوا معنا عندما تدخلنا في ما لا يعنيننا، فرحت بعودتي لكن تلك الحادثة علمتني في ذات الوقت درساً مهماً وأنا في مطلع الشباب، وهذا الدرس هو من علمني كيف أتصرف مع العديد من الأمور التي واجهتها في حياتي لاحقاً، بعد تلك الحادثة لم أسمح لأي أحد أن يقوم بتوجيهي، لم أتدخل في ما هو ليس من اختصاصي، والسلطات أدري بما تفعله، وهذه حقيقة، بعد تلك التجربة لم أسلم عقلي لأي أحد كان واحتفظت به لنفسي ليعينني على العيش بواقعية وبأكثر قدر من الفهم والالتزان.

اسمحوا لي أن أقول لكم بعيداً عما حدث لي وإيقافي المؤقت عن وظيفتي، أقول لكم وأنا أتحدث معكم بصورة عامة، لا تسلموا عقولكم لأحد ما، لقد فقد الكثير من الناس مستقبلهم بسبب انجرارهم وراء قضايا ليست قضاياهم، وتدخلوا فيما لا يعينهم، وبدلاً من أن يهتموا بأنفسهم وأسرهم ومستقبلهم ورفع مستوى حياتهم، اهتموا بما لا ناقة لهم فيه ولا جمل، وراحوا ضحية مطامع الآخرين، لا تكفي النوايا الجيدة إذا كانت التصرفات سيئة، يأتي أصحاب الأجندة بشعارات براقية تثير الحماس وتحرك العاطفة، لذلك يجب

الانتباه جيداً والوقوف بجانب الدولة وما تقرره هي لا ما يريده الآخرون
أصحاب المطاعم الخاصة.

(٣١)

وداعاً عزيزة

أستطيع أن أقول بأنني عندما أنظر إلى مرحلة طفولتي وبدايات الشباب التي عشتها في عزيزة بأن الحياة كانت ممزوجة بصعوبة ظروفها وطيبة الناس وتراحمهم فيما بينهم، كانت البساطة سمة تلك الحياة، والحقيقة أن العديد من المظاهر الجميلة زالت فيما بعد، ما زلت أذكر أعياد عزيزة وأذكر الفتيات الصغيرات وهن في عمر التاسعة والعاشر والحادية عشرة في سوق العطية يلبسن أجمل ملابسهن ويغنين ويرقصن احتفالاً بالعيد دون أن يتعرض لهن أحد بكلمة واحدة، كان هناك انفتاح نظيف، أو لنقل لم تكن هناك نظرات ونوايا سيئة تجاه مثل هذه الأمور، كما أن تلك الأيام لها أنظمتها وقوانينها الصارمة، صالح العثمان القاضي -رحمه الله- أحد أشهر قضاة عزيزة، قوي الشخصية ويصدر أحكامه دون أن يحسب حساب أحد ما حتى لو كان ذلك الحكم على أحد أبناء أسرة السليم وهم أمراء عزيزة، وطالما أنني ذكرت شيئاً عن القضاء، فلا بأس أن أقول بأن بعض القضاة كانوا يتعاونون مع بعض الخبراء المعروفين كما سبق وذكرت لكم، لكنني تذكرت أنني لم أذكر لكم أن الشجارات التي تفضي إلى شج رأس أحدهم، كان القاضي يرسلهم إلى عبد العزيز الناصر الصايغ -رحمه الله-، وكان يُعتمد عليه كمثمن للشجوج التي تصيب الرأس، ينظر إلى الشج ويعطي تقييمه للتعويض الذي يجب أن يدفع للمشجوج رأسه، يقول هذه الشجة تستحق ٥ ريالات، وهذه ١٠ ريالات، وهكذا...

ذكرت لكم بأن الأمطار في فترة ما كانت كثيرة وغزيرة، لم تكن تحتاج سوى حفر مجرد متر ونصف أو مترين حتى يخرج لك الماء الذي خزنته الأرض، عن وفرة المياه وكثرة الأمطار قيل عن بعض المناطق ما قد يبدو أنه مبالغ فيه لكنه تعبير مجازي لما هو مقصود، قيل إن البعارين كانت أقدامها تنزلق من حجم الفقع الكبير! وكان البدو يجففونه ليأكلوه في أوقات قادمة، أو يجففونه ثم يبيعونه، أذكر تلك اللقطة تماماً عندما جاء رجل من أهل السر(78) ومعه كيسان كبيران من الفقع المجفف وأنزلهما عند دكان أبي يريد بيعه إياه، لم يكن البدو يجففون الفقع فقط، بل كانوا يجففون الجراد واللبن ويحولونه إلى ما يسمى بقل(79).

مازلت أتذكر ذلك اليوم الربيعي الذي خرجنا فيه إلي أطراف عنيزة، كنت وأخي عبد الله والشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله-، توقفنا بجانب بئر وكان معنا حمارنا يحمل فوقه بعض لوازم الرحلة، أزلنا (الوثارة (80)) وهي قطعة من مجموعة أقمشة توازي السرج الذي يوضع على الحصان، ما إن جلسنا بجانب البئر حتى خيل لنا أننا نستمع لصوت فحيح، هرب الحمار وركض باتجاه منازلنا، ثم ارتفع الصوت حتى تأكدنا بأنه فحيح فعلاً وأن ثعباناً كبيراً في البئر، هربنا من المكان بسرعة حاملين وثاراً الحمار مبتعدين عن البئر، مازلت أذكر صوت الثعبان جيداً، صوت مخيف، أي ذكرى تركها لنا ذلك الثعبان؟ وهل تترك الثعابين ذكريات جميلة؟ أطلال الله في عمر أخي عبد الله ورحم الشيخ محمد، كان شخصية عميقة وصاحب عزيمة في تحصيل العلم، ولم يتوقف عن نهل العلم حتى بعد أصبح عالماً، أكرمه الله محبة الناس وأولياء الأمر، كانت له مكانة عندهم كونه رجلاً صادقاً، كان يجلس ما بين الملك فهد والأمير عبد الله وقد استحق هذه المكانة بسبب إخلاصه ولأن ولاية أمرنا رجال يحترمون ويقدرون العلماء ويعطونهم مكانتهم، عرف عن الشيخ محمد الزهد والضمير الحي، أرسل ولاية الأمر له مالاً حتى يعينه في حياته لكنه صرفه على بيت من بيوت الله، كان الأمير سلطان -رحمه الله- محباً له، يقال بأنه عندما زار عنيزة أراد زيارة الشيخ محمد في بيته فقال له نريد (مطازير) من شغل أم عبد الله أخت زوجتي لولوه محمد التركي، وأم عبد الله هي زوجة الشيخ محمد -رحمه الله ورحم الأمير سلطان-.

لكل بداية نهاية، وها أنا على ما يبدو في بدايات نهاية الحديث عن عنيزة، مسقط رأسي وموطن طفولتي وصبائي وبدايات الشباب، منذ صفحات ماضية وأنا أشعر بهذا الشعور، شعور النهاية والرحيل إلى مكان آخر وحديث مختلف، لكنني كنت أوجل مواجهة هذه الحقيقة بسرد بعض القصص أو الحديث عن بعض الشخصيات، ماذا أفعل؟ لا أريد مغادرة عنيزة ولا أن أبتعد عن دفا ذكرياتها، العديد من الصور التقطتها عيناى لتحتفظ بها وتظهرها لي عند الحاجة أو عندما تريد أن تنشط بها ذاكرتي، ها هما عيناى يعرضان علي صورة قديمة أبدو فيها صبياً صغيراً، دعوني أقرب الصورة من عيني أكثر حتى أحكي لكم عن مناسبتها ومكانها، يا لها من صورة قديمة، إنها في منزل أحوالي وكانوا من أهل الولايم وإكرام الضيف، كنت أذهب إليهم في الولايم وأعمل كمروحة هوائية للضيوف، نعم... كنت أمسك بقطعة مشغولة من السعف ممسكاً بالعصى الظاهرة من طرفها وأحركها لكي يتدفق الهواء، كنت وأبناء خالي نفعل ذلك، دعوني أرى الصورة جيداً، ها أنا ذا وأبناء خالي بجانبى وجميعنا نمسك بالمراوح وأعيننا تنظر نحو شيء ما... سأقرب من الصورة أكثر... إنها تنظر إلى المهلبية، الآن تذكرت جيداً تلك اللحظات التي

كنا ننظر فيها للمهلبية وندعو الله أن لا يأكلها المدعوون، أو يأكلوا منها جزءاً وبيقوا لنا شيئاً منها!

حسناً... سأغادر عنيزة، لكنني سأنظر إلى ما تبقى من بعض الصور التي التقطتها عيناى وحزنتهما في ذاكرتي، قلت لكم سأغادر... كل ما أحتاجه بعض النظرات... لحظة... هل ذكرت لكم كيف كان أهل عنيزة يكافحون الجراد الصغير الذي لا يقوى على الطيران؟ هل ذكرت لكم كيف ابتكروا طريقة رائعة لمكافحة؟ لا... لم أذكر لكم ذلك بصورة واضحة، وأنا متأكد بأنني لم أذكر تلك الطريقة، إذاً سنبقى في عنيزة حتى أذكر لكم كيف كانت تتم مكافحة الجراد الصغير قبل أن يكبر ويتمكن من الطيران حيث لن يستطيع أحد مقاومته بصورة ناجحة، سبق وأن ذكرت لكم أن الجراد الذي لا يطير يسمى الدبا، كان الناس يكافحونه بما يشبه الخندق الطويل يسمى الزبية، عرضه حوال ٤٠ سنتيمتراً وعمقه من ٥٠ إلى ٦٠ سنتيمتراً، وكانوا يحفرون حفرة بداخل الحفرة تسمى المحذنة، يأتي الجراد ماشياً على قدميه فيسقط داخل المحذنة، يأتي العامل ويقوم بدقن الذي سقط في المحذنة، كانت أجرة العامل حوالي ثلاثة ريالاً، كانوا يحاولون استقبال الدبا وحفر الحفر على بعد أكثر من كيلومتر عن عنيزة حتى يخففوا من أعداد الدبا التي ستصل إلى عنيزة، ولم يكونوا يستطيعون القضاء عليه كله، إنما كانت تلك العملية للتخفيف منه.

دعوني أمر على الطرقات في طريق مغادرتي، ذاك هو أول مخبز افتتح في عنيزة، اقتتحه رجل جاء من المدينة المنورة، كان يبيع الخبز، لكنه يسمح لمن يريد أن يستخدم التنور إذا ما أحضر العجين، يأخذ قرشاً واحداً مقابل كل عجينة خبز يخبرها ويضعها في فرنه، هل لديكم بعض العجين آخذه في طريقي إليه كما كنت أفعل عندما تُعطيني أمي عجيناً آخذه إلى الفرن لأعود ويبيدي عدة أرغفة ساخنة، وهناك في المسجد الجامع يلقي الشيخ ابن سعدي خطبة مفيدة وممتعة، هذه هي عادته، يركز على موضوع ويتحدث عنه، يلامس قضايا الناس ويحثهم على التراحم، أمر بجانب المدرسة العزيزية وأسمع صوت الطلبة يرددون النشيد، ذاك هو دكان أبي، يحمل أخي صالح كيساً أظنه كيس قمح، وذاك الرجل هو عبد العزيز الدامغ يجلس خارج مسجد أم حمار وبجانبه رجل يمد يده بينما يمسكها الشيخ عبد العزيز ويقرأ عليها بعض الآيات، هكذا كان يعالج من لدغهم ثعبان أو عقرب، ذاك هو منزلنا الذي جمعنا سنوات طويلة يملؤه الحب والود، أبي وأمي وأخواتي وأخوتي وأبناؤهم وزوجتي وأبنائي، جمعنا هذا البيت كلنا، ها أنا أقترّب منه، وأنظر إلى بابه، الباب الذي لا بد أن يفتحه الإبن يوماً ما حتى يسعى في الأرض

باحثاً عن رزقه وتحقيق غاياته، إلى أن يبني له بيتاً يجمعه بزوجته وأبنائه،
هكذا هي الحياة وهكذا يعمر الإنسان الأرض.

أعذب في الرياض

أنا من جيل محظوظ كما سبق وذكرت ما يشبه ذلك لأنني ولدت والدولة السعودية الثالثة بقيادة الملك عبد العزيز، كانت الدولة تبذل الجهد حتى يتعلم أبناؤها، وكان والدي -رحمه الله- يعرف أهمية وقيمة التعليم، ولهذا أقول بأنني من جيل محظوظ لأنني تعلمت في المدارس التي وفّرتها الدولة، فلو كنت قد ولدت قبل ذلك بأربعين أو خمسين عاماً لما حصلت على التعليم الذي حصلت عليه، ورغم أنني أول شخص يحصل على الشهادة الجامعية من بين أخوتي إلا أنني لست أول من يحصل عليها من أسرة النعيم، كان ابن عمي عبد الله بن عبد العزيز النعيم هو أول من يحصل على شهادة البكالوريوس في عائلتنا، حصل عليها من القاهرة وعندما عاد عمل في وزارة المعارف وكان أيضاً مديراً للمدرسة الثانوية في الرياض، مهد وجود عبد الله الطريق أمامي، وكان قد شجعني للقدوم إلى الرياض، كان وجوده سنداً كبيراً وسهل علي الكثير من الأمور، لم تكن رحلتي إلى الرياض هي الرحلة الأولى، فقد سبق وزرتها إما مضطراً أو عابراً، أما مضطراً فبعد أن زادت آلام أسناني، لم يكن في عنيزة حينها عيادة أسنان ولا طبيباً مختصاً، كان المأمور الصحي كما ذكرت هو من يفعل كل شيء، شعرت بالآلام في ضرس من أضراسي فذهبت إلى المستوصف، نظر المأمور إلى الضرس الذي يؤلمني فقرر خلعة بشكل بدائي دون أن يعرف مدى الألم الذي شعرت به، لم ينته الأمر بل تطور إلى آلام شديدة جداً حرمتني من الراحة والنوم، حينها قررت التوجه إلى الرياض لاستشارة طبيب أسنان مختص وكانت تلك أول رحلة إلى الرياض وعمري ما بين ١٨ و١٩ عاماً، أما الزيارة الثانية فكانت مروراً بالرياض باتجاه أخي عبد الله عندما عمل في التابلاين وكان ذلك في العام ١٣٦٩هـ، ودعت أسرتي وتركت زوجتي وأطفالي في بيت أبي، أتذكر تلك الرحلة جيداً، كانت في أوائل السبعينيات من القرن الثالث عشر الهجري، استأجرت سيارة واستمرت الرحلة يوماً وليلة، كان الطريق ترابياً وتتحلل الرحلة بعض التوقفات، لم أكن أشعر بأن تلك الرحلة كانت متعبة حينها، بل كانت مريحة مقارنة بما سبقها من رحلات علي الجمال تستمر أياماً طويلة، وصلنا للبطحة وكانت وادياً تأتيه سيول الأمطار من الشمال للجنوب، نمنا فوق الحصى الصغيرة التي جرت فوقها سيول الأمطار، كان موقع باب السويلم هو من يستقبل القادمين من عنيزة، والسويلم عائلة معروفة من عوائل الرياض،

توجهت إلى بيت ابن عمي عبد الله الذي يسكن في بيت حجري مستقل،
مكون من طابقين وبه أربع غرف.

هكذا غادرت عنيزة وأنا معلم متزوج ولديه أطفال، كنت في العشرينيات من عمري، وهنا لعب ابن عمي دوراً مهماً كان له فائدة كبيرة في مشواري التعليمي، كنت معلماً من دون شهادة ثانوية، ما قام به ابن عمي عبدالله هو تسجيلي كطالب في المرحلة الثانوية، مع توظيفي في وزارة المعارف وتفريغي من العمل حتى أحصل على الشهادة الثانوية، وبذلك كنت أدرس وأحصل على راتب الوظيفة وهذا ما استمر طوال مرحلة الثانوية التي امتدت إلى ثلاث سنوات، من توفيق الإنسان أن يكون لديه أقارب وأصدقاء محبون ونافعون، أمثال هؤلاء يجب الحفاظ عليهم أيضاً بحفظ الود وحسن التعامل.

كيف لي أن أترك زوجتي وأبنائي وأعيش بعيداً عنهم؟ وماذا أفعل تجاه ذلك؟ كانت الرغبة بالتعلم شديدة، بل كان التعلم ضرورة من أجل مستقبل وحياة أفضل، لا شيء يأتي بالمجان كما قيل، فما تحصل عليه لا بد أن تدفع مقابله شيئاً ما، لكن صدقوني بأن أفضل ما تستثمرون فيه وقتكم وجهدكم ومالكم هو العلم، لو أنني لم أذهب إلى خارج عنيزة والالتحاق بالثانوية لتغيرت حياتي تغيراً كبيراً، فلم تكن هناك ثانوية في عنيزة حينها ولم أكن أستطيع الالتحاق بالجامعة، والمنطق يقول بأن رجلاً بلا شهادة علمية علياً لن يحصل على مركز وظيفي ممتاز يحقق النفع له ولأسرته ولحياته برمتها، كما أن العلم يوسع مدارك العقل، يعلمك التفكير السليم، وكيفية العيش بأسلوب متحضر، لا أريد أن أتحدث عن أهمية تحصيل العلم، لا أحد يختلف على ذلك، لكنني كنت أجيب على السؤال الذي طرحته وهو أن ذهابي للرياض والتحاق بالثانوية أجبرني على ترك عائلتي وزوجتي وأطفالي في عنيزة، كنت أزورهم كل شهرين أو ثلاثة أشهر في البداية، والحقيقة أنني كلما غبت مدة عنهم لم أكن أشواق لهم فقط، بل للمكان الذي يعيشون فيه، كنت أشواق لعنيزة.

أقمت الفترة الأولى في منزل ابن عمي عبد الله، لا أشك أن فترة إقامته في الرياض والمدة التي قضاها في القاهرة للدراسة جعلت منه يعرف كيف يعيش بأسلوب ممتع ومريح، كان لدى عبدالله طبخ اسمه عبدالله الحنيوي وكان طباحاً ماهراً، لا أعلم كيف كان يستطيع تحويل مكونات الطعام العادية إلى وجبة لذيذة وشهية، بينما لا نستطيع عمل ما يفعله حتى وإن استخدمنا المقادير نفسها التي استخدمها، لأجل ذلك ولمهارته كان يدفع له المال مقابل عمله، إنها موهبة يمتلكها البعض ويفتقدها البعض الآخر، لن أبالغ إن قلت بأنني ما زلت أتذكر طعم ما كان يطبخه لنا، لكنني لا أبالغ إن قلت بأنه ذو

إمكانيات رائعة، في أحد الأيام دعى ابن عمي عبد الله وكيل وزارة التعليم عبدالعزيز بن عبد الله آل الشيخ -رحمه الله- لتناول وجبة عشاء، ذهبت أنا وحمد البطحي إلى الخرج واشترينا أربعة ديكة رومية من أجل ذلك العشاء، مات أحدهم في الطريق فأصبحوا ثلاثة، كنا نخشى أن تموت الديكة الأخرى فنحن لم نكن نعلم سبب موت الديك الذي مات، خشينا أن نصل باثنين أو بواحد فقط، حينها لن يكون العشاء مناسباً أو كافياً، لكننا وصلنا بثلاثة ديكة ولله الحمد، لم تنقطع أصواتها طوال الطريق، هل كانت تبكي على زميلهم الراحل، أم كانوا يحملوننا مسؤولية موته، حتى وإن كانوا يقولون ذلك فهم لم يكونوا يعلمون بأنهم سيدبحون بعد ساعات قليلة على يد طباخنا الماهر عبد الله الحنيوي الذي طبخهم لساعات طويلة حتى جعل من لحمهم طرياً يذوب في الفم، تناولنا وجبة العشاء على سطح البيت في أمسية مازلت أذكرها وكأنها كانت بالأمس، -رحمهم الله-، كان بيت ابن عمي عبد الله بيت عزوبية، سكننا فيه أنا وابن عمي عبد الله وحمد البطحي وعثمان القرعاوي الذي توفي قبل شهرين من كتابة هذا الكتاب، -رحمهم الله وأطال الله في أعماركم-.

أول فيلا في الرياض من غرفتين!

في ثانوية الرياض القريبة من برج المياه في شارع الوزير، درست ثلاث سنوات في القسم الأدبي، المعلمون أغلبهم من مصر، وأستطيع أن أقول بأنهم جاؤوا لتأدية رسالة التعليم، حكومتهم هي من كانت ترشح المعلمين الذين يذهبون للتدريس في السعودية ولم يكن حينها للمملكة دور في اختيار المعلمين، جميعهم محترفون وعلى قدر عال من الكفاءة، لم يأت المعلمون وحدهم بل مع المفتشين عليهم من زملائهم المصريين، ولذلك كان عطاؤهم دائماً كبيراً، لم يكن لديهم مكاتب في المدرسة آنذاك، وكان ذلك في العهد الملكي المصري، وحتى عندما تبدل الحكم الملكي في مصر لم يتغير مستوى المعلمين، قلت بأنهم كانوا على قدر عال من الكفاءة لأنهم يستحقون أن يوصفوا بهذا الوصف مهنياً، ولأنني سلكت درب التعليم وعرفت لاحقاً عندما اكتسبت الخبرة بأن من درسنا في الثانوية مدرسون أكفاء، نسيت اسم ذلك المدرس الطيب عندما قال لي ما لم أنسه: «يا عبد العزيز الدنيا فركة كعب... لازم تدرس وتخلص الثانوية.. وروح مصر».

كان أخي عبد الله قد سبقني إلى الرياض كمدير لمعهد المعلمين، وكونه شاباً يدير المعهد فهذا يوضح حاجة البلد للمتعلمين، ولأن عبد الله أيضاً كان إدارياً ممتازاً، ما زلت أتذكر مكتبه في مدخل المعهد يستقبل الطلبة والمعلمين المتغيبين ويسألهم بحزم عن أسباب غيابهم، أقمت عنده أيضاً، وهكذا كنت في الأشهر الأولى أقيم مع أخي عبد الله وعند ابن عمي أيضاً.

لم يكن في الرياض شوارع كثيرة، أذكر الآن بالإضافة لشارع السويلم شارع الظهيرة وشارع آل فريان، والأسواق قليلة وأقل بضاعة مقارنة بعنيزة، ولأن العنيزيين لا يتركون التجارة، افتتح بعضهم محلاتهم في الرياض مثلما افتتحوها في مناطق مختلفة، كنت اشتري الملابس من محل قريب من محل عبدالله عبدالرحمن القاضي في وسط الرياض جنوب الجامع الكبير، لم يكن محله يبعد كثيراً عن محل محمد البراهيم السبيعي (81) المختص بالصرافة في السوق المركزي، ومحل السبيعي للصرافة هذا كان نواة لأعماله مع أشقائه، الشيء الصغير إذا ما تمت رعايته والاهتمام به والإخلاص له ينمو، وهكذا تمت أعمالهم حتى أصبحوا من ملاك بنك البلاد، الرياض حينها صغيرة، لكنها كانت تنمو بناءً مباركاً، حرص الملك عبد العزيز على أن يهتم

بأوضاع الناس، خصّص مطبخاً يطبخ للمحتاجين الغداء والعشاء المكون من الأرز واللحم، كان يديره رجل أسمر اسمه خريز، ولأن خريزاً هو من كان يدير المطبخ صار اسم المطبخ «مطبخ خريز»، هل تتذكرون عندما حدثتكم عن الأسماء وكيف أننا أحياناً لا نختار الأسماء بل تختارها الظروف أو التصرفات أو الأماكن فيتشكل الاسم دون سابق اختيار؟

عندما وصلت الرياض زاد راتبي إلي ٣٠٠ يالٍ شهرياً، هل تدفعون مثل هذا المبلغ الآن لأجل زجاجة عطر؟ هذا ما أفعله أنا إذا ما رغبت بشراء عطر جيد، اشتري الآن عطراً بقيمة ما كان عليه راتبي قبل ٧٠ عاماً، الحياة تغيرت، و٣٠٠ يالٍ في ذلك الوقت كانت لها قيمتها، خمنوا معي ما الذي كنت أستطيع أن اشتريه بـ ٣٠٠ يالٍ؟.. هل خمنتم؟.. خذوا بعض الوقت، حسناً سأقول لكم شيئاً نستطيع أن نشتره بذلك المبلغ، لا أعلم إن كان أحدكم خمن ما سأذكره الآن، وإن كان تخمينه صحيحاً عليه أن يقول: «إجابتي صحيحة»... ولكن ليس بصوت مرتفع فأنا لا أسمعك وأنت تقرأ الكتاب، من الأفضل أن تقول ذلك بصوت منخفض حتى لا يقول عنك أحد بأنك تتحدث مع نفسك إن كان بجانبك أحد، كنا نستطيع أن نشترى أرضاً مساحتها ١٠٠٠ متر! نعم كما أقول لكم، رحم الله الدكتور عبد الله العثيمين (82)، اشتري أرضاً مساحتها ٢٠٠٠ متر بـ ٥٠٠ يالٍ! حتى إنه قام بعمل سور لها كلفه ٢٠٠٠ يالٍ، عندما سور الأرض كانت كلفة السور أعلى من الأرض قال: «لو إني شارى أرض بـ ١٠٠٠ يالٍ ما أسورها!» رحمه الله كان نموذجاً للرجل الراقي المتعلم الخلق المتواضع.

بعد أشهر من وصولي إلى الرياض والتحاقي بالثانوية أبلغني أخي عبد الله أن هناك شركة اسمها البحر الأحمر كانت قد بنت مجموعة من الفلل في الملز ومساحة الفيلا ١٠٠ متر، اشترينا فيلتيين واحدة لعبد الله والثانية لي، هل ستقولون أرجو أن لا تقول لنا بأنكم اشتريتم الفيلا بـ ٣٠٠ يالٍ! لا لم يحصل ذلك، كانت الفيلا بالتقسيط، ندفع مئة يالٍ كقسط شهري للفيلا لمدة ٣٠ عاماً، بإمكانكم أن تحسبوا كم أصبحت قيمتها بعد هذه المدة، ما زلت محتفظاً بها، أرجو أن لا يفكر أحد منكم أن يقنعني ببيعها له، كما أنها لا تشبه فيل اليوم الواسعة والأنيقة مقارنة بفيلا الملز، كانت مكونة من غرفتين فقط! ماذا؟ هل تقولون بأنه لا يصلح أن نطلق عليها اسم فيلا لأنها مكونة من غرفتين؟ إنها فيلا يا أعزائي فأنا عندما اشتريتها كان يطلق عليها هذا الاسم ولن أقبل أن يطلق عليها الآن اسم آخر، فيلا.. فيلا.. فيلا، كانت فيلتي مكونة من غرفتين، غرفة لأبنائي الأربعة، وغرفة لي ورفيقة الدرب أم محمد، في الحقيقة لم يكن بها كهرباء عندما اشتريتها، ذهبنا أنا وأخي عبد الله إلى الشركة وتحدثنا معهم واستطعنا إقناعهم بأن يمددوا لكل فيلا لمبتين!

ما إن إشتريتها حتى أحضرت زوجتي وأبنائي، هذه هي المرة الأولى التي نستقل في بيت خاص لنا، كان ما بين الملز ووسط الرياض مسافة طويلة فارغة، أرض فضاء والطرق ترابية، قبل أن أحضر زوجتي وأبنائي كان ابن عمي عبد الله يأخذنا إلى وسط الرياض بسيارته الفورد، ثم قررت أن أشتري سيارتي الخاصة، كانت من نوع أوبل، أذكر لونها الجميل، هيا خمنا ما كان لونها؟ لا أظن أن الكثير منكم ستكون إجابته صحيحة، لكن لماذا أستعجل الحكم على ذلك، خذوا بعض الوقت... حسناً كان لونها سماوياً، أزرق فاتحاً، لأنه سماوي قلت إن الكثير منكم قد يخطئ بتخمين اللون، ولكن وفي الحقيقة التي لا بد أن اعترف فيها بأنني ظلمت هذه السيارة في أول لقاء بيننا، ما إن أدت المفتاح وانطلقت بها حتى صدمت سيارة أخرى رغم أن الأرض كانت فضاءً والمساحة واسعة، كان الرجل الذي صدمت سيارته رجلاً طيباً، قال لي: «يا ابن الحلال توكل على الله وروح مسامحك!» لكنني رفضت أن يسامحني، في اليوم التالي ذهبت إليه مع أخي عبد الله وأعطيته مبلغاً يصلح به سيارته، أما أنا فأخذت سيارتي بصمت وهدوء نحو ورشة التصليح وأصلحتها وأعدت لها لونها الهادي الجميل وبدأت راضية وعملت بكل همة ونشاط، كان عليّ أن أتعلم القيادة قبل أن أقودها، والحمد لله أن حادث التصادم لم يكن كبيراً.

تشكلت ذكريات جميلة في تلك الفيلا الصغيرة، المساحة الصغيرة تجعلها القلوب الطيبة مساحة كبيرة، أمي -رحمها الله- لم تنقطع عن زيارتنا والبقاء معنا فترات طويلة، والذي مرض وجاء للعلاج في الرياض وأحطناه برعايتنا.

الحياة في ذلك الوقت هادئة مساء، لا يوجد تلفاز، مازال الراديو سيد الترفيه، هناك بعض الأفلام التي تعرض في (حوش) لمن يهتم بمشاهدتها بمقابل مالي، يدفع مقابل مشاهدة الفيلم مبلغ مالي صغير، لكن مثل هذه الحياة التي تفتقر لوسائل الترفيه كانت لا تتطلب الكثير من المصاريف، الناس تطبخ طعامها في بيوتها غالباً، أي لم تكن المطاعم والمقاهي ضمن مصاريف الإنسان، كما أن القروض التي تقدمها البنوك للموظفين لم تكن موجودة كما هو حاصل الآن، كان هناك محل في السوق في وسط الرياض يقرض الناس بفوائد باهظة، كان يبيعهم أكياس السكر، يقول للمقترض أبيعك الكيس بمئة ريال ثم تدفع لي ما قيمته مئة وعشرون ريالاً تسدها خلال سنة واحدة، ثم يشتري صاحب المحل من الرجل كيس السكر ويعطيه المئة الريال، أو يأخذ الرجل الكيس ويبيعه بطريقته.

كان الملك عبد العزيز -رحمه الله- يرسل نصائح للمساجد بأن يقال في الخطب بأن لا يكون إقراض الناس بأكثر من عشرين بالمئة كفوائد.

أحياناً لا تبقى صور الأماكن في ذاكرة الإنسان فقط، بل ترتبط معها تلك القصص التي سمعها في المكان، والذاكرة هي من تختار ما تحتفظ به وما تنساه، قد لا تكون بعض القصص التي يستمع إليها الإنسان في مكان ما قصصاً أو أحداثاً حقيقية، قد يكون جزءاً منها صحيحاً، وقد لا يكون لها أساس من الصحة، قد يؤلف البعض قصصاً من أجل مغزى ما، لفائدة معينة، وهذه القصة مما احتفظت به في ذاكرتي ومما استمعت له بالملز، يحكى أن رجلاً متزوجاً من امرأة ولديه منها أبناء، حدث بينهما ما يحدث بين الأزواج من خلافات، طلبت الزوجة الطلاق، حاول أن ينهي الخلاف بالصلح لكنها أصرت أن يطلقها، وطلبت منه إيصالها وأولادها إلى منزل أبيها، جاء الرجل إلى والدها وشرح له الوضع الحاصل، قال والد المرأة أحضرها لكن لا تبتعد كثيراً عندما توصلها إلى بيتي، وعد بعد ساعة، أحضر الزوج زوجته مع أطفالها إلى بيت أبيها، ما إن وصلت الباب حتى قالت لوالدها الذي كان ينتظرها خارج المنزل بأنها لا تريد العودة إلى منزل زوجها وأنها تطلب الطلاق منه، قال لها والدها أهلاً بك وهذا البيت بيتك كما كان قبل أن تتزوجي زوجك، ادخلي إلى بيتك وأهلاً بعودتك، ما إن دخلت من الباب حتى منع أطفالها من الدخول، سألته مستغربة عن تصرفه، قال لها بأنه لا يتعامل بالربى، أخذك زوجك لوحده، وإذا أردت العودة تعودين لوحده من دون أطفالك، جلست المرأة وأطفالها عند باب المنزل وما إن جاء زوجها حتى ركضت وأطفالها نحوه وصعدوا السيارة وغادروا جميعاً وانتهى خلافهم، قد تكون هذه القصة حقيقية، قيل لي اسم والد المرأة، وقد لا تكون كذلك إنما أراد مؤلفها أن يقول إن بعض النساء يستعجلن الطلاق، وفعلاً بعض النساء يستعجلن الطلاق ولكن بعضهن يكون الطلاق هو خلاصهن من ظلم أزواجهن.

الرياض استقبلت أبناء المدن من كل مناطق المملكة، كانت تنمو وبدأت فرص العمل بالظهور، والكثير من أبناء القصيم عندما جاؤوا إلى الرياض سكنوا بجانب بعضهم، كانت مجموعة من البيوت ثم تكاثرت، بنيت بشكل شبه عشوائي، مع مرور الوقت أطلق عليها (حلة القصمان) لم تكن للقصمان فقط بل سكن فيها العديد من القادمين من مناطق أخرى وكانت مفتوحة للجميع، لكن القصمان كانوا أكثرية فسميت بهذا الاسم، غادرها القصمان ومن كان يقيم فيها مع تطور الأحوال المالية ولم يبق منهم أحد، أقام بها لاحقاً العمال من بعض العرب والكثير من الأجانب.



محمد بن إبراهيم السبيعي



د. عبد الله الصالح العثيمين

إلى القاهرة

لأنني معلم لغة عربية، ودرّست اللغة العربية عدة سنوات في عنيزة، كانت مادة اللغة العربية هي المادة المحببة لدي في الثانوية، كانت خبرة تدريس اللغة العربية واضحة عندي في مرحلة الثانوية وصرت متفوقاً بها، وأصبحت حصصها مفضلة لدي، كان مدرس اللغة العربية أحمد عبد الله معلماً ماهراً، أذكر كيف كان يهتم بمادة التعبير ويوصينا بقراءة كتاب «الوعد الحق» لطفه حسين، ثم يسألنا عما قرأناه وعن بعض المفردات، أصبح الأستاذ أحمد من أصدقائي عندما سافرت إلى مصر وكثيراً ما زارني في شقتي، كنا ندرس العديد من المواد الدراسية ومن ضمنها اللغة الفرنسية، ولم يكن النجاح في اختبار اللغة الفرنسية شرطاً من شروط النجاح في العام الدراسي، كنت سعيداً أن عدم النجاح في اختبار اللغة الفرنسية لا يجبرك على إعادة السنة الدراسية فقد كنت أعاني من ضعف في تعلم هذه اللغة.

حصلت على الشهادة الثانوية في العام ١٩٥٩ ميلادي - ١٣٨٧ هجري، كانت فكرة دراسة القانون في القاهرة تكبر مع تشجيع المعلمين على التوجه للقاهرة، والدنيا كما قال معلّمي «فرحة كعب!» لكن طموحي اصطدم مباشرة بعد حصولي على الثانوية بما لم أتوقعه. إذ صدر قرار من الأمير فهد بن عبد العزيز، وزير المعارف، بأن لا يبتعث إلا الحاصلين على الشهادة الثانوية العلمية، وكنت قد درست المواد الأدبية، لكن طموح السفر إلى القاهرة أسعفه الحظ، احتاجت وزارة المعارف إلي خبير يعلم الأرشيف والملفات، وتم استقدام الأستاذ عباس أمين -رحمه الله- للعمل في هذا التخصص لتدريب الشباب السعودي، المدير العام للمعارف ناصر المنقور (83) رشح عدداً من موظفي الوزارة للتدرب مع عباس أمين وكنت ضمن المرشحين، صادف أن جميع المرشحين السعوديين كانت لديهم شهادات جامعية تخصص لغة عربية وتخصصات أخرى، رفض هؤلاء المرشحون أن ينضموا للأرشيف خصوصاً أنهم أصحاب شهادات جامعية في تخصصات ثانية، لم يبق مع الأستاذ عباس أمين إلا أنا وفهد البشر، كتب عباس أمين خطاباً لوكيل وزارة المعارف عبد العزيز آل الشيخ يقترح فيه إرسال اثنين من موظفي وزارة المعارف للداسة في مصر في كلية الآداب قسم الوثائق والمكتبات، تمت الموافقة، قال عباس أمين لي ولفهد البشر: «لازم تسافروا اليوم إلى مصر»، أبلغت أخي عبد الله بذلك وأوصيته أن يعود بزوجتي وأبنائي إلى عنيزة،

ركبت وفهد البشر الطائرة نحو جدة، بقينا في جدة عدة ساعات قبل أن نستقل الطائرة المتجهة إلى القاهرة، في تلك الساعات ذهبنا إلى الحلاق حتى نصل ونحن في كامل أناقتنا، كان الحلاق مصرياً، ما إن أخبرناه بأننا نستعد للسفر إلى القاهرة حتى قال: «انتبهوا من الفلسطينيين الذين يعيشون في القاهرة... انتبهوا... لا يضحكوا عليكم ويسرقوا فلوسكم!».

وحيداً في القاهرة

إذن ها هي الطائرة تقلع من جدة إلى القاهرة وما أدراك ما طائرة الخمسينيات. طائرة من الحجم الصغير حلقت في الأجواء حوالي ثلاث ساعات. طائرات ذلك الزمن كانت مكاناً مناسباً للمدخنين وإزعاجاً لغيرهم. كيف كانت شركات الطيران تسمح بالتدخين بالرغم من وجود الأطفال وغير المدخنين على متن طائراتهم؟ أعتقد أن الترويج الكبير للتدخين وعدم التعريف بأضراره الكبيرة كانا من أسباب ذلك. لم يكن للمطارات القديمة بوابات كما هو الحال اليوم، كان عليك أن تمشي نحو الطائرة المتوقفة على المدرج ثم تصعد إلى داخلها، قد يكون بعضكم شاهد ذلك في بعض الأفلام المصرية القديمة عندما كان المسافر يمشي نحو الطائرة وعندما يصل إلى سلم الطائرة يلتفت إلى مودعيه ويؤثر لهم بالسلام، حلقت بالأجواء ومعها خيالاتي وتوقعاتي لما سأشاهده وألقاه عند وصولي متسلحاً بالعديد من المفردات المصرية التي تعرفنا عليها من مدرسينا المصريين، أسافر للدراسة في جامعة القاهرة، ياله من اسم كبير... جامعة القاهرة! الطفل الذي أمسك والده بيده متجهاً به نحو حلقة الكتاب ليدرس عند المطوع ويجلس على التراب ممسكاً بلوحه الخشبي تتجه به الطائرة نحو جامعة القاهرة، كل شيء كبير كان صغيراً ثم كبير، ما زلت أذكر سعادتي وأنا على متن الطائرة، لكن صوتاً ردد على مسمعي سؤالاً عدة مرات، «هل كنت تريد أن تدرس الأرشيف والملفات أم كنت تريد أن تدرس القانون وتجلس على مقاعد كلية الحقوق يا عبد العزيز؟ هل نسيت عندما كنت تمشي وحيداً مبتعداً عن الحارات وأنت تفكر بدراسة القانون وتتحيل نفسك ممسكاً بالشهادة التي كتبت في أعلاها كلية الحقوق؟» لم أجب ذلك السؤال رغم محاولاته المتعددة، كان عليه أن يجيب هو نفسه على السؤال لأنه كان يعلم بما حصل!

ها أنا ذا أصل القاهرة، في استقبالي بعض الأصدقاء من عنيزة سبقوني إلى القاهرة للدراسة، يدرسون في المعهد العالي للتربية البدنية، ما زلت أذكر وجه عقلا العقلا، شاباً مبتسماً وهو يقبلني ويحمد الله على سلامتي، دعوني أخبركم عن انطباعي الأول عن القاهرة، إنها جميلة، جميلة فعلاً ونظيفة، أنا من الجيل الذي شاهد شوارع القاهرة وهي تغسل بالماء والصابون مساءً، أشاهد العمال كلما خرجت بعد مشاهدة فيلم سينمائي مساءً ينظفون الشارع وكأنهم ينظفون طبقاً من زجاج، كان ذلك في العام ١٩٥٩م، لم تكن القاهرة

بحجمها الكبير جداً الآن، ولم يكن بها هذا العدد الذي بنى العشوائيات على أطرافها حتى أصبحت تلك العشوائيات داخل القاهرة، كان عدد سكان مصر العام ١٩٦٠م هو ٢٦ مليون نسمة، استأجرت شقة من صاحب عمارة كيف اسمه عبد المنعم، تقع في الدور الثاني وبها بلكونة، موقعها في شارع المتحف الزراعي في الدقي، والدقي جزء من محافظة الجيزة، لكن الناس يعتبروها دائماً ضمن محافظة القاهرة وهذا خطأ وقد عرفته بعد مدة من إقامتي، كان رقم العمارة ١٤، أقمت بها أشهراً قليلة قبل أن أذهب وأحضر أسرتي لنقيم بها مدة عام كامل، كان محمد القدهي المحمد يسكن في شقة كبيرة في الدقي أيضاً، لديه شقة كبيرة وفي عمارة ممتازة، كان قد أنهى دراسته فاقترح عليّ أن آخذ شقته، ذهبنا للبواب وتحدثنا معه فقال: «ضعوا أي شنطة داخل الشقة حتى أقول للذين يبحثون عن شقة بأنك استأجرتها»، هكذا ذهبت مسرعاً إلى شقتي وخرجت أجزّ شنطة ووضعتها داخل الشقة التي كان يسكن بها محمد القدهي، بداخلها أربع غرف وحمامان وصالة وبلكونة تحيط بأجزاء كبيرة منها، لا تبعد سوى خمس دقائق مشياً على الأقدام عن الكلية التي أدرس فيها، وبجانب حديقة الأورمان، لم أكن أعلم بأنني سأستأجرها لمدة ١٢ عاماً، لا أحد يعلم بما سيكتبه الله له، استأجرتها بسعر ١٦ جنيهاً ونصف، لاحظوا أن ١٦ لم تكن مبلغاً صغيراً، أنا أتحدث عن جنيه كان يساوي ١٠ ريالات سعودية، كان مبلغاً كبيراً فراتبتي الذي كنت أتقاضاه كان ٣٣ جنيهاً وكنت أحصل على ٣٠٠ يال من راتبتي في الرياض، لم يكن ما أحصل عليه يكفي دائماً وكنت أحصل على دعم مالي من أخي عبد الله، أما عنوان الشقة فكان: «عمارة ١٤ شارع الدقي شقه ١١»، ما رأيكم بذاكرتي؟ من قال إن الذين يكبرون في السن تضعف ذاكرتهم، من قال ذلك؟ هل تريدون دليلاً آخر غير عنوان شقتي لأثبت لكم بأن ذاكرتي قوية الآن وأنا أكتب لكم، إذاً إليكم الدليل، كان في الشقة هاتفاً رقمه هو (٤٩٢...) لم أكتب الأرقام كلها حتى لا يتصل أحدكم بالرقم ويزعج الساكنين الآن!، إنني ولله الحمد أحفظ هذا الرقم منذ عام ١٩٦٢م أي منذ ٥٩ عاماً، أقول ذلك للذين يدعون أن كبار السن تضعف ذاكرتهم، في الحقيقة والصراحة نعم... إنها تضعف.. وتضعف كثيراً أيضاً، لكنها تصالحك في حفظ بعض الذكريات وتذكر ذكريات أخرى بين الحين والآخر، إنها سنة الحياة.

هل تذكرون عندما قلت لكم بأنني لم أكن متفوقاً في اللغة الفرنسية وأعاني من ضعف في تعلمها، لذلك لم أستطع النجاح في اختبار اللغة الفرنسية في الثانوية العامة، لكن مادة اللغة الفرنسية لم تكن ضمن المواد التي يشترط النجاح فيها، هذا الضعف في اللغة الفرنسية والعلامات القليلة التي حصلت عليها بمادة الفرنسي هي من جعلت إدارة الجامعة ترفض قبولي وزميلي فهد البشر في دراسة الأرشيف والملفات لأن النجاح باللغة الفرنسية في الثانوية

كان شرطاً من شروطهم، وهكذا كنت في القاهرة لأكثر من أربعة أشهر مبتعثاً من دون الدراسة في الجامعة، أربعة أشهر شعرت فيها بالغموض تجاه ما أنا بصدده. لكن الله سبحانه دائماً يضع في طريق الإنسان من يساعده، تعاطف معنا الأستاذ أحمد المانع والأستاذ محمد الفريح اللذان كانا يعملان في مكتب الملحق الثقافي السعودي في القاهرة، كان دورهما كبيراً في حل المشكلة التي وقعنا فيها، فمن الصعب أن تشعر بأنك في بلد من أجل الدراسة دون أن تدرس، كتب الأستاذ محمد الفريح خطاباً لوغليل المعارف الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ وكان هذا الرجل قوي الشخصية، وافق على إلحاقنا بكلية الحقوق، وصادف أن أحد المبتعثين تم إلحاقه بكلية أخرى وكان يريد الحقوق وكتب للأمير فهد قائلاً: «منعوني من الحقوق وألحقوا عبد العزيز النعيم وفهد البشر في الحقوق»، وحسب ما وصلني أن الأمير فهد سأل آل الشيخ لماذا أرسلتم طلبة للحقوق وهناك قراراً بعدم إرسال طلبة الأدبي، فشرح آل الشيخ مشكلتنا وأنهم أرسلونا لدراسة الوثائق وتم رفضهم فسجلناهم بالحقوق فلم يمانع الأمير فهد، وهكذا عادت أمنيته بدراسة الحقوق إلى أرض الواقع، وعدت لأجيب على السؤال الذي راودني وأنا على متن الطائرة... ها أنا ذا في كلية الحقوق أيها السؤال ولم تذهب تلك الأماني سدى، إذا ما كتب الله شيئاً للمرء فلا أحد يستطيع منع ذلك، كان ضعفي في اللغة الفرنسية مفيداً جداً لأمنيته بدراسة الحقوق.

هكذا التحقت بكلية الحقوق في القاهرة، اجتهدت بكل ما أستطيع للدخول في الأجواء الجامعية، طالباً جاداً وحذراً عن كل ما يشغله عن التعليم أو قد يوقعه بأية مشاكل، طلب مني أحد الطلبة السعوديين أن نقامر بسباقات الخيول وأن بها أرباحاً كبيرة، نقامر؟ ما الذي تقوله أيها الزميل؟ أنا أبعد مما تظن كثيراً.

ما إن بدأت بالدراسة حتى بدأت أشتاق وأتخيل زوجتي وأبنائي وهم معي في القاهرة، لا بد أن أحضرهم، بعد التحاقني بالكلية بعدة أشهر عدت لعنيزة وأخذتهم للقاهرة قائلاً لهم تعالوا معي ستأكلون هناك في صحون صين!

أولادي في الأورمان وأنا في الحقوق

طارت بنا الطائرة من الرياض إلى القاهرة مدة ٥ ساعات، كانت تلك الرحلة على الطائرة هي الرحلة الأولى لأبنائي في حياتهم، كان كل شيء جديداً عليهم، وعيونهم تتعرف على أشياء تشاهدها لأول مرة، كان نوع الطائرة سكاى ماستر، طائرة ضخمة مليئة بالركاب، بعد حوالي ساعتين من الرحلة انقطع الماء في الطائرة بسبب خلل فني، بدأ الركاب يطلبون الماء من المضيفين الجويين الذين كانوا يعتذرون منهم، صرت أستمع إلى الأصوات العطشى المحتجة، كان معنا (ترمس) ماء أحضرته أم محمد مليئاً بالماء الممزوج بالليمون، قلت لمضيف الطائرة لدينا ماء في هذا الترمس خذه وأعط الركاب منه، قال لي اسكت ولا تبلغ أحداً بوجود الماء معك، فالطائرة مليئة بالركاب وسيفتح ترمسك هذا مشكلة لنا فمن نعطي ومن نبقي؟ سنصل بعد ساعات قليلة ولن يموت أحد بسبب العطش، وصلت الطائرة إلى القاهرة، أشعر بسعادة مضاعفة عن شعوري عندما جئت وحيداً لأول مرة بسبب وجود زوجتي وأبنائي، لكن هذه المرة جئت خبيراً بالقاهرة في نظر أسرتي كوني أقمت بها أشهراً، كانوا هم أيضاً سعداء، ينظرون من حولهم إلى المباني الكبيرة والشوارع الكثيرة، وإلى امتداد المياة التي يحتضنها نهر النيل وتلك المراكب الخشبية بأشرعتها البيضاء، كان ذلك هو النهر الأول الذي يرونه في حياتهم، ليس صعباً أن تقيم في مصر، سواء كنت وحيداً أو مع أسرتك، فالمصريون طيبون بطبيعتهم و(عشريين) أي إنهم غير منغلقيين نهائياً كما هي بعض المجتمعات في هذا العالم، من السهل أن تتعرف وتكوّن علاقاتك معهم ثم إنهم يعتبرونك واحداً منهم ويدعونك إلى منازلهم كصديق وأخ لهم، كان هناك العديد من المحلات التي تبيع المنتجات المختلفة في جانب العمارة التي كنا نقيم فيها، أصبح الدجاج الذي لم تكن نأكله في غنيزة وجبة من الوجبات المفضلة، لكنه ليس أي دجاج، كان دجاجاً بلدياً وهو يختلف عن الدجاج الأبيض الحالي الذي يتغذى بأغذية تجارية، سمي بالدجاج البلدي نسبة إلى البلد والمقصود بالبلدي الذي يولد ويعيش في القرى، والدجاج البلدي طعمه لذيذ وصحي، ما رأيكم لو قمتم بتجربة ذلك حتى تعرفوا تماماً ما أقصده، اشترى دجاجة بيضاء من الدجاج التجاري، ثم اشترى دجاجة بلديّة وجربوا طعمهما وستعرفون الفرق على أن لا تضعوا الكثير من الفلفل الحار لأنه يذهب الطعم ويبقى الحرارة فقط، كان (سيد) يبيع الدجاج البلدي ومحله ليس بعيداً عن شقتنا، بعض البائعين كانوا يغشون في الميزان عندما

يضعون عليه الدجاج، فيضعون يدهم فوقه حتى يزدوا وزن الدجاج ويفعلون ذلك بخفة لا يشعر بها المشتري، أو أنهم يملؤون معدة الدجاجة بالخبز عن طريق فتح فمها، ولكون موقع محل سيد بجانب شقتنا كان لا بد أن أتعامل معه، توصلت إلى اتفاق معه وهو أن لا يغشني لأصبح زبوناً دائماً لديه، عاهدني على ذلك وكان رجلاً وفاقاً بعهدده فلا أتذكر أنه غش في الميزان مرة، كان يضع الدجاج على الميزان قائلاً: «بص حضرتك أهو»... تشكلت علاقة إنسانية بيني وبين سيد وأصبحت أهتم ببعض احتياجاته التي لا تتوفر في القاهرة فأحضرها معي من الرياض كالأدوية أو بعض الهدايا التي كنت أختارها له.

ليس بعيداً عن محل سيد بائع الدجاج كان هناك جزائر اسمه السبكي، والسبكي كان جزائر قوي الشخصية، كان القانون في القاهرة آنذاك لا يسمح أن تُباع اللحوم يوم الاثنين، فرأى السبكي أن ذلك يضر بمصالحه فلم يلتزم بهذا القانون وصار يبيع اللحوم يوم الاثنين واتفق مع صبي له اسمه محمد أن يتحمل المسؤولية إذا ما جاء مفتش البلدية وسأل عن المسؤول عن فتح المحل وبيع اللحوم، كان السبكي يقول: «مش أنا»... ثم يشير نحو الصبي بإصبعه، فيتم القبض على محمد ليبقى في الحجز ساعات أو يوماً أو يومين ثم يعود لممارسة عمله، هذا الصبي الذي كان (يشيل) التهمة كانت لديه أخت اسمها سعاد عملت لدينا كعاملة منزلية، وسعاد امرأة نشيطة وأمينة جداً، استمرت معنا سنوات طويلة وكنا نأخذها في رحلاتنا الداخلية ولم نرى منها إلا الصدق والطيبة، ورغم أنني تواصلت مع العديد من الذين تكونت لنا علاقات معهم واستمرت مع أبنائهم إلى غاية يومنا هذا، إلا أنني فقدت التواصل مع سعاد، ورغم محاولتنا المتكررة في الأسرة للوصول إليها لمساعدتها والاطمئنان على أحوالها إلا أننا فشلنا في ذلك، كل من عمل معنا استمرت علاقتنا وتواصلنا معهم أو مع أبنائهم لغاية يومنا هذا إلا سعاد... مازلت أتمنى أن أعثر عليها، فهي تستحق الوفاء لأنها كانت امرأة مخلصه ووفية وأمينه، إنها ليست مثل تلك العاملة المنزلية التي أحضرناها للعمل في شقتنا وكان في الشقة مجموعة من (الشباشب) كما يسميها المصريون، أو (زنوبه) كما نسميها نحن في عنيزة والرياض، وهي أحذية بلاستيكية رخيصة الثمن، ما إن جاءت تلك العاملة ورأت تلك الشباشب حتى صارت تلبس واحدة ثم تنزل إلى أسفل العمارة وتعود حافية القدمين، كررت تلك العملية أربعة مرات حتى لم يبق في شقتنا أي شبشب!

بالمناسبة كان للجزائر السبكي ابن كان لاعب كرة، شاعت الأقدار أن يحترف ابنه بأحد أندية عنيزة الكروية، لكنني لم ألتق به وقد يكون هذا الاسم معروفاً لمتابعي الكرة والمهتمين بها، أما بواب العمارة الرجل الطيب -رحمه

اللّٰه- فقد نسيت اسمه الآن... اعذروني على نسيان اسمه ولا تتهموني بضعف الذاكرة، لقد أثبت لكم قوتها في عدة مناسبات... عنوان الشقة ورقم الهاتف وأشياء كثيرة، كان بواب العمارة رجلاً طيباً حريصاً على المقيمين وأبنائهم واكتسب الثقة لدى الجميع، لم تكن نخشى على أولادنا باللعب أسفل العمارة فقد كان يعاملهم كما يعامل الأب أبناءه وكان يدافع عنهم إذا أحس أن خطراً قد يحيط بهم، كنت أهتم به وأرى السعادة والامتنان على وجهه، ليس لأنني أعطيته شيئاً بل كانت ابتسامته تعبر عن سعاداته لمعرفته بمحبتتي له، حتى عندما غادرنا القاهرة لم تنقطع علاقتي به، وعندما توفي استمرت العلاقة مع أبنائه إلى يومنا هذا وأحرص على تقديم المساعدة كل عام بشكل ثابت، لا أكتب هذا لأنني أريد أن أقول بأنني رجل كريم... لا أبدأ، لكنني أريد أن أقول لمن يقرأ لا بد أن تكون أوفياء لمن عملوا بصدق معنا وأن ننفعهم عندما نكون قادرين على نفعهم، فهم بطريقة ما شركاء فيما نحن فيه، أن يعمل عندك شخص وتحصل من عمله على الراحة والصدق والأمانة فهو رجل قدّم لك ما يستحق أن تكون وفياً معه حتى وإن كنت تعطيه المال مقابل خدماته، قبل أيام تواصلت مع ابن البواب أما من يستطيع العثور على سعاد ويدلني علي عنوانها فسأقدم له هدية.

مع وصول أسرتي للقاهرة أحببت أن أريهم الأهرام، كان شعري طويلاً... ما إن وصلنا إلى الأهرام حتى بدأ يخاطبني العاملون هناك: «يا باكستاني!» كانت الأهرام مفتوحة للجميع وباستطاعة أي شخص أن يتسلقها، أنا تسلقت خوفاً حتى وصلت للفتحة التي تقع في أعلاه، الأهرام عمل إبداعي يظهر المقدرة التي وهبها الله للإنسان.

كان أبنائي قد تجاوزوا الصف الثالث الابتدائي عندما درسوا في الرياض وعنيزة وهم محمد وعبد الرحمن ويوسف وأحمد، بجانب شقتنا تقع مدرسة الأورمان (84) من أشهر المدارس وأفضلها في القاهرة، كان ضمّ أبنائي إليها هدفاً مهماً أردت تحقيقه، فمستوى التعليم كما ذكرت لكم مؤثر رئيسي في مستقبل الإنسان، والأورمان مدرسة منضبطة، كانت مدرسة نموذجية تضم الطلبة المتفوقين، كيف لي أن أضم أبنائي إليها؟ في الحقيقة كان لا بد أن أطلب مساعدة من أحداً ما، طلبت كتاباً من أحد المستشارين المصريين الكبار الذين يعملون في وزارة المعارف السعودية، كتب لي خطاباً ووجهه لوزير التعليم المصري، وافق الوزير وكتب خطاباً لمدرسة الأورمان يأمرهم بتسجيل أبنائي وهكذا حصل أبنائي على تعليم ممتاز في الوقت الذي كنت أدرسي فيه بكلية الحقوق، كانت إدارة الأورمان إدارة محترمة، قالوا لي إن كنت أستطيع التبرع والمساهمة لفتح فصل جديد من أجل ضمّ طلبة جدد، قلت لهم وكم يبلغ التبرع؟ قالوا عشرة جنيه، وافقت رغم أني لم أكن أملك

المبلغ فما كنت أحصل عليه كما ذكرت لكم لا يكفي دائماً مصاريفي الشهرية وكنت أتلقى مساعدة أخي عبد الله، استدنت مبلغ العشرة جنيهات وتبرعت بها لهم، وأنا وأبنائي كنا ومازالنا مدينين لهذه المدرسة وإدارتها ونكن لهم كامل العرفان والتقدير، فهم ساهموا مساهمة مهمة فيما وصل إليه أبنائي، «كلمة شكراً» لا تكفيهم لكنني أسأل الله أن يرحم من توفي وأن يطيل عمر من تبقى منهم.

هكذا إنن والله الحمد، تسير الأمور على أفضل ما يرام، جامعة ممتازة، ومدرسة نموذجية لأبنائي، وسكن مريح، كنت أحمد الله على ما كنت عليه، وعلى المرء أن ينتبه للنعم التي لديه ويشكر الله كثيراً عليها، بعض البشر لا يشعرون بما كان لديهم إلا بعد فقدانه.

كانت العملة التي أحضرها معي من السعودية للقاهرة هي الدولار، ولم يكن تحويل الدولار خارج البنوك بالشيء المسموح به، ولم تكن نريد تحويل الدولار إلى الجنيه في البنوك بسبب الفارق الكبير بين سعر البنوك والسعر في الخارج، كان سعر صرف الدولار في البنك أقل من قيمته الحقيقية بصورة كبيرة، فتح هذا الفارق سوقاً سوداء، وأصبح بعض المصريين يعملون خفية عن أعين المباحث بصرف العملة وخصوصاً الدولار، لذلك كان علينا نحن في الأسرة أن نبتكر اسماً بديلاً للدولار حتى لا نلفت انتباه أحد ما إذا لم تكن لوحداً وأردنا ذكر اسم الدولار، أطلقنا على الدولار اسم (بسكوت) هكذا نسمي البسكويت بحذف الياء، مازلت أذكر أن أحد أبنائي وكان ما يزال صبياً قال لي وهو يقف على البلكونة وأنا أستعد لركوب السيارة المتجهة إلى المطار في إحدى أسفاري للرياض: «يبه جب لي معك بسكوت!».

عادة كنت أصرف الدولار في محل بجانب الجامع الأزهر، صاحب المحل رجل نزيه، يعرض على واجهة محله بعض الحصى وما يشبه الأحجار الكريمة، لم تكن تلك الأحجار إلا تمويهاً لعمله الحقيقي وهو تجارة العملة، لحظة واحدة... هل تعتقدون بأنني أفشي سر الرجل الآن؟ هل تظنون بأنهم سيبحثون عنه ويقبضون عليه إن كان ما يزال حياً؟ لا أظن أن هذا سيحصل... أسأل الله أن يكون في أحسن صحة إن كان حياً يرزق، عندما كنت أعطيه الدولارات كان يعطيني الجنيهات ويرفض أن أعدهم في محله خشية من دخول أحد ما... كان يقول بحزم: «عدهم في البيت عندك!» لا أذكر أنه غش في الحساب يوماً، الغش كان موجوداً لدى بعض المحتالين الذين يعملون في تبديل العملة، في بعض الأحيان وأنت تسير في بعض شوارع القاهرة التي يرتادها السياح تسمع من يقول لك: «دولارات يا بيه؟»، بعض هؤلاء وليسوا جميعهم كانوا يحتالون بطريقة خبيثة، يعطيك سعراً مرتفعاً

لصرف الدولار حتى يغريك بتبديله، ما إن تعطيه الدولارات حتى يعطيك ضمن عشرات الجنيهات ورقة تسمى (مضغوطة) أي إنها بوسط الأوراق في وضع يسمح له بعدها مرتين دون أن تشعر بذلك، وهكذا كان المبلغ الذي يعطيك إياه ناقصاً عشرة جنيهات إذا كانت الورقة المضغوطة واحدة، وقد تكون هناك أكثر من ورقة إذا كان المبلغ كبيراً ويسمح له بوضع أكثر من واحدة!

القاهرة كانت ومازالت آمنة إن شاء الله، لكن في كل بلد من بلدان العالم تجد النصابين والنشالين، وعادة ما يكون للنشالين خططهم، حتى في الدول الأوروبية كذلك، بعض حالات النشل تتطلب أكثر من نشال لتنفيذها، لذلك تجد أحياناً ثلاثة أو أربعة أفراد يشتركون بعملية نصب على أحد ما ولكل فرد من الأفراد مهمة يقوم بها، كأن يلهي الضحية أو يقف بجانبه ويجعله لا يرى الفرد الذي سيمد يده لسرقة المحفظة أو الأوراق النقدية، لم تكن لدي سيارة وكنت أستخدم القطارات أو الباصات العامة ويسمونها المصريون بالأوتوبيس، في إحدى المرات نزلت من الأوتوبيس في المحطة القريبة من شقتي وشعرت كأن أحدهم ملتصق بي بينما كنت أنزل من الأوتوبيس لكنني لم أشك فيه، كان في جيبي جنيه وخمسة وسبعون قرشاً، عندما وصلت إلى البيت وأردت إخراج ما في جيبي انتبهت إلى عدم وجود المبلغ وعلمت بأن أحدهم قد نشل ما في جيبي، استرجعت الدقائق والساعات الماضية وتذكرت الرجل الذي التصق بي عند نزولي من الأوتوبيس، أبلغت أم محمد بما حصل وقلت لها سأذهب بالقرب من محطة الباص فلا بد أنه يشرب عصيراً أو يأكل شيئاً ما في أحد المطاعم على الشارع القريب، رفضت أم محمد خروجي وقالت دع الأمر لكنني رفضت رفضاً قاطعاً، ما إن وصلت إلى الشارع حتى شاهدته وهو يشرب العصير، توجهت نحوه وقلت له أخرج المبلغ الذي نسلته مني، حاول أن يبدو مستغرباً مما أقول وأنكر ادعائي بسرقة لي، وجهت له ضربة قوية بكف يدي فأخرج المبلغ مباشرة قائلاً: «أنا متأسف يا بيه خذ فلوسك... جنيه وخمسة وسبعين قرش!» أخذت المبلغ وعدت إلى البيت، بعد مرور عام كامل شاهدت الشخص نفسه والشرطة تلقي القبض عليه وتضربه، كان واضحاً أنه نشال محترف، دعوني أعترف لكم، لقد كانت زوجتي أم محمد على حق عندما قالت لي دعه ولا تبحث عنه، وكان من المفترض أن لا أذهب إليه ولا أتعارك معه، اليوم لو عاد بي الزمن لما فعلت ما فعلته، ليس رافة بالنشال بل حرصاً على سلامتي وهي أهم شيء في مثل هذه الحالات، ماذا لو كان يحمل سكيناً ووجه لي طعنة مت على أثرها... هل سأموت من أجل جنيه وخمسة وسبعين قرشاً؟ حتى لو لم أمت ورقدت في المستشفى عدة شهور أتعالج من طعنته فهل يستحق ذاك المبلغ كل هذا الألم؟ إن مثل هذه الحادثة كان من الممكن أن تصبح مفترق طرق

في حياتي قد أخسر فيها حياتي أو صحتي أو ما كان سيؤثر على دراستي ومسؤوليتي تجاه أبنائي، إن تصرفي لم ينم عن حكمة وعقل، كما أن العراك في الشارع لا يليق بالقرء، بل إن العراك لا يليق أن يحصل بين الناس، كان علي أن أبلغ الشرطة إن كنت أريد أن أسترد المال، الكثير منا سمع تلك القصص عن الشجارات التي تورط بها البعض من دون سبب ذا قيمة وسببت لهم مشاكل كانوا في غنى عنها، ذكرت ما حصل ليس لأنه حدث مهم في فترة وجودي في القاهرة، لكنني أردت أن أقول بأن التصرف السليم في مثل هذه الحالات هو ترك مثل هذه الأمور وغض الطرف عنها لأن تركها أسلم وأنفع، أو أن يتم التعامل معها بالطرق الرسمية، وقد حصل معي شيء شبيه في الفترة نفسها تقريباً عندما كنت أسير نحو الكلية وإذا بشخص يأتي ويضرب كتفه بكتفي رغم عدم وجود أي زحام، فقال لي بعصبية: «حاسب!»، كانت ضربته مقصودة حتى يفتعل شجاراً يحاول أن يحصل خلاله على مبلغ ما، كما أنه قد يكون متفقاً مع زميل له أو أكثر على التدخل في الشجار، لم أرد عليه لكنني وجهت له ضربة قوية بكف يدي فركض هارباً على الفور، كنت قد استخدمت معه قول الشاعر:

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وإن تحسمه بالشر ينحسم

أرجو أن لا تقولوا ما بال هذا الرجل يضرب من حوله، لا لست كذلك فأنا رجل مسالم بطبيعتي، لكن تلك المواقف تعرضت لها وتصرفت بها على النحو الذي ذكرته لكم، أما حكاية النشال فذكرتها للعبرة، أما بالنسبة للرجل الذي صدم كتفي فكان تصرفي فورياً لدرء الخطر وإفشال مخططه، ثم لا تستعجلوا بالحكم إذا أصبح عندكم إعتقاد بأنني أستخدم يدي بسرعة لحل بعض الأمور، لست كذلك أبداً، ففي إحدى المرات كنت وزميلان لي ضحية لتهجم بائع منجو غاضب، كنا نحرض عندما نريد أن نزور الرياض أن نشترى المانجو ونأخذها معنا في الطائرة إلى الرياض أو عنيزة، والمانجو المصرية ذات طعم لا يقاوم وهي ذات جودة عالية، ذهبت وزميلاي إلى بائع المانجو وسألناه عن سعر الكيلو، أعطانا سعراً مرتفعاً، فذهبنا للبائع الذي بجانبه وعرض علينا سعراً مناسباً، اشترينا منه عدة صناديق من المانجو، ما إن رأى البائع الذي لم نشتر منه الصناديق التي اشتريناها حتى هجم علينا مع العاملين معه وهم يحملون العصي وقاموا بضربنا فاشتبكنا معهم، تم تفريق العراك وذهبت إلى أقرب سيارة شرطة، أبلغتهم بما حصل وقلت لهم: «إننا طلبة سعوديون ندرس في القاهرة ونحن نعتبر أنفسنا من أبناء البلد، فإن كنتم لا ترون بأننا أبناء للبلد فاعتبروا أننا ضيوف عندكم، فهل يستحق ضيوفكم ما حصل لهم دون أن يرتكبوا خطأ أو جناية؟ إننا نعتقد بأننا محميون من الأمن المصري، فهل اعتقادنا صحيح؟» كانت خطبتي القصيرة حماسية وألهبت مشاعر الضباط

الذين شاهدوا آثار المعركة على ملابسنا، توجهوا فوراً نحو بائع المانجو ونحن نتبعهم، ما إن وصلوا إليه حتى قاموا بضربة مع من اشترك معه ضرباً مبرحاً ووضعوه داخل سيارة الشرطة وتوجهوا بهم إلى المركز.

هذه القصة قد تغير وجهة نظر من اعتقد بأنني كنت أبدأ بالضرب، هذه المرة نحن من تمّ ضربنا، هل أقنعكم ذلك، تخيلوا وأنا أحاول صد العصي وهي تهوي على يدي أو كتفي في ذلك العراك شاعراً بألم شديد، ألا تتعاطفون معي فيغير كل من ظن بأنني رجل أضرب الناس دون سبب مقنع؟

عموماً حكاية هذا الشجار أقولها لأوضح بأن الأمن المصري كان يحرص على حمايتنا بغض النظر عن جنسية المعتدي، لقد شعرنا بوجود الأمن وقوة القانون بعد ذلك الشجار. قد يسأل سائل ومن أنتصر في ذلك الشجار فانت لم تبح لنا بعد بتفاصيله الذي تبين المنتصراً حسناً، في الحقيقة أنا وزميلي لم نذهب لنتشاجر، بل لشراء المانجو، فأخذنا معنا القال ولم نأخذ العصي، هل رأيتم أحداً يذهب لشراء المانجو فيأخذ معه عصا؟ كلا، لذلك عندما هجم علينا بائع المانجو الذي شعر بالغيرة من زميله البائع الآخر الذي اشترينا منه صناديق المانجا قام بمهاجمتنا هو ورفاقه في غفلة منا، لذلك تلقينا عدة ضربات منهم، لكننا دافعنا عن أنفسنا، هل يكفي ذلك؟ ماذا؟ حسناً لقد تمّ ضربنا، لقد تمت هزيمتنا من قبل بائع المانجو ورفاقه، هل يكفي هذا الاعتراف لمن تساءل عن نتيجة الشجار؟ هل أقول ذلك بصوت مرتفع؟ حسناً: «لقد تمّ ضربنا... تمّ ضربنا»، لا أظن أن هناك ما هو أوضح من هذا الاعتراف، وكل من تعاطف مع النشال أو الرجل الآخر الذي ضربته أقول له ها قد شفي غليلك!

عموماً ولمن يسأل عما حصل لصناديق المانجو بعد ذلك الشجار فأود أن أطمئنه بأننا استطعنا أخذها وأكلنا بعضها حتى ينسينا طعمها اللذيذ الآلام التي سببتها تلك العصي.

كان بائع المانجو الذي هاجمنا رجلاً بسيطاً في تفكيره، فهو ورغم أنه تاجر إلا أنه لم يفكر بأن الأرزاق بيد الله، وأن ما لا يصل إليك فهو لم يكتب لك، وما وصل إليك لم يستطع أحد منع وصوله إليك لأن الله قد كتبه لك.

شعرنا بالاستقرار أنا وزوجتي... كان ذلك أوائل الستينيات الميلادية، أبناؤنا يذهبون صباحاً إلى مدرستهم مشياً على الأقدام تساعدهم الخادمة على حمل شنطتهم، والبواب يستقبلنا صباحاً بكلماته المهذبة رافعاً يده مرحباً: «صباح الخير يا أستاذ عبد العزيز... وأهلاً وسهلاً ونورت يا أستاذ» عند

عودتي، أما أم محمد ورغم أنها كانت امرأة تحب بيتها والاهتمام بأبنائها كثيراً. إلا أنها استطاعت أن تشكل علاقات مع بعض نساء الطلبة السعوديين من زملائي، كانت نساء الزملاء يلتقين مرة كل أسبوع، ورغم الإمكانيات المالية الضعيفة في السنوات الأولى من تواجدي في القاهرة إلا أنني حرصت على أن تكون وجبة الأكل التي تقدمها لضيوفها وجبة متنوعة وغنية، كنت أذهب إلى الجزار وأختار قطع اللحم حتى تقدم لهم لحم البوفتيك، بالإضافة إلى أصناف أخرى إكراماً لها ولضيوفها وحتى لا تبدو أمامهم في وضع مالي ضعيف، أما السينما فقد تعرف عليها أبنائي في القاهرة لأول مرة، لم أكن رجلاً يحب مشاهد الأفلام، إلا أنني لم أكن أمانع إذا كان الفيلم أو المسرحية لإسماعيل ياسين (85)، كان هذا الممثل ذا قدرة كبيرة على إضحاكي، إلا أن السينما بصورة عامة لم تكن تستهويني، في الحقيقة أخذ حبي للتعليم والتحصيل العلمي كل اهتمامي وأصبحت أعيش في هذا الفلك، القاهرة تعني لي المكتبات والأدب والجامعات، أما أبنائي فكانوا يذهبون إلى سينما مترو لمشاهدة الأفلام المخصصة للأطفال، كانوا يذهبون كل أسبوع تقريباً إلا في الأوقات التي تتطلب تكثيف مذاكرتهم استعداداً للاختبارات، كان أبنائي من الطلبة المتفوقين دراسياً، أرجع الكثير من الفضل لأهمهم على هذا التفوق، كانت حازمة في أن يراجع الأبناء دروسهم ورغم أنها لم تتعلم القراءة والكتابة إلا أنها تجيد فن قيادة أبنائها الطلبة وحثهم على التفوق وإشعارهم بأهمية ما يقومون به وضرورته.

درست قانون المواريث على حصيرة المسجد!

أكثر أوتوبيس استخدمته في القاهرة متجهاً إلى كلية الحقوق هو أوتوبيس رقم ٦، وهو الأوتوبيس نفسه الذي شهد قصة (النشل)، مقاعده تنقسم إلى درجتين، درجة أولى وثانية، الأولى في الأمام والثانية في الخلف، كنت أستخدم الأولى عادة، أحد زملائي السعوديين كان يحجز تذكرة درجة ثانية ثم يبدأ بالانتقال من مقعد الى آخر حتى يصل إلى الدرجة الأولى ويجلس بجانبني قائلاً: «نحن متساويان يا صديقي!»، كان يريد توفير المال ولا لوم عليه... ليس في زحفه نحو مقاعد الدرجة الأولى بل في توفير المال فهو طالب ذو دخل محدود وكان يجب عليه أن يضع كل جنيهه في موضعه الصحيح، ولكن وفي الوقت نفسه ليست تلك الطريقة الصحيحة في توفير المال فما كان يفعله يسمى بالغش، كان طالباً خلوقاً وكانت فعلته تلك لا تعني بأنه كان يغش في كل شيء، سامحه الله وغفر له.

كلية الحقوق بجامعة القاهرة تأسست عام ١٨٨٦م وكانت تسمى بمدرسة الإدارة والألسن ثم سميت بمدرسة الحقوق الى أن صار اسمها كلية الحقوق وتم ضمها الى جامعة القاهرة.

الطالب في دراسة القانون يدخل عالماً كبيراً ومتنوع التخصصات، يدرس القواعد التي تنظم العلاقة بين الأطراف منها السلطة العامة، وأقسام القانون متنوعة فمنها القانون الجنائي والقانون الدولي العام والقانون التجاري والبحري والقانون المدني والشريعة الإسلامية والاقتصاد والمالية العامة وقانون المرافعات والقانون الدولي الخاص وفلسفة القانون وهناك أيضاً تخصصات أخرى أنشئت في بعض جامعات العالم مع تطور الحياة والاحتياج إلى تخصصات جديدة.

كان في كلية الحقوق برنامج من نوعين أشبه بكلية الشريعة، ودراسة الشريعة الإسلامية موجودة في كل السنوات الأربع التي درستها في كلية الحقوق، في السنة الأولى درسنا مصادر الشريعة وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس وهو قياس حالة موجودة لها نص بحالة ليس لها نص لكنها قريبة منها، والمصالح المرسله هي المصالح التي لم يرد عن الشرع اعتمادها أو نفيها وإنما متروكة للاجتهاد وهي مصدر واسع للأحكام، وأيضاً

درسنا مصادر القانون وقانون الأحوال الشخصية الإسلامية التي تحكم الزواج والنفقة والإرث والوصايا، في السنة الثانية درسنا مواد الأحوال الشخصية، وفي السنة الثالثة المواريث والوصايا والوقف، وفي الرابعة مادة مهمة وهي أصول الأحكام، كيف نستطيع إخراج حكم من النص الشرعي سواء من القرآن أو السنّة أو إجماع الفقهاء، والنظام القانوني نوعان، هناك نظام القانون المكتوب ويطبق في فرنسا وبلجيكا وغيرها من الدول، ومصادر القانون الأنجلو سكسوني الذي يعتمد في الأحكام علي السوابق القضائية ويستخرجون منها مبادئ الأحكام، ونحن نعلم القرآن والسنّة والإجماع والقياس في ذلك.

كانت أجواء الدراسة جيدة ويلتقي الطالب مع العديد من الجنسيات العربية، بعد المحاضرة أجلس في البوفيه فيستقبلني العاملون بكلمات مفخمة مرحبين بوصولي، كلما وصلت قال العامل للرجل الذي يعد القهوة بصوت مرتفع: «قهوة للأستاذ عبد العزيز من بن العميد!» والعميد قهوة تصنعها شركة يبدو أن اسمها العميد، لم تكن القهوة معدة من بن العميد، كنت أعرف ذلك لكنني لم أناقشهم يوماً عن مصدر القهوة الحقيقي التي يعدونها لي، فهم عاملون بسطاء ويقولون تلك الكلمات الترحيبية حتى يحصلوا على بعض (البقشيش) كما يسمى أو الإكرامية كما تسمى في دول أخرى، مثل هؤلاء العمال وفي أي مكان روايتهم ضئيلة ومثل ذلك البقشيش الذي يأخذونه مني ومنك يساعدهم كثيراً في تحسين أحوالهم المادية التي تصبّ في تحسين وضع أسرهم المعيشي، كما أن مثل هذه المبالغ الضئيلة التي نعطيها للعامل لا تؤثر علينا لكنها تؤثر إيجاباً على العامل إذا ما جمعها.

الدكتور عبد الرحمن العبد الله الزامل كان زميلاً لي في الكلية، وكان من ضمن الطلبة الذين يتذمرون من دراسة قسمة التركة ويشعرون بصعوبة تعلمها وحفظها ويرون أنها مادة صعبة، أما أنا فقد حفظتها وأنا صغير عندما درستها في المسجد عند الشيخ ابن عودان، انظروا لمستوى ما كنا نتعلمه في المسجد ونحن نجلس على الأرض وكيف كنا نتعلم في ذلك الوقت مادة تدرس في جامعة القاهرة لطلاب كبار، منذ ذلك الوقت وأنا أحفظ المنظومة الرحبية التي بها تقسيم الميراث للرجال وهي على شكل قصيدة :

والوارثون من الرجال عشرة أسماؤهم معروفة مشتهرة

الابن وابن الابن مهما نزلا والأب والجد وإن علا

والأخ من أي الجهات كانا قد أنزل الله به القرآنا

وابن الأخ المدلى إليه بالأب فاسمع مقالاً ليس بالمكذب

والعم وابن العم من أبيه فشكر لذي الإيجاز والتنبيه

والزوج والمعتق ذو الولاء فجملة الذكور هؤلاء

اتصل بي عبد الرحمن العبد لله الزامل قائلاً: «ماذا أفعل يا عبدالعزیز بقسمة التركة؟» كان يحادثني وكأنه يلمح لي بأن أعلمه إياها، فشعرت بحاجته وأحببت أن أستغل حاجته تلك بأن أشرت عليه بعض الشروط، فقلت له تأتيني إلى شقتي بسيارتك وكانت من نوع فولكس فاجن أو الخنفساء كما تُلَقَّب، فقال عبد الرحمن: «حاضر»، ثم قلت: «وتأخذني إلى المقهى الذي أختاره في طريق الهرم»، فأجاب: «حاضر»، ثم تدفع يا عبد الرحمن الفاتورة»، فأجاب: «حاضر»، وفعلاً جاء إليّ وذهبتنا إلى المقهى وشرحت له الرحبية وحفظها وتخلص من صعوبتها وأستطاع أن ينجح بها ومازال يذكر ذلك الدرس إلى غاية يومنا هذا.

من ضمن المدرسين الذين أعجبت بهم الأستاذ عبد المنعم البدرابي الذي درسنا القانون المدني، كان ذا إمكانية كبيرة وقدرة فائقة على التدريس، وعندما افتتحت كلية الحقوق في الرياض ذهبت إليه وأحضرتة لكلية الحقوق في الرياض بعد إنشائها وكان مكسباً كبيراً لكلية كونه ضليعاً في القانون المدني، والأستاذ فتحي والي الذي درسنا المرافعات، لا أذكر اسم الأستاذ الذي درسنا القانون التجاري لكنني أتذكر مقولته التي لم أنسها: «الشراء من أجل البيع!»، وأيضاً كان ممن أحضرتهم العميد صوفي أبو طالب الذي قال لي بعدما أبلغته برغبتني: «أنا عندي رحلة للسودان... لكن سودان إيه.. أتا عاوز أروح معاك السعودية».

لم أكن أهدر وقتي على لا شيء حتى لا أحصل على لا شيء، وقت الدراسة لا لعب فيه والدراسة لها الأولوية دائماً، كان الأبناء يرغبون بالجلوس لمشاهدة التلفزيون بعد الانتهاء من مذاكراتهم، أما أنا فقد خصصت لي مكتباً في الشقة وكنا نستخدمه كمستودع أيضاً، كنت أقفل الباب وأدرس ساعات طويلة، وأفضل وقت للمذاكرة كان إذا نام أبنائي حينها يعم الهدوء أرجاء المنزل، أستمر كذلك حتى ساعات الفجر، أسمع صوت وحركة العمال وهم يتوجهون إلى أعمالهم، كنت كلما شاهدتهم قلت لنفسي: «أدرس جيداً فإن لم تفعل فستصبح مثل هؤلاء العمال!» وأنا لا أريد أن أصبح مثلهم، ليس انتقاصاً منهم لكن الحصول على الشهادة سيجنبني الشقاء الذي يعانون منه، ثم إنني كنت أدرك الفرصة الكبيرة التي قدمتها لي الحكومة وكان عليّ أن

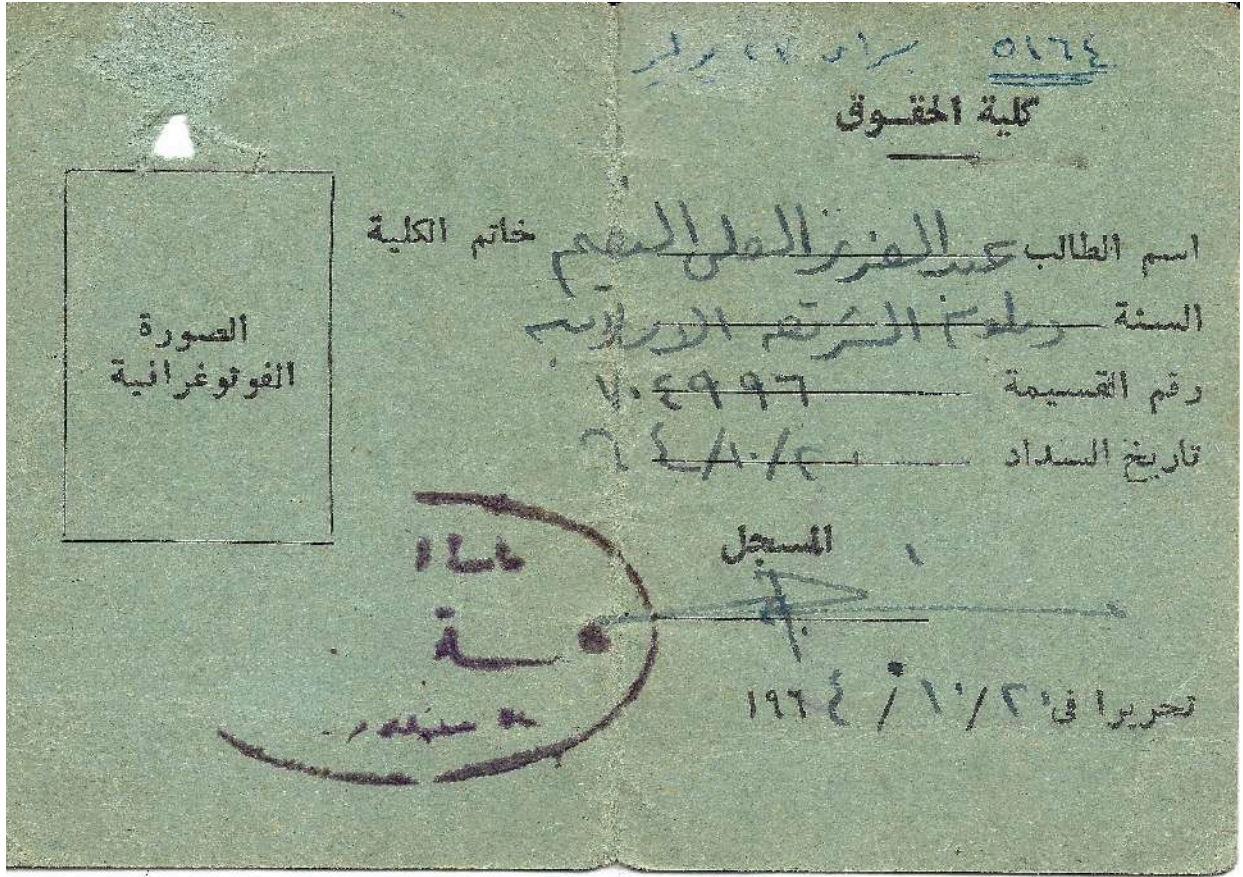
أستثمرها خير استثمار، هكذا قضيت ليالي طويلة في المذاكرة، كانت المقررات كتباً كبيرة لأن الأساتذة يستفيدون من طباعة كتبهم التي ألفوها ويتوجب دراستها، كانت مجموعة من الملازم وكل ملزمة ١٦ صفحة، نجمعها مع بعضها لتصبح كتاباً كبيراً، لكن الوقت لم يكن للدراسة فقط، لعائلتي أيضاً نصيب في ذلك، كنا نخرج ونستمتع في العديد من الأماكن الجميلة في القاهرة، لم ننس طعام الفول اللذيذ عند مطاعم الدمياطي والتابعي، سمعت أن الأمير سلطان بن عبد العزيز -رحمه الله- زار الدمياطي في إحدى زيارته للقاهرة وأعطى العاملين إكرامية أسعدتهم ودعوا له الله أن يوفقه على كرمه، وطالما أني تحدثت عن الطعام فلن أقول لكم بأن من أذ الأطفمة التي تناولتها في القاهرة كانت في مطعم ما، وكما سبق وذكرت لكم بأن المصريين شعب ودود وسرعان ما تشكل مع أحدهم علاقة أخوية، فقد تعرفت على شخص اسمه محمود يعمل في الصحة المدرسية وأصبح صديقاً عزيزاً، كان يربي الدببة الرومية في سطح بيته، يطبخ الديك على البخار بعد أن يقوم بتتبيلة وكان يدعونا إلى الغداء أو العشاء فنأكل عنده طعاماً شهياً وكان الذي أعدّه طبّاح محترف وعلى مستوى عال من المهارة، كان رجلاً كريماً ومحبوّباً من أبناء حارته، حتى إنه عندما يمشي في حارته لا يتردد بعض المدخنين من الفقراء بالإسراع نحوه وطلب السجائر ولم يكن يرد أحداً، لم تكن لديه سوى بنت واحدة اسمها مها، وفي إحدى المرات نظر محمود في عيني وقال: «خود بالك من مها يا أستاذ عبد العزيز»، بعدما غادرنا القاهرة وفي إحدى الزيارات ذهبت إلى منزل محمود للسلام والاطمئنان عليه، قيل لي بأنه توفي، سألت عن مها فقيل بأنها تقيم في مكان ما دون أن يحددوا العنوان، بحثت عنها حتى وجدتها وسعدت برؤيتها ومازلت وأسرتي على تواصل معها إلى غاية يومنا هذا.



أجلس يمين الصورة - التقطت عام ١٩٦٢م في ركن
حلوان



الأول وقوفاً على اليمين مع زملاء الدراسة في كلية
الحقوق العام ١٩٦٢م



بطاقة طالب في كلية الحقوق عام ١٩٦٤م



الصورة عام ١٩٦٦م في كازينو النهر في القاهرة، يظهر ابني عبد الرحمن يمين
الصورة وبجانبه ابني محمد ثم عبد الحميد أبا الخيل وأبني يوسف أول
الصف الثاني على اليمين ثم ابنتي هدى.

ولادة هدى.. البنت الوحيدة بعد أربعة أولاد

حينها كان في أسرتنا أربعة أولاد من الصبيان، وأعتقد بأن من يرزقه الله بالصبيان يتمنى أيضاً أن يرزقه الله بفتاة، والله إذا رزق العبد بابنة فإنه رزقه بنعمة كبيرة، كنا نأمل أنا وأم محمد أن يرزقنا الله ببنت، كانت هذه الأمنية معلنة بيني وبين زوجتي، ولأن الله هو الكريم فقد أعطانا الله هذه النعمة الكبيرة، حملت زوجتي ولم تكن نعلم بجنس المولود هل هي ذكر أم أنثى فلم تكن في ذلك الوقت الأجهزة الطبية التي تكشف عن جنس الجنين، لم تكن زوجتي ترغب أن يكشف عليها الأطباء الرجال، ذهبنا إلى الدكتورة سامية شكري، وبعد مرور عدة أشهر زارتنا الدكتورة سامية في منزلنا وقالت من الممكن أن تكون الولادة اليوم، اتصلوا بي في أي وقت وسأكون مستيقظة بانتظار اتصالكم، لم يكن لدينا هاتف في الشقة حينذاك، في الشقة المجاورة كان هناك طبيب وقور وكان مديراً لمستشفى إمبابة بالجيزة ولديه خادمة اسمها عطيات، قلت لها قد نحتاج الهاتف للاتصال بالطبيبة، بدأ المخاض وكان الوقت مساءً، خرجت من طلب الاتصال من شقة الدكتور، نزلت وذهبت عند بائع الحليب وكان صاحب بقالة مختصة ببيع الحليب، أبلغته بأنني سأحتاج الهاتف هذا المساء، قال لي بأنه سينام بجانب البقالة ويبقى المحل مفتوحاً طوال الليل حتى أستطيع الاتصال من هاتفه، بعد عدة ساعات اتصلت بالدكتورة سامية واتصلت أيضاً بأم عثمان القرعاوي زوجة ابن عم زوجتي حيث كانوا يقيموا هناك للعمل، بعد ساعات ولدت تلك الليلة من أخذت من قلبي نصيباً كبيراً، لم أكن أعلم بأن في قلبي كل هذه المساحة، ما إن ولدت هدى حتى اتسع هذا القلب حاضناً هذه البنت الجميلة التي أخذت تلك المكانة التي اتسعت مع مرور الوقت، الغريب أن ابني عبد الرحمن كان قد أرسل خطاباً لأسرتي في الرياض يبشرهم بأن أمه ولدت بنتاً، كانت رسالته تلك قبل أن تلد أمه وتعرف جنس المولود! عندما ولدت أم محمد جاءت إلينا ابنة الجيران وقالت عندما أبلغناهم بأننا سنحتاج للهاتف لم تنم تلك الليلة وبقيت منتظرة منا أن نطرق الباب، ثم قالت لزوجتي عليك أن تلدي بنتاً ثانية تكون رفيقة للمولودة، ثم قالت بأنها وحيدة بين أربعة أولاد ورغم كل محاولات الدلال التي قام بها والداها إلا أنها تشعر بالوحدة، هكذا كنت أسكن بين أناس طبيين، جيراننا وبائع الحليب الذي ترك بقالته مفتوحة من أجلي.

دعوت أصدقائي إلى وجبة غداء بمناسبة قدوم هدى، معظم المدعوين من زملائي السعوديين، وكان من ضمن المدعوين الدكتور عبد العزيز الخويطر -رحمة الله- وكان في زيارة للقاهرة من أجل اختيار بعض المعلمين لجامعة الرياض، في تلك الدعوة دخل ابني يوسف الى الصالون وسلم على جميع المدعوين وهو يمر بالسلام على كل شخص كان يقول: «جتنا بنت ... جتنا بنت»، هكذا أبلغ كل شخص بقدوم مولودتنا الجميلة، وقد ذكر الدكتور عبد العزيز الخويطر -رحمه الله- ذلك المشهد في مذكراته.

ما إن كبرت هدى قليلاً حتى أصبحت رفيقتي التي تشعرني بالسعادة كلما تجولت معها، في إحدى جولاتنا كنت وهدى نمشي في شارع قصر النيل شاهداً الفنانة زوزو نبيل، كان معها كلب صغير لكن هذا الكلب رغم صغره أخاف هدى فقلت لها لا تخافي هذا كلب الممثلة الكبيرة زوزو نبيل، التفت زوزو نحوي وقالت بوجه تملؤه الجديّة: «شكراً»، ثم التفتت إلى هدى وقالت بكل رقة: «متخفيش يا ماما»!

أصيبت هدى في طفولتها بالوباء الكبدي وتمت معالجتها ولشدة ارتباطي بها أصابتنى عدوى الميكروب منها، أذكر في إحدى المرات عندما ارتفعت حرارتها فأخذتها الى الطبيب الذي جهّز إبرة، ما إن رأيت الإبرة حتى بدأ الألم يعتصر قلبي للدرجة التي قلت فيها للطبيب: «هل من الممكن أن آخذ أنا الإبرة بدلاً منها؟» فأجابني: «مينفعش ... خلينا نشوف شغلنا!». وهدى في طفولتها كانت طفلة مرحة وذكية، حتى عندما دخلت مدرسة الأورمان كانت علامات المدرسة ممتازة.

عندما زار الملك فيصل -رحمه الله- القاهرة ذهبنا نحن الطلبة السعوديين لتوديعه في المطار، أصرت هدى على مرافقتني دون معرفة إلى أين كنت ذاهباً، ولأنني لم أكن أستطيع رفض طلب لها فقد أخذتها معي، ما إن وصلت إلى المطار حتى رفض الرجل العسكري دخول ابنتي معي إلى الصالة التي سنودع فيها الملك، فقلت له وأين تذهب؟ نظر إليّ ثم نظر إلى هدى وقال: «خش»، صافحت هدى الملك فيصل والرئيس المصري أنور السادات دون أن تعلم بأنها تصافح ملكاً ورئيس جمهورية، بعد أن خرجنا من صالة المطار قال لي أحد أصدقائي متهمكاً بعد أن شاهد هدى معي في صالة المطار وكان يعرف بأنها تصاحبني كثيراً للدرجة التي أحضرتها معي لتوديع الملك فيصل: «إنت مثل غاندي»، وكان غاندي يتنقل وبصحبه عنز صغيرة!

كانت محبتي لهدى تكبر ولا تصغر، وكلما مرت السنوات كبر هذا الحب، ومازلت أشعر بذلك الخوف عندما قطعت الشارع فجأة وركضت نحو الاتجاه

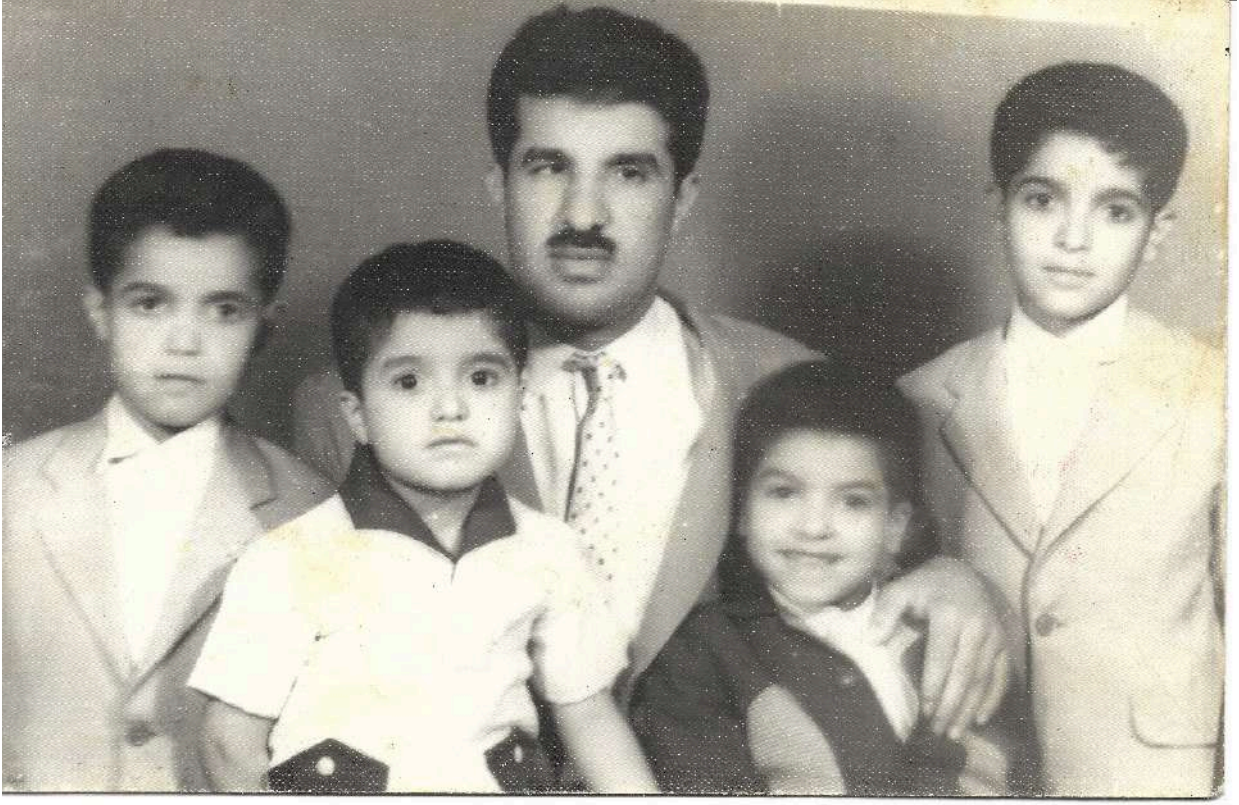
الآخر في الوقت الذي كانت هناك سيارة مسرعة تسير في الشارع، حينها شعرت بخوف لا يوصف، ومازلت أذكر وجهها حينها وكلماتها: «بيبه ما صار فيني شي!»

كان شعرها طويلاً، فكرت في أن تقصه، لم تكن نحيد فكرتها، ثم قررت أن تقصه أخيراً، امتثلنا أنا وأمها لقرارها، أخذتها وأمها إلى الصالون القريب من شقتنا، ما إن رأيت أنها فقدت الجزء الأكبر من شعرها ورأت التغيير الذي أحدثه على وجهها حتى فرت هاربة تركض في الشارع إلى بيتنا وأنا أركض خلفها من شارع إلى شارع، أمسكتها وقلت لها بأن شعرها سيكبر بسرعة لكنها كانت غير راضية عن النتيجة التي حصلت عليها بعد قص شعرها، لكنني كنت أراها جميلة سواء بشعر قصير أو طويل، هدي فتاة تحمل قلباً طيباً ومحبة منذ طفولتها إلى غاية يومنا هذا، في إحدى الأيام غضبت من إحدى معلماتها في مدرسة الأورمان، أحببت أن أجبر بخاطرها فقلت لها: «غداً سأذهب إلى المدرسة وأشتكي من المعلمة»، فقالت: «لا... لا أريد أن تتأذي معلمتي!» هل تعلمون بأن هدي رسامة وذات خيال واسع وحصلت على جائزة في الرسم وسلمها وزير الطيران الجائزة بنفسه؟ دعوني أفشي لكم سرّاً احتفظنا به داخل الأسرة طويلاً، في أوائل السبعينيات الميلادية أعلنت وزارة الطيران المصرية عن مسابقة لتصوير أشكال سكان الفضاء، قام ابني أحمد برسم مجموعة من الأشخاص واضعاً فوق رؤوسهم بعض الأسلاك وأرسل الرسمة باسم هدي على أنها هي من رسمتها، تم الإعلان عن فوز هدي بالجائزة! ذهبنا إلى وزارة الطيران والتقىنا بالوزير الذي امتدح هدي وخیالها الواسع وسلمها الجائزة دون أن يعلموا بأنها لم ترسم شيئاً، هل تظنون بأنهم سيسحبون الجائزة الآن بعد أن يقرؤوا هذا الاعتراف؟

حصلت هدي على بكالوريوس الاقتصاد، وعندما ذكرت لكم بأنها كانت متفوقة منذ صغرها لم أقل ذلك بعاطفة الأب، بل لأنها فعلاً كانت متفوقة، فقد حصلت على المركز الأول متفوقة على البنين والبنات في كلية الاقتصاد، وحصلت على جائزة من البنك الأمريكي، لم تعمل بشهادتها التي حصلت عليها، لكنها كانت وما زالت محبة للعمل الاجتماعي، وعملت في مركز الملك سلمان الاجتماعي كمديرة للقسم النسائي.



ابنتي هدى



صورتی مع أبنائي قبل ولادة هدی

تذكار عام ١٩٧١



وزارة التربية والتعليم
مديرية التربية والتعليم بالحيرة
مدرسة الأورمان النموذجية المشتركة

طالبات مدرسة الأورمان النموذجية عام ١٩٧١م ومن
ضمنهن ابنتي هدى



مع أبنائي وأحد أصدقاء ابني محمد في القاهرة

عنيزية على شاطئ الإسكندرية!

لم أكن أطيق فراق والدتي ولا حتى والدي، كنت أشتاق إليهما إذا ما طال البعد، لكن والدتي كانت على استعداد دائم للسفر إلى مصر عكس والدي الذي يرفض السفر إليها، جاءت والدتي لزيارتنا عدة مرات، خصوصاً بعد تحسن الأحوال المالية بعد زيادة راتبي من وزارة المعارف، كنا نستغل وجودها بالسفر معها للإسكندرية، نذهب للمعمورة ونستأجر شقة قريبة من الشاطئ، ننصب خيمتنا البحرية ونستمتع بالطقس والبحر ذي الشاطئ الترابي النظيف، في المرة الأولى التي اصطحبنا فيها والدتي إلى الشاطئ كان بجانبنا امرأة مع ابنتها، قامت الفتاة بلبس المايوه من قطعة واحدة واتجهت نحو المياه وراحت تسبح في البحر، استهجنت أمي رؤية الفتاة بتلك الملابس فذهبت إلى والدة الفتاة وقالت لها بلهجتها: «كيف تسمحين لابنتك بالنزول إلى البحر بمثل هذه الملابس؟» لم تفهم المرأة ما قالته والدتي، بعد دقائق قليلة قامت أم الفتاة بلبس المايوه ونزلت إلى البحر، ما إن شاهدت أمي ذلك حتى صارت في حيرة واستغربت، اندهشت مما شاهدته دهشة كبيرة وقالت للخادمة سعاد أن تأخذها إلى الشقة فوراً! كان الأمر اختلاف بيئات، والدتي كانت ترى ذلك أمراً مستهجنًا والمرأة والفتاة تريان ذلك أمراً عادياً، كل أخذ من تأثير بيئته وصاغ على منوالها أسلوب حياته.

كانت -رحمها الله- لا تحب السكن في الأدوار المرتفعة، في إحدى المرات كنا قد استأجرنا شقة في عمارة تقع في طريق الحرية في طابق مرتفع، كنا نأخذها إلى المصعد دون أن نخبرها عن الطابق الذي نقيم فيه، ما هي إلا لحظات وتجد نفسها في الشقة دون أن تعلم برقم الطابق، في تلك العمارة كثيراً ما شاهدنا الفنان عمر الحريري (86)، كان يقيم في العمارة نفسها، رحم الله والدتي، كنت كلما قمت بالسلام عليها متجهاً للقاهرة أو إلى أي بلد ما كانت تقرأ الآية ﴿إِن الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (87).

كانت الرحلات إلى الإسكندرية ممتعة، لكنني ما زلت أتذكر ذلك الصبي الذي تعرّض للضرب بسببي، عندما كنا عائدتين من الإسكندرية إلى القاهرة، أوقفنا السيارة لتبديل زيت محرك السيارة، قام الصبي بتغيير الزيت وانطلقنا دون أن ننتبه بأننا لم ندفع قيمة الزيت وأجرة العامل، بعد دقائق انتبهت لذلك فعدت إلى محطة تغيير الزيت، ما إن دخلت إلى المحطة حتى شاهدت أحد

المسؤولين بها يضرب الصبي ضرباً مبرحاً، نزلت من سيارتي بسرعة وتوجهت إلى المسؤول وطالبتَه بالتوقف عن ضربه لأن لا ذنب لهُ فأنا من استعجلت بالمغادرة دون انتباه لعدم دفع المبلغ، ثم أعطيتهم المبلغ وأعطيت الصبي مبلغاً تعويضاً عما جرى له جراء نسياني! هل تعتقدون بأن ذلك الصبي العامل قد يكون ما يزال يتذكر تلك الحادثة كما أتذكرها أنا الآن؟



الإسكندرية في الستينيات الميلادية، من اليمين عبد العزيز الذكير -رحمه الله- وعبد الله إبراهيم العماري -رحمه الله- وعبد العزيز النعيم وعبد الرحمن الصايغ.

الذيب في الجليب!

مرت العلاقات العربية العربية بالكثير من المطبات التي تركت آثارها على العلاقات الحكومية بين فترة وأخرى، وقد مزّت العلاقات المصرية بالعديد من التوترات مع الكثير من الدول العربية ومنها المملكة العربية السعودية، حرب اليمن عام ١٩٦٦م كما سماها المصريون والتي تدخلت فيها مصر وأرسلت قواتها بعشرات الآلاف من الضباط والجنود تركت آثارها السلبية في العلاقات بين البلدين، كانت إذاعة القاهرة توجّه ميكروفونها لمهاجمة المملكة وقياداتها، لم تكن نحن السعوديين سعداء بما كنا نسمعه من إذاعة صوت العرب، كنا نشعر بأن تلك الكلمات التي توجه لقيادتنا ورموزها إنما كانت توجه لنا نحن الطلبة السعوديين المقيمين في القاهرة، قد لا يعرف بعض العرب مدى هذا الرابط الذي يجمعنا بقيادتنا وبمحبتنا لها، وذلك الولاء الذي شكّل في أوقات كثيرة استغراب الكثير من اليساريين العرب والعديد من رافعي تلك الشعارات المطالبة بإحلال الاشتراكية أو كل المسميات التي وجدت لها بعض القبول في تلك الفترة، كان الاستماع لما يقال في صوت العرب مثير لحزننا نحن السعوديين كون ما كان يقال صادر عن شقيقة مثل مصر، لقد وصل الحال بصوت العرب بأن وصفنا بأعداء الله!

لكننا وفي كامل الحقيقية والوضوح لم نشعر نحن السعوديين بأي تغير بالتعامل معنا من قبل المصريين، ولم يتغير كل تلك الكلمات الإذاعية القاسية والمؤلمة من حسن أخلاقهم أو بأي اختلاف في التعامل، لم تمض تلك السنة حتى دخلت مصر وسوريا والأردن حرباً ضد إسرائيل في العام ١٩٦٧م (88)، أستطيع أن أقول إن معظم السعوديين والعرب المقيمين في مصر شعروا بأن تلك الحرب تقام ضد بلدهم وارتفعت المشاعر العروبية للدرجة القصوى، حتى إنني سمعت بأن بعض الطلبة السعوديين تطوعوا ضمن من تطوع للحاق بجبهة القتال، كانت الإذاعة المصرية تلهب المشاعر والحماس بأخبار الانتصارات في العديد من مناطق الجبهة المصرية وغير المصرية، وكان المذيع أحمد سعيد -رحمه الله- يذف لنا أخبار الانتصارات ومواقع الجيش المصري المتقدمة التي وصلت داخل الأراضي المحتلة وأعداد الطائرات الإسرائيلية التي أسقطتها الصواريخ المضادة والطائرات المصرية، هكذا عشنا نحن السعوديين أجواء النصر مع الشعب المصري، ونحن أيضاً شعرنا كما شعر المصريون والعرب بالطعم المر عندما تكشفت الحقيقة المؤلمة بهزيمة كبرى

حاول الإعلام تخفيفها بمسمى نكسة، كانت صدمة للجميع... وأصبحت كل كلمات أحمد سعيد (89) - رحمه الله - كلمات خيبة وإحباط عميق في نفوسنا، لقد وصل الحال بأحمد سعيد وهو يعلق على مجريات الحرب بأن قال عن إسرائيل: «لقد وقعت يا إسرائيل بين يدي كماشة!».

ما إن أشرقت شمس الحقيقة كاشفة عن هزيمة مؤلمة راح ضحيتها آلاف المصريين والعرب ودموع كل الآملين بالنصر حتى أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر عن تحمله للمسؤولية وتقديم استقالته، ومن شقتنا في الدقي استمعنا لأصوات المصريين الراضين لاستقالة عبد الناصر وهم يهتفون بشعارات رافضة لاستقالة رئيسهم، خرجوا إلى الشوارع فخرجنا معهم، خرجت وأبنائي نمشي في شوارع القاهرة متضامنين معهم وشاعرين بما حل بهم، وكون تلك الهزيمة لم تمس الدول العربية التي سميت بدول المواجهة، لأنها تشترك مع إسرائيل بحدودها، فقط، بل كانت تمس كل الدول العربية، كانت مشاعر المصريين ملتهبة وحماسية، لكن آثار تلك الهزيمة بقيت في قلوبهم مدة طويلة وأثرت على حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لسنوات طويلة.

كانت الخلافات بين حكومة جمال عبد الناصر وبعض الحكومات العربية تلقي بظلالها على بعض الطلبة العرب في القاهرة، ساءت العلاقة بين القاهرة وبغداد، وكان الصديق عبد العزيز أحمد الذكير في القاهرة وذا علاقات متعددة مع الطلبة العرب ومن بينهم الطلبة العراقيون، أثناء الخلاف بين الحكومة المصرية والعراقية أرادت المباحث المصرية أن تلقي القبض على بعض الطلبة العراقيين وبعض موظفي السفارة العراقية، لم تكن تستطيع أن تلقي القبض على بعضهم كونهم يلجؤون إلى سفارة بلدهم ويقيمون فيها، وكان بعض الطلبة العراقيين يترددون على عبد العزيز الذكير كصديق لهم، وكانت تلك فرصة للمباحث من أجل إلقاء القبض عليهم وهم خارج السفارة، هكذا أصبحت شقة عبد العزيز هدفاً للمباحث، جاءت المباحث المصرية إلى عبد العزيز وسألته عن الطلبة العراقيين، أجابهم بأنه لا يعرفهم، وصل الحال أن أصبح بعض رجال المباحث يمكنون عند عبد العزيز ساعات طويلة أملاً في وصول الطلبة العراقيين لكن أحداً لم يأت بعد أن علم عبد العزيز بمراقبة المباحث لشقته فقد أبلغ الطلبة العراقيين بطريقته الخاصة، حتى نحن عندما كنا نتصل به لزيارته كان يقول لنا عبر الهاتف بكلمات لا يفهمها رجال المباحث المتواجدين في شقته ولا حتى من يراقب هاتفه وكانت تلك الشيفرة: «الذيب في الجليب! أي إن المباحث معه في الشقة!».

(٤١)

وأخيراً... إنسان بلا عيّارة!

دعوني أعود بكم إلى سنوات ماضية، ففي العام ١٩٥٦م أوفدتنا وزارة المعارف إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، في دورة تعليمية أقامتها الجامعة، كانت أياماً ممتعة زرنا خلالها معظم المدن والقرى اللبنانية حتى تلك التي لم تشملها الخدمات المدنية، رأيت في تلك الزيارات إلى المدن والقرى جمال الطبيعة اللبنانية، وفي تلك الرحلات علمت لأول مرة أن البطاطا تُأكل بقشرتها وهي مشوية أو مطبوخة، لم أكن أعلم بذلك حتى رأيت اللبنانيين يشوونها ويطبخونها فتذوقتها وأعجبتني طعمها، أذكر أن الملحقة الثقافية السعودية وفرت لنا نحن الطلبة السعوديين الطعام الذي كنا نأكله في تلك الرحلات، لم نكتفِ بزيارة المناطق اللبنانية بل ذهبنا إلى دمشق ثم إلى فلسطين وزرنا المسجد الإبراهيمي (90)، ما أردت قوله عن هذه الزيارة بأنني زرت طبيب عيون لبناني في بيروت ليكشف على الحول الذي في عيني، هل نسيتم بأنني كنت مصاباً بالحول؟ كل ما ذكرته لكم في الكتاب وإلى غاية الآن كنت إنما أزويه عن عبد العزيز المصاب بالحول، عليكم أن تتذكروا ذلك وأن تتخيلوه كما شئتم، قال لي الطبيب إن إمكانية علاج الحول ممكنة وبالإمكان إعادة العين إلى وضعها الطبيعي، لكنني لم أبق في بيروت وعدت إلى الرياض دون معالجتها .

في يوم من تلك الأيام وفي أوائل السبعينيات الميلادية في القاهرة كان ابني أحمد حينها صبياً يلعب مع أصحابه، فاصطدم رأسه بأحدهم، كان شيئاً عادياً يحدث أثناء اللعب، ما إن حل المساء حتى جاءني أحمد قائلاً بأنه لا يستطيع الرؤية إلا من طرف عينه وأنه لا يرى ما أمامه ! صدمني ما قاله وشعرت بالخوف عليه، في صباح اليوم التالي أخذته إلى طبيب عيون اسمه حنظل، قال حنظل إن أحمد أصيب بانفصال بالشبكية وهو لا يزال طفلاً صغيراً يصعب علاجه، ألمني ما قاله حنظل لكنني لم آخذ بكلامه على أنه وصف نهائي، أخذت أحمد إلى طبيب آخر غفر الله له حياً أو ميتاً اسمه علي مرتضى، أول ما قاله عندما كشف على أحمد: «متخفش يا أحمد على إيد عمك على مشكلتك صغيره أد كده»، وأشار على جزء صغير من يده على أنه بحجم المشكلة الصغيرة، كانت وقع كلمات الدكتور على كالبسم الذي وضع على جرحي الذي كان يتشكل، وارتحت كثيراً بتلك الكلمات التي قالها ولو صفه لما أصاب أحمد بأنه مشكلة صغيرة أد كده!، أجري الدكتور علي

العملية لأحمد الذي بقي في المستشفى مدة شهرين تقريباً، غير بقاؤه في المستشفى من سير حياتنا المعتاد، وصرت وزوجتي أم محمد نتناوب على البقاء معه، كانت عينه مغطاة بالقماش القطني طوال تلك الفترة وتصب حركته على السرير، في إحدى المرات التي كنت موجوداً فيها بجانب أحمد، نظر الدكتور علي إليّ قائلاً بلهجتته: «إنت أحول وأقص إيدي إن مرجعتش عينك كويسه!» ماذا؟ عيني ترجع كويسه؟! وافقت فوراً فأمر الممرضة أن تقص رمش عيني المصابة بالحوّل، ثم أمرني بالتمدد على السرير وبدأ يضع يده على عيني، شعرت بالألم فقلت له يا دكتور أوجعت عيني! فقال بحزم: «أنا هنا مش عشان أطبب على كتوفك... أنا هنا عشان أعالجك.. خليك ساكت» قلت له حسناً ولم يكن لدي خيار آخر، في الحقيقة كنت لأتحمل أشد من ذلك الألم مقابل أن أتخلص من ذلك الحول، أجرى الدكتور علي العملية لعيني المصابة، وهكذا كنت وابني أحمد ننام في المستشفى نفسه وفي الوقت نفسه، بعد أيام أزال الدكتور القماش القطني الذي كان على عيني، ثم رأيت في المرأة عيني ولأول مرة في حياتي دون حول وسليمة وكان لا شيء قد أصابها طوال السنوات الماضية منذ أن وعيت على الدنيا ومنذ أن بدأ يطلق عليّ وأنا طفل صغير لقب (إحدهش) تهكماً على الحول في عيني.

دعوني أقول لكم بأنني كنت سعيداً عندما تخلصت من الحول، ورغم أنني كنت قد تعايشت في قرارة نفسي مع ذلك العيب إلا أنه كان يسبب لي بعض الحرج والإزعاج، لقد كان منظر الحول مزعجاً، حتى عندما كنت أرتدي أفضل ملابس وأخرج في شوارع القاهرة وبمجرد أن ينظر الناس إلى عيني كانت ردة فعلهم سلبية تجاهي بسبب مظهر عيني وحولها الشديد.

غاب أحمد عن المدرسة مدة تجاوزت الشهرين تقريباً، حتى إنه لم يستطع المشي بسبب مدة مكوثه فترة طويلة على السرير، بدأنا بمساعدته على المشي في الشقة، ثم تحسن وضعه، وعندما ذهبت به إلى المدرسة وشرحت لهم بأن عين أحمد لا تتحمل الإصابة وتفهموا ذلك، أخذ المعلم ابني أحمد إلى الفصل قائلاً للتلاميذ: «محدث يقرب لأحمد واهتموا بيه لسه عامل عملية».

هكذا كنت سعيداً بشفاء أحمد وبتخلصي مما قد لازمني دون الرغبة مني بملازمته، وداعاً أيها الحول وشكراً لك أيها الطبيب النبيل، كم أثرت إيجاباً في حياتي، وبالمناسبة فإن الدكتور علي مرتضى كان دكتوراً في الجامعة، قال لي بأنه يحب أن يساعد الطلبة الشرقيين وهو اللقب الذي كان يطلق علينا وعلى الطلبة غير المصريين، قال إنه يساعد الطلبة الشرقيين ويعطيهم بعض الدرجات، لكنه يمحنها للطلبة الجادين فقط، الذين يودون أن ينجحوا

ويعودوا لأوطانهم، لذلك كنت أساعدهم... وأتذكر أنه قال حينها: «لكني ما ساعدش الطلبة اللي جايين عشان النسوان!».

إذاً أعزائي القراء أرجو منكم الآن أن تتعاملوا معي دون أن يكون في مخيلتكم بأنني أعاني من الحول فأنا منذ تلك العملية أصبحت عيني سليمة، ولم يعد لكلمة (إحدغش) التي كانت تطلق عليّ من قبل الأطفال الآخرين وأنا طفل صغير أي مكان أو معنى، أما كلمة البرميل التي كانت هي الأخرى تطلق عليّ بسبب سمّنتي وأنا طفل فقد تخلصت من السمّنة منذ زمن، هكذا يا أعزائي... أنتم تقرّون كلمات رجل تخلص من كل الألقاب التي أطلقت عليه وأصبح إنساناً بلا ألقاب!



الصورة في أريحا التقطت في ١٨-١-١٩٥٦م



الصورة في السبع بحرات - دمشق ١٣٧٦ هجري - ١٩٥٦
ميلادي



رام الله فلسطين أثناء زيارتنا إلى القدس في
١٦-١-١٣٧٦ هجري - ١٩٥٦ ميلادي



أثناء تسلمي شهادة دورة الجامعة الامريكية
١٣٧٦هـ-١٩٥٦م



التطقت هذه الصورة في بحدون ١٩٥٦م



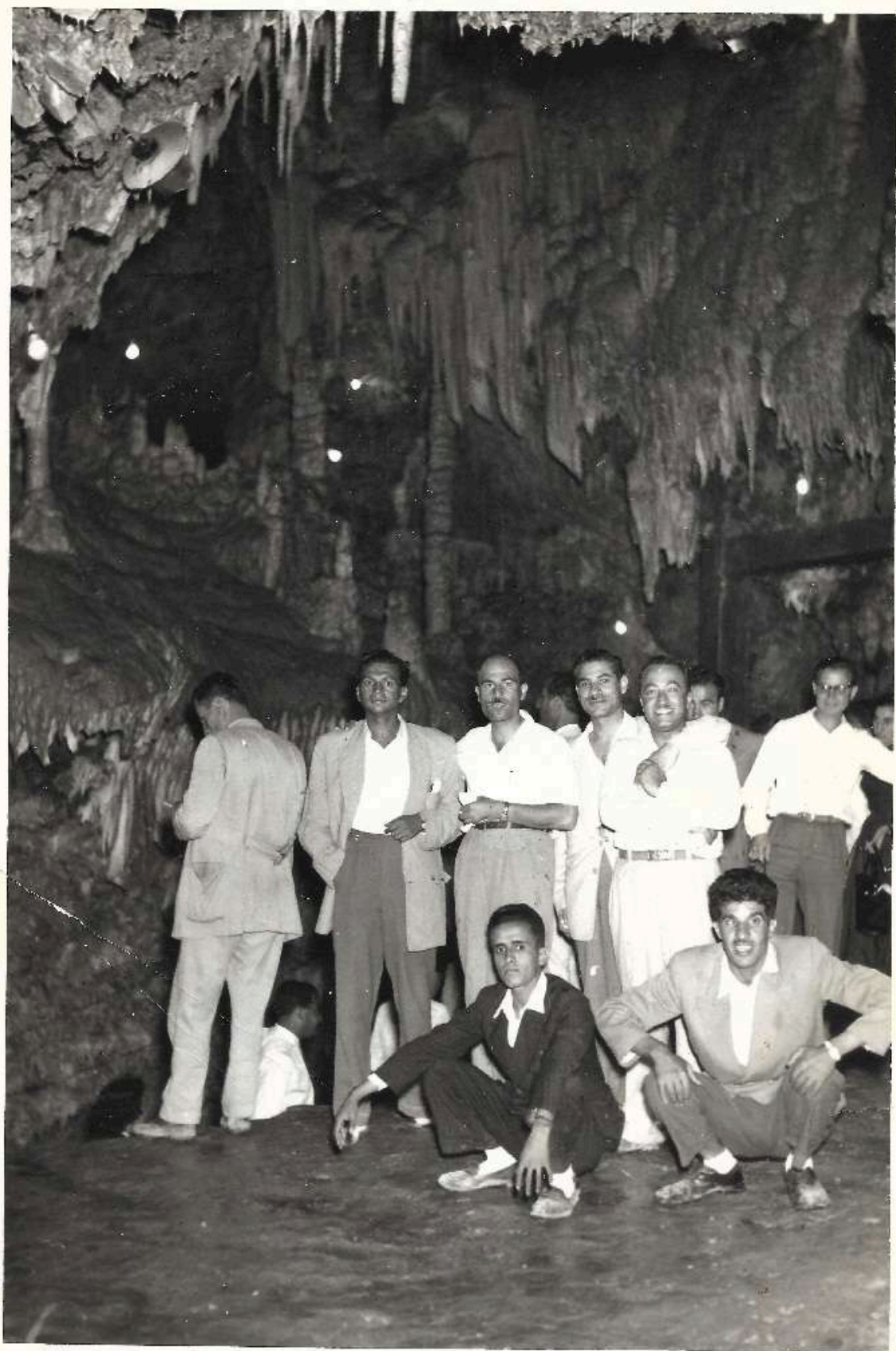
أمام قبة الصخرة الشريفة في القدس ١٣٧٦ هجري -
١٩٥٦ ميلادي



أمام بيت رئيس الجامعة الأمريكية في ٤-١-١٣٧٦ هجري الموافق ١٠-٨-١٩٥٦ م .



كنت قد كتبت على ظهر الصورة (أمام مخيم للاجئين الفلسطينيين ، ابعدهم
قوى الإستعمار اللعين) بالقرب من قرية عجلون ، لبنان ، ١٩٥٦.



في إحدى مغارات لبنان في الرحلة التي نظمتها الجامعة الأمريكية
٢٨-١٢-٣٧٥ هجري - ١٩٥٦ ميلادي

غازي القصيبي في القاهرة

تعرفت على العديد من الطلبة السعوديين والخليجيين والعرب، التقيت بغازي القصيبي (91) -رحمه الله- أكثر من مرة عندما كان هو أيضاً يدرس في القاهرة، كان منذ ذلك الوقت رجلاً منفتحاً وواسع الثقافة ومن عائلة عرفت بالثراء، كما التقيت أيضاً عدة مرات بعبد الله القصيمي (92) -رحمه الله-، وهو فيلسوف ومفكر سعودي طالما أثارت أفكاره العديد من الزوابع بسبب تقدمها ونقدها للعديد من الأفكار الخاطئة، لكن الناس عندما تجهل شيئاً تنكره، والقصيمي كان يدعو إلى العقل وترك الخرافات والتعامل مع الحياة بتطورها وما وصلت إليه من حقائق علمية، كنت وزملائي عندما نلتقيه في القاهرة ونستمع إلى آرائه نستمع إلى آراء وأفكار مثيرة للتفكير ويأخذنا إلى أبعاد فكرية واسعة، وكانت له آراء مثار استنكار من البعض مثل أن أمريكا هي من خلقت البترول، وكان القصيمي يعني بالخلق هو اكتشاف البترول لكن بغض الناس كانت تتعامل مع المفردة على أنه يقول بأن أمريكا هي خالقة للبترول والخلق يخلقه الله وحده، ألف القصيمي كتاباً أسماه «هذه هي الأغلال» واصفاً به بعض العادات والأفكار إذ كان يعتقد أنها أغلال يجب التخلص منها، كان مثقفاً كبيراً وذا رأي شجاع سواء تم الاتفاق أو الاختلاف مع آرائه، حتى تلك الآراء التي قارب فيها العديد من المعتقدات الدينية التي ألبت عليه التيار الديني، الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ردّ على كتاب القصيمي بكتاب أسماه «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما قاله القصيمي في أغلاله»، كما نشرت كتب أخرى ومقالات عديدة حاول كتابها من خلالها الرد على القصيمي وأفكاره، كان للقصيمي آراء عن الوضع العربي القائم آنذاك، وعن تلك الحالة التي يعيشها العرب وهي الفترة التي ألف بها كتابه الذي أصبح عنوانه مقولة شهيرة: «العرب ظاهرة صوتية!».

كفر البعض عبد الله القصيمي من دون وجه حق أو سلطة، والمتابع للقصيمي يجد أنه ألف كتابين عن العقيدة قبل أن يحصل عنده هذا التحول في التفكير والتوجه، لكنه ولا نقاش بأنه كان موحداً لكنه جاء بآراء تعتبر متقدمة في ذلك الزمن الذي كان مختلفاً، طالب القصيمي بتعليم البنات وفتح المدارس لهن وهذا مما كان يعارضه التيار الذي هاجم أفكاره، في الوقت الذي نجد فيه المرأة اليوم تتبوأ المراكز التي تستحقها في مفاصل الدولة التي أعطت المرأة حقوقها دون الالتفات لمن كان يعارض حتى حقوقهن بالتعلم، أراد القصيمي

-رحمه الله- أن يبعد الناس عن التعقيدات التي لم يكن لها أصل في الدين، عاش سنوات في القاهرة ورعته الحكومة السعودية ووفرت له القال الذي يكفيه.

كانت أيام القاهرة مليئة بالشخصيات الشابة التي أصبحت لامعة لاحقاً مثل القصيبي، وتبقى في الذاكرة أيضاً تلك القصص التي ارتبطت ببعض من التقيت بهم لتعيدني إلى عشرات السنين الماضية، كان أحد الطلبة السعوديين في القاهرة معجباً بفتاة سعودية من عنيزة تقيم مع عائلتها في القاهرة وكانت صديقة لعائلتنا، جاءني هذا الزميل يطلب مني أن أقوم بخطبتها له، زرته في شقته بعد أيام من طلبه، وما إن فتح الباب حتى ارتبك هو ومن كان معه في الشقة بسبب وجود العديد من زجاجات الجعة على الطاولة، حاولوا وضع الكؤوس بسرعة تحت الطاولة والكراسي، جلست معهم دون أن أنتقدهم على ما كانوا يفعلونه فأنا لست معنياً بتصرفاتهم تلك، كان أحدهم شاعراً فأمسك بالورقة والقلم ثم أنشد :

أتانا واحد لا يحتسيها

فخبأنا الكؤوس لشرب شاهي

وكنّا في طريق الفسق نمضي

فعرجنا على درب الإلهي .

لم يكتب للطالب أن يتزوج الفتاة ولم أكن سبباً في ذلك والزواج قسمة ونصيب، لا شك أن أيام الدراسة فتحت لبعض العلاقات العاطفية بين الطلبة والطالبات، وانتهى بعضها بالزواج، تجلس أحياناً مع أحدهم فتسمعه يقول بأنه تعرّف على زوجته على مقاعد الجامعة، كما أن بعض تلك العلاقات لم تكتب لها النهاية بالزواج وبقيت ذكرى في ذاكرة وقلوب أصحابها.



غازي عبد الرحمن القصيبي



عبدالله القصيمي

وداعاً لعهد الأوتوبيس!

عندما تحسنت الأحوال المالية بفعل زيادة راتبي الذي أتقاضاه من وزارة المعارف وما أتقاضاه كمبتعث قررت أن أفارق أوتوبيس رقم ٦ وكل الأوتوبيسات، اشتريت سيارة مرسيدس بيضاء قيمتها عشرة آلاف يلكي تم شحنها من ألمانيا، وبعد مدة أيضاً اشتريت سيارة بي أم دبليو قيمتها ١٤ ألف يلكي اختارها ابني عبد الرحمن، أصبحت القاهرة مدينة قريبة مني بعد أن تعرفت عليها جيداً وشكلت صداقات مع العديد من أهلها، كنا نكرز زياراتنا إلى الإسكندرية، لكن قبل ذلك بقيت في ذاكرتي تلك الذكرى التي تبدو بسيطة وصغيرة لكنها كانت درساً لي رغم بساطتها التي تبدو عليها، في إحدى المرات سافرنا بالطائرة إلى أسوان وبحيرة ناصر، استقبلنا رجل في المطار، أخذنا إلى أسوان وانتظرنا الرجل عدة ساعات، بعد أن انتهينا من الزيارة أعطيت الرجل، الذي وصف لنا المكان مدة ربع ساعة، جنياً واحداً، أما السائق الذي استقبلنا وأوصلنا بسيارته للمكان وانتظرنا عدة ساعات وعاد بنا إلى المطار فقد أعطيته نصف جنيه! بعد أن غادرت شعرت بظلمي لذلك السائق وعدم إنصافه، شعرت بسوء التدبير والبخل، أثر ذلك لاحقاً في تصرفاتي كلما وقعت مثل هذه المواقف وتعلمت أن لا أظلم أحداً بل أكرمه فوق أجره قدر ما استطعت، مازلت أتذكر السائق بوجهه الأسمر وشبيهه الذي خالط سواد شعره، أرجو أن يسامحني على فعلتي التي لم أكررها.

سهل وصول السيارات بعد سنوات من وجودنا في مصر من تحركنا وتنقلنا في القاهرة وخارج القاهرة، في إحدى المرات قاد ابني أحمد السيارة وكان هناك رجل يجر عربة مليئة بأجزاء من صحنون صينية مكسرة، ما إن اقترب أحمد منه حتى قلب العربة وادعى أن أحمد من قام بصدمة وقلب عرخته، كان أحمد محظوظاً لأن بعض الضباط رأوا الحادثة وتدخلوا في الحال وخرج أحمد دون أن يورطه صاحب العربة بشيء.

كانت علاقتي ومازالت مع أبنائي قائمة على التفاهم ومشاركتهم الرأي، أتذكر عندما زارني زميلي في الحقوق عبد الله العبد الوهاب العباسي، كنا نشرب القهوة في أبلگونه وشاهدني كيف أعامل أبنائي وكأنهم أخوة لي، فسألني هل كان والدك يعاملك بهذه الطريقة التي تعامل بها أبنائك؟ أجبتة بلا، لأنني عندما كنت طفلاً كان أبي كبيراً في السن والشيب ملاً لحيته، فكانت له هيبتة التي منعت مثل هذا التقارب الذي بيني وبين أبنائي، كون الفارق في السن

بيني وبينهم ليس كبيراً كما كان بيني وبين والدي، أنا من مؤيدي الزواج المبكر، حتى أبنائي تزوجوا مبكراً، والزواج المبكر عادة يجعل العلاقة بين الأب وأبنائه علاقة يميزها التقارب في الأفكار والتصرفات، كما أنه جيد لتشكيل العلاقة بين الرجل والمرأة حيث يستطيعان التفاهم بصورة أكبر، تزعجني اليوم نسب الطلاق المرتفعة واستسهال الطلاق، الزواج يحتاج إلى تفاهم ورحمة وصبر، أما الطلاق فهو آخر الحلول بل وبعد استفاد كل الحلول.

(٤٤)

الماجستير

عنا وصلت للسنة الرابعة في كلية الحقوق تجهزت للاختبارات، أدرس وأنا أعلم بأن هذه الأيام ستشكل مفترق طرق في حياتي، الأيام لا تشبه بعضها، لكنها كلها مهمة، قدمت الاختبارات وعشت أياماً شعرت فيها بالقلق بشأن النتيجة، والإنسان بطبيعته عندنا يقدم على اختبار ما، حتى لو كان قد حُصِر له بصورة جيدة، فإن الشعور بالقلق يبقى بداخله، وإن كان على مستويات متفاوتة، قدمت اختبار أصول الفقه، ثم المرافعات ثم القانون الدولي، وهكذا لبقية المواد، لم تكن نحتاج للذهاب إلى الجامعة لكي نحصل على النتائج، فهذه المهمة تكفل بها الفراشون فهم يحصلون على نتائج الاختبارات قبل الإعلان عنها من خلال سؤال الأساتذة الذين يمررون لهم النتيجة حتى يذهب الفراش ويبلغ الطالب ويحصل على البقشيش، كانت مساعدة من الأساتذة للفراشين، مازلت أتذكر الفراش العم حسين عندما جاءني للشقة وقال بكل حماس: «ألف ألف مبروك» أستاذ عبد العزيز أنت نجحت... ألف مبروك، اجتاحني شعور كبير بالفرح والنشوة، أفاد هذا الشعور العم حسين عندها أعطيته مبلغاً وأنا أشعر بالسعادة، العطاء أثناء الشعور بالسعادة يختلف عن العطاء عندما يكون المزاج سيئاً، وكان ذلك من حظ العم حسين، وهكذا... كنت في العام ١٩٦٤م تقريباً حاصلًا على بكالوريوس حقوق من جامعة القاهرة، احتفل أصدقائي من عائلة البراك، وكانوا يقيمون في القاهرة، بنجاحي، جاء عمر البراك - رحمه الله - بخروفين وضعهما داخل الفرز القريب من شقتنا وتمت دعوة باقي الأصدقاء، من بينهم مدير جامعة الرياض آنذاك الدكتور عبد العزيز الخويطر وكان موجوداً في القاهرة، والدكتور عبد الله العماري - رحمه الله - والدكتور محمد العماري وعبد الرحمن الزامل الذي نجح معي في السنة نفسها واستفاد من قسمة التركة، مازال صديقاً لي وقد بارك

الله له ولأسرته وأصبح من كبار رجال الأعمال على مستوى المملكة، لا شك أن درس قسمة التركة الذي درّسته إياه ساهم في نجاحه التجاري!!

عندما أنهيت البكالوريوس أرسل لي أخي عبد الله رسالة قال فيها إن هناك وظيفة في شركة الإسمنت راتبها يبلغ ٤٠٠٠ ريال، كان ذلك الراتب يعادل راتب وكيل وزارة تقريباً، طلب مني أن أفكر في الأمر لكنني قررت أن لا أقبل الوظيفة لشعوري بأن درجة البكالوريوس لم تكن كافية، الكثير من الناس سيحصلون عليها بمن فيهم النساء وستصبح المنافسة كبيرة على الوظائف للذين حصلوا على البكالوريوس، لذلك قررت الحصول على الماجستير وأبلغت أخي عبد الله بقراري بالمكوث في القاهرة، لم يمض على ذلك إلا سنة واحدة حتى حصل خلافاً بين الرياض والقاهرة، أمرت الحكومة السعودية بعودة جميع الطلبة السعوديين باستثناء الطلبة الذين تبقى على تخرجهم سنة واحدة وكان من حسن حظي أنني كنت من الطلبة الذين تبقت لهم سنة واحدة وهكذا أكملت الماجستير.

الماجستير كان مما يسمى بالدراسات العليا، وهو عبارة عن دبلومين وعلى الطالب الاختيار بين أن يدرس دبلوم القانون العام أو القانون الخاص بالإضافة إلى دبلوم آخر يختاره الطالب، اخترت دبلوم القانون العام ودبلوم الشريعة الإسلامية، كان عدد الذين سجلوا في دبلوم القانون العام في تلك السنة وصل إلى ألف طالب والسبب أن رسوم التسجيل كانت ثلاثة جنيهاً فقط، ولكن لم يتقدم في تلك السنة إلى الامتحانات سوى ٢٠ طالباً بعد أن لمسوا صعوبة المواد فانسحبوا منها، كان امتحان الدبلوم شفويًا وتحريريًا، كنا نخشى من الشفوي أكثر من التحريري لأن الطالب يدخل الامتحان مع زميل له أمام اللجنة المكونة من ثلاثة أساتذة، وأحياناً يدخل معك طالب يتفوق عليك بأجوبته وهذا لا يكون في مصلحتك وستبدو وكأنك الطالب الأضعف، ولأن ذلك يؤثر على رأي اللجنة وقد لا تنجح لأنهم سيقارنون بينك وبينه، وهذا ما حصل معي، كان الطالب الذي دخل معي الامتحان ذا قدرات ممتازة، لم يكن مستواي ضعيفاً... لا أبداً، بل كان الطالب الذي معي متفوقاً للدرجة التي أظهرت الفارق بيني وبينه، أرجو أن لا يغير ذلك من رأيكم بي، أرجو أن لا أدفع ثمن صراحتي، صدقوني كنت جيداً لكن ذلك الطالب كان ذا قدرات غير عادية كما ذكرت لكم، كانت اللجنة تعلم بأنني متزوج ولدي خمسة أولاد، كنت قلقاً من النتيجة، وقلت لعل اللجنة تقول بأنني طالب جيد وأجوبتي كانت جيدة مقارنة بزميلي الذي دخل الامتحان معي، فهو شاب من دون مسؤولية سوى الاهتمام بدراسته، أما أنا فقد كنت مسؤولاً عن دراستي وأسرتي معاً، هكذا كنت أفكر، ويبدو بأنني كنت قلقاً أكثر من اللازم، فلم تمر عدة أيام شابها القلق إلا وعم حسين يأتي إلى شقتي قائلاً بحماسته

الشديدة: «ألف مبروك يا أستاذ عبد العزيز... ألف ألف مبروك إنت نجحت...» فرحت بنجاحي ولم أنس أن أسعد العم حسين أيضاً، هكذا حصلت على دبلوم القانون العام ودبلوم الشريعة الإسلامية اللذين يعادلان شهادة الماجستير .

(٤٥)

العودة إلى الرياض

سنوات الدراسة في الجامعة ممتعة ومتعبة أيضاً، والتعب وبذل الجهد ضريبة لا بد أن يدفعها المرء للوصول إلى ما يسعى إليه، ليس في الدراسة فقط بل في أي شيء يسعى إلى تحقيقه، كنا نحضر المحاكم، ونرى المرافعات ومهارة المحامين وطرقهم في محاولاتهم لإضعاف حجج بعضهم البعض للتأثير على القضاة، زرنا السجون ورأينا العديد من القضايا والقصاص المحزنة، ما تزال صورة المرأة التي كانت محكومة بالإعدام في مخيلتي... صورة لم تمحها السنوات الطويلة، كانت معها طفلتها الصغيرة، وكانت طفلتها تنظر إلينا ببراءة وابتسامة على وجهها، بينما كنا نتحدث مع والدتها، فكرت بتلك اللحظة التي ستترك فيها الأم طفلتها وتتجه إلى حبل المشنقة دون أن تعلم الطفلة بأن أمها ذاهبة ولن تعود وأنها المرة الأخيرة التي ستشاهدها فيها، وفكرت بذلك الشعور حين تودع الأم صغيرتها للمرة الأخيرة، غادرنا السجن وبقيت صورة المرأة وطفلتها وبقي السؤال الذي طالما طرحته على نفسي واخترعت له العديد من الأجوبة: «ماذا حل بتلك الطفلة؟ وهل مارست طفولتها كما يجب، وهل حظيت بمستقبل جيد أم إن رياح الحياة عصفت بها كما فعلت بأمها؟».

بدأت الاستعدادات لمغادرة القاهرة والعودة إلى الرياض، سبع سنوات مختلفة عشتها وأسررتي في القاهرة التي لا تُمل ولا تهدأ ولا تنام، القاهرة التي كلما اعتقدت بأنك تعرقت عليها تكتشف بأنها أعمق كثيراً مما عرفته عنها، تلك السنوات عرفتنا على جزء من هذا العالم بعاداته وتقاليده، وأعطتنا نحن، كأسرة، المساحة لنكون قريبين من بعضنا البعض، حتى بالنسبة لي ولزوجتي كانت أيام القاهرة مليئة بالأوقات التي صنعت بيننا تلك الروابط التي عمقت الحب الذي كان قد بدأ ينشأ ويكبر مع الأيام ليصبح حبا بجذور عميقة لا تقتلعها الظروف والمواقف، كانت رحلة طويلة موفقة ولله الحمد، أعود وأنا حاصل على الماجستير كما حصل أبنائي على تعليم ممتاز، لم ينهوا المرحلة الثانوية، لكنهم سيفعلون ذلك وأكثر.

قررت أن أبقى الشقة وأن أتحمل إيجارها وأنا في الرياض، كانت رغبة أبنائي أن يلتحقوا بالجامعات المصرية، وكانت لدي أنا أيضاً رغبة بما هو أكثر من الماجستير، لكن الرغبات والأمانى لا تتحقق بسرعة ودون صبر، جمعنا أمتعتنا وقمنا بشحن سياراتنا، لا يشبه شحن الأمتعة اليوم، كانت مدته أطول بكثير، ثم قمنا بتوديع أصدقائنا والجيران وعم سيد بائع الدجاج والسبكي بائع اللحوم وبواب العمارة وأبنائه وسعاد الخادمة الأمانة والأستاذ محمود والد مها وكل اللذين بادلونا مشاعر الود والاحترام، لم ننس أن نأخذ معنا بعض صناديق المانجو كهدايا لأحبتنا، بالمناسبة يوجد في مصر عدة أنواع من المانجا لكن أشهرها أنذاك الفونس وهي طرية لا تحتل السفر، والتميمور التي نشترها قاسية ولا تأخذ سوى عدة أيام حتى تصبح طرية مليئة بالعصير اللذيذ .

(٤٦)

فراغ قاتل!

عدنا إلى الرياض، كان ذلك في العام ١٩٦٧م، وصلنا إلى فيلتنا الصغيرة، نحن سبعة أفراد بينما الفيلا مكونة من غرفتين صغيرتين، اعتاد أبنائي النوم على السرائر، ذهبت إلى محل مختص لبيع الأثاث كان يحمل اسم صاحبه ثم توسع إلى أن أصبح اليوم صاحب المعارض المعروفة (ساكو) وضعنا أربعة أسرة لأبنائي في الغرفة الصغيرة، كانت صغيرة لدرجة أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يخطوا خطوتين فيها وكان علي الدخول إلى الغرفة أن يقفز إلى سريره، وفي الغرفة الأخرى وضعنا سريرين أحدهما لصغيرتي هدى، كان ذلك تغييراً بالنسبة لأبنائي كونهم كانوا يعيشون في شقة كبيرة ذات غرف واسعة، أما الآن فهم يعيشون في مكان صغير، لكن ذلك لم يكن مهماً، من الجيد النظر دائماً إلى الجانب الإيجابي فشقة القاهرة كانت مستأجرة أما بيتنا الصغير فكان بيتنا الذي ندفع له قسطاً صغيراً كل عام ثم نتملكه وهذا ما حدث، أن يعيش الإنسان على مستوى إمكانياته فهو إنسان عاقل يتجنب كل الأخطار الاقتصادية التي تلحق به إن هو أراد أن يعيش فوق إمكانياته، تماماً كما يقول المثل الشعبي: «مد لحافك على قد رجلك».

كانت فيلتنا صغيرة، ما زلت مصرّاً على تسميتها بالفيلا، هكذا كان اسمها عندما اشتريتها، أرجو منكم الالتزام والقناعة بهذا المسمى فرغم حجمها الصغير إلا أنها كانت واسعة بالحب والطمأنينة، أما حجمها الصغير فهناك مثل شعبي آخر يقول: «الحذب يعرف ينام!» والحذب هنا هو الأحذب الذي له

ظهر مقوس وقيل هذا المثل علي أنه يستطيع النوم وهو جالس دون الحاجة للاستلقاء والتمدد، بعد مدة قمنا بتوسيع الفيلا عندما استطعنا بناء غرفة صغيرة وجعلنا قسماً من المطبخ كسفرة طعام أحضرنا لها طاولة ومجموعة من الكراسي، هكذا أصبحت فيلتنا الصغيرة أكبر مساحة وأصبحت زيارات والدي ووالدي أكثر راحة.

سجلت أبنائي في المدارس، لم يكن لدينا سيارة فلم تصل حينها سيارتنا من القاهرة، ساعدنا جارنا سليمان الفريح بتوصيل ابني محمد إلى مدرسته الثانوية كما ساهم ابن عمي عبد الله أيضاً في إيصال أبنائي إلى مدارسهم، إلى أن وصلت سيارتنا بعد عدة أسابيع.

دعوني أقول بأبني عندما كنت أستعد للعودة من القاهرة إلى الرياض كان لدي تصوراً معيناً عما أنا ذاهب إليه، فأنا كنت حاصلًا على الماجستير وكل الظن عندي أنني سأنهمك بالتدريس في جامعة الرياض.

أصبحت مدرساً مساعداً في كلية التجارة وهي الرتبة التي يشغلها الحاصل على الماجستير، وكانت الكلية تضم عدة أقسام منها قسم القانون الدولي والقانون التجاري وقسم الإدارة العامة وقسم إدارة الأعمال وقسم الأسلوب الكمي، أما أنا فكنت أعطي الدروس لمبادئ القانون (أصول الأحكام الشرعية ومبادئ القانون) ولي كتاب ألفته في ذلك حققت مبيعاته آلاف النسخ، أعود للتصوّر الذي كان في مخيلتي واعتقدت به بأبني سأكون منشغلاً بالتدريس ولن يكون لدي وقت سوى للعمل والعائلة، لكن ما حصل خالف ذلك التصور، كانت الدراسة ستة أيام في الأسبوع، أما أنا فكنت أعطي درساً واحداً يوم السبت مدته ساعة واحدة، وساعة أخرى يوم الأحد، أما باقي الأيام فلم أكن أفعل شيئاً في الجامعة!

هكذا عشت فيما يشبه الفراغ، مجرد عمل لمدة ساعتين في الأسبوع ثم فراغ طويل، والفراغ هو من أسوأ الأمور التي قد يضع فيها الإنسان نفسه، بل من أخطرها، تصوروا أنني بعد كل سنوات الدراسة وذلك الجهد الذي بذلته في الحصول على شهادة الماجستير أصبحت أتجول في الأسواق للاشياء ولمجرد قتل الوقت! حتى إنني في بعض الأيام كنت ألبس مشلحاً أثناء تجوالي في السوق، كان تصرفاً سيئاً وسوء تدبير، ذهبت إلى صديقي وزميلي مطلب النفيسة (93) وكان نائباً لرئيس معهد الإدارة وشكوت له ما أنا فيه، فقال هل تعلم بأن هذا الوقت الذي لا تعرف كيف تستغله هو نعمة كبيرة، قلت له كيف ذلك وأنا أعاني من كل هذا الفراغ؟ قال بأن لدي فرصة كبيرة الآن في استغلال هذا الوقت قي ما سينفعني طوال حياتي واقترح أن

أنضم إلى دورات اللغة الإنجليزية في المعهد وكان هناك العديد من المدرسين الأمريكيين والإنجليز، انضمت فوراً إلى تلك الدورات وانهمكت في دراسة اللغة الإنجليزية حتى أنهيت كل برامجهم التعليمية، كان المعلمون أجانِب لغتهم الأولى هي الإنجليزية ومازلت أذكر منهم مستر سنوبس ومستر إيلين، تصوروا كيف كنت أتجول في الأنحاء دون فعل شيء في الوقت الذي كانت هناك دورات للغة الإنجليزية يقدمها مدرسون مهرة! عندما أنهيت تلك الدورات كان مستوى لغتي الإنجليزية مختلف تماماً عن المستوى الذي كنت فيه قبل الانضمام إليها، لقد أجدت اللغة الإنجليزية منذ ذلك الوقت، واستفدت من هذه اللغة استفادة كبيرة في حياتي العملية والشخصية، كان ذلك الفراغ درساً مهماً في حياتي، يجب أن لا يكون عند المرء وقت يسمى بوقت فراغ وعليه أن يجد ما يشغل نفسه به ويستفيد منه استفادة سواء مالية أو تعليمية أو اجتماعية، لم أستغل وقتي في دراسة اللغة الإنجليزية فقط بل أشغلت نفسي أيضاً بالقراءة، كنت أقرأ في مكتبي في الجامعة كل كتاب تقع عليه يدي، وهكذا أصبحت قارئاً بمستوى جيد جداً، أما القراءة فهي عالم ساحر ممتع، فهي تسافر بك إلى كل البلدان دون تذاكر وجوازات سفر، وتأخذك إلى العصر الذي ترغب بزيارته فتنهل من تلك الحكمة وتتعرف على تفاصيل عوالم انقرضت، والقراءة هي من ترفع مستوى التفكير وتعطيك ما لا تستطيع أخذه من المدارس والجامعات، أما كتب السير الشخصية التي يكتبها أصحابها وقدموها إلينا بشكل كتاب ثمن نسخته يعادل ثمن وجبة غداء لكن قيمته الحقيقية تفوق ذلك بكثير بمئات المرات، يشتري الإنسان في حياته العديد من الحاجيات ويدفع أحياناً أثماناً مرتفعة مقابلها، لكنه عندما يشتري الكتاب فإنه يستثمر في تطوير نفسه ويدفع ماله في ما يستحق، لذلك ومع مرور الزمن أصبحت لدي مكتبة كبيرة ومئات من الأصدقاء، أما الأصدقاء فهم من ألف تلك الكتب، هل تصورتم ما كنت بصدده في تلك الأشهر التي أضعتها دون فعل شيء وبين ما صرت عليه، كانت مسألة إدارة وقت وحصد مكاسب، كانت نصيحة صديقي مطلب النفيسة نصيحة ثمينة، النصائح الثمينة يقدمها الأصدقاء المحبون والعارفون لذلك يجب أن يعرف الإنسان من هم أصدقاؤه وينتبه لذلك انتبهاً جيداً، فبعض الأصدقاء قد يجعلونك تتصرف بما يلحق بك الضرر سنوات طويلة وبعضهم من يكون عكس ذلك وعلى شاكلة صديقي مطلب النفيسة.

حتى أنتم يا أعزائي قد يشعر بعضكم بالفراغ الذي يحيله إلى شخص متذمر لا يرى في هذه الدنيا ما يثير اهتمامه ويدخل مرحلة الكسل التي تلحق به الخسارة تلو الأخرى منتظراً من يأتي إليه حتى يشغل له وقت فراغه، صدقت مقولة الوقت كالإمال، فالوقت هو ما تتعلم فيه شيئاً يحقق لك هذا

المال، أو تنجز به أمراً يطور من مستوى معيشتك كان عميد الكلية الدكتور أسامة عبدالرحمن رجل ذا فكر مستنير وقوي الشخصية وهو من سعى إلى تغيير اسم الكلية من كلية التجارة إلى كلية العلوم الإدارية كون هذا المسمى هو الاسم الأدق للأقسام التي كانت تدرس فيها.

من الطبيعي أن مستويات الطلبة مختلفة، كل له قدراته وميوله، والطالب إذا ما اجتهد فإنه يوقظ هذه القدرات ويعطيها المساحة الكافية حتى تظهر للعيان فتنفعه وتميزه، من ضمن سنوات التدريس في الجامعة كان لدي العديد من الطلبة الذين ظهر تميزهم وأظهرت قدراتهم على أنهم إذا ما استمروا بهذه الكفاءة وهذا الاجتهاد فإن مستقبلهم باهراً في انتظارهم، أقول إذا ما استمروا لأن بعض الطلبة وهم في أعمارهم تلك قد تأخذهم ظروف الحياة بعيداً عن مستوياتهم الحقيقية والأماكن المناسبة لهم، كما أن للشخصية دوراً مهماً في قيادة الإنسان نحو مستقبله، الشخصيات القوية غالباً ما تعطي قدرات أصحابها حقها الكافي في الظهور واللمعان في المحيط، أما بعض الشخصيات فقد تقود قدراتها إلى وجهة لا تنصفها ولا تضعها في المكان المناسب، ولا شك أن الظروف العائلية والاجتماعية أيضاً تلعب دوراً مهماً في مستقبل الإنسان سواء دوراً إيجابياً أو سلبياً. من ضمن الطلبة الذين درستهم في الجامعة جبارة بن عيد الصريصري (94)، كنت أدرسه مبادئ القانون، كان شاباً ذا جسد نحيل يضع (طاقية) على رأسه، وفي يوم من الأيام قرأت ما كتبه فشعرت بأن من كتب هذه الصفحات طالب ذو نبوغ، كانت كتابته مختلفة عن زملائه، كان يكتب بطريقة مختلفة وتفكير متقدم ومستوى يشير إلى أن أمامي حالة مختلفة، سعدت جداً بما اكتشفت وقلت له يا جبارة ستصبح معيداً عما قريب، وفعلاً أصبح معيداً ثم دكتوراً ثم عضواً في هيئة التدريس، لكنه أيضاً لم يخدم وطنه في سلك التعليم فقط، بل خدمه في عدة مناصب منها وكيلاً لوزارة المالية المساعد للتعاون الاقتصادي ثم نائباً لوزير المالية ثم أصبح وزيراً للنقل، أيضاً ممن درستهم في الجامعة وأظهروا جديتهم في الدراسة وظهرت قدراتهم المتميزة كان إبراهيم بن ناصر العساف (95)، الذي صار معيداً في جامعة الملك سعود ثم مدرساً ثم رئيس قسم العلوم الإدارية ثم تولى عدة مناصب حكومية مرموقة منها نائب محافظ مؤسسة النقد العربي السعودي، ثم وزيراً للمالية من العام 1996م إلى غاية العام 2016م ثم وزير الدولة وعضو مجلس الوزراء ثم وزيراً للخارجية.

لم أكن اجتماعياً بدرجة جيدة، لا أعلم إن كان هذا عيباً، لكنني من جانب آخر كنت أستفيد من وقتي، أستطيع وصف أخي عبد الله بالرجل الاجتماعي. كان لديه اجتماع للأصدقاء في منزله كل ثلاثاء وجمعة، أنا أيضاً لدي اجتماع

للأقارب والأصدقاء كل أحد وأربعاء وخصصت يوم الثلاثاء لأبنائي، لكنني لا أقارن بأخي عبد الله الذي أعطى من جهده ووقته الكثير لبناء تلك العلاقات الاجتماعية، لا يعني ذلك أنني كنت منعزلاً... أرجو أن لا يتشكل عندكم هذا الرأي... أنا بعيد عن الانعزال، لكنني أستطيع أن أصف نفسي بأنني رجل أعطى أسرته وعمله جل وقته.



الدكتور مطلب النفيسة

(٤٧)

منحة!

في أواخر الستينيات الميلادية كان زميلاي المدرسان في الجامعة الأستاذ ياسر السّمان والأستاذ يوسف نعمة الله، في إحدى لقاءاتنا قد سألتني: «هل سمعت بما تقدمه الدولة للخريجين الجامعيين الجدد؟» فقلت: «لا»، فأخبراني بأن الحكومة تعطي لكل خريج جامعي أرضاً كمنحة، سعدت بذلك فتحرّكت فوراً وتقدمت بطلب الحصول على الأرض، وفعلاً تم إعطائي ٢٥٠٠ متر وهي المساحة القصوى المسموح بها، كانت أرضاً كبيرة وكان موقعها في السليمانية بجانب مزرعة للشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ولا يفصلني عن مزرعته سوى مساحة شارع، حينها كانت السليمانية تضم العديد من المزارع ولم يكن في خيال أحد بأن تصبح على الشكل الذي صارت عليه اليوم، أخذت صك الأرض وذهبت إلى حمد الحنطي الذي كان مسؤولاً بقسم الأراضي في بلدية الرياض، قال لي ادفع رسوماً مئة يلك حتى أعمل لك

مراسيم الأرض، والمراسيم عبارة عن وضع علامات لمساحة وحدود الأرض، دفعت المئة يالٍ وتم وضع المراسيم وقال لي حمد الحنطي حينها: «انس الأرض»، أي اتركها ولا تفكر في بيعها، وكانت نصيحته ثمينة جداً لأنه كان يرى أن إبقاء الأرض وعدم التسرع في بيعها هو استثمار للمستقبل، لم أكن حينها ملماً بأسعار الأراضي، لكنني سألت طالباً كنت أدرسه في الكلية اسمه حمد الوئيس عن سعر المتر وأتذكر أنه قال: «٥ يالٍ»، يتضح لكم أعزائي إلى أي درجة كانت الدولة تهتم بالتعليم والمتعلمين، كانت تشجع وتساعد في هذا الشأن بصورة كبيرة للدرجة التي تقدم لك فيها التعليم المجاني وتبتعثك على حسابها إلى أي مكان للدراسة ولغاية الدراسات العليا ثم تعود بعد حصولك على الشهادة الجامعية لتمنحك أرضاً، بل وأكثر من ذلك.

ما الذي تظنونه أنني فعلته بهذه الأرض؟ هل تعتقدون بأنني بنيت بيتاً كبيراً، فيلاً بغرف كثيرة ولا يستطيع أحدكم رفض تسميتها بالفيلا هذه المرة، كما فعل، كما أعتقد، عندما لم يقتنع بأن فيلا الملز المكونة من غرفتين لا يصح أن نطلق عليها مسمى الفيلا؟ سأحكي لكم قريباً ما الذي فعلته بالأرض عندما زادت الحكومة من كرم عطاياها، ليس على الخريجين فقط بل على الجميع كعادتها.

كان التدريس في الجامعة متعة أجد فيها غايتي ومستودع رسالتي التي أستطيع تقديمها، أن تكون شخصاً ذو تأثير إيجابي على محيطك ومجتمعك فهذا خير ما تستطيع تقديمه لوطنك، وكل منا يستطيع أن يخدم وطنه بطريقة معينة، وخدمة الوطن إذا تمعن فيها الإنسان يجد أنه يخدم بها نفسه وأسرته أيضاً، فما تفعله من تأثير إيجابي يعود عليك بالنفع بصورة شخصية.

ها هي الرياض في أواخر الستينيات، تظهر وجهها الجميل، مدينة بدت عليها الحداثة في صباحها الجديد، المدارس في معظم مناطق المملكة، والطلبة يتخرجون من جامعاتهم في المملكة ومن خارجها، أما تلك الأمراض التي كانت تخطف الأطفال دون أن نعرف السبب فقد زالت منذ سنوات طويلة، فلم يبق مكان في ربوع مساحتها الشاسعة دون مستشفى وأقسام مختصة، امتدت الطرق لمئات الكيلومترات والدولة تعمل على شبكة الطرق دون توقف، في تلك الفترة أيضاً كانت بدايات العديد من رجال رجالات الأعمال في عالم التجارة، أما أنا فلم أدخل هذا العالم، لا أظن بأنني أمتلك موهبة وأساليب التجار في قراءة السوق واحتياجاته، كان عملي في التعليم هو شغفي الذي لم يخالطه أي شغف في مجال آخر، من الجيد أن يكتشف الإنسان ميوله ثم يركز على هذا الميول، حينها سيكتسب الخبرة ويصبح عارفاً ومختصاً، كما أنه سيعيش في متعة كونه يعمل فيما يحب، العمل فيما

تحب يجعلك تعيش ساعات سعيدة كل يوم، تنسى في خضمها مرور الوقت، كما أنك تشعر بسعادة كل صباح وأنت تتوجه لأداء عملك وهذا أمر مهم ويجعلك مستعداً لتجاوز أي تحديات تواجهك بكل ثقة.

(٤٨)

الدنيا، فركة كعب!

لا حدود للتعلم حتى لو كنت تدرّس الطلبة في الجامعة، ويبدو أن فكرة الحصول على شهادة الدكتوراه قد زرعت نفسها في عقلي منذ أن حصلت على الماجستير، بدأت تنمو أثناء عودتي إلى الرياض وتكبر يوماً بعد يوم، شيء آخر دفعها للظهور لتصبح حقيقية، كان ابني محمد يرغب في دراسة الطب في القاهرة فها هو حصل على الشهادة الثانوية من الرياض، قررت إكمال تعليمي والحصول على الدكتوراه، جهزت أوراقى وتقدمت بطلب دراسة الدكتوراه، قال لي المسؤولون سنبعثك إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكننى رفضت ذلك وطالبت بالابتعاث إلى القاهرة، أتذكر أن أحد المسؤولين قال لي مستغرباً: «هل هناك من يرفض الابتعاث إلى الولايات المتحدة الأمريكية ويختار القاهرة؟» كان يقول ذلك ليس انتقاصاً من جامعة القاهرة وهي جامعة عريقة ولكن الفارق كان واضحاً كون الجامعات الأمريكية كانت ومازالت متميزة، كما أن العيش في الولايات المتحدة أكثر راحة ورفاهية، في الحقيقة كنت أعلم بذلك لكننى رفضت الدراسة في أمريكا بسبب رغبة ابني محمد وحتى رغبة أبنائى الآخرين في الدراسة بالقاهرة، وحتى لا نتفرق كعائلة ونبقى معاً مجتمعين لذلك كان إصرارى على اختيار القاهرة لدراسة الدكتوراه، وهذا ما حصل، وبقي ابني عبد الرحمن في الرياض لأنه كان في السنة الثانوية الأخيرة، ومرة أخرى يكتب الله لنا العودة إلى أم الدنيا وإلى شقتنا في الدقي، وجيراننا الطيبين، وعم سيد بائع الدجاج، والسبكي بائع اللحوم، وإلى أيام الأستاذ محمود وديكته الرومية المطبوخة على البخار، إلى عم حسين فراش الجامعة... إلى فول التابعي اللذيذ... والمانجو... يجب أن لا أنسى ذكر المانجو فقد كانت ضيفاً دائماً على مائدتنا أثناء موسمها، هكذا ستعود أيضاً سعاد إلى العمل في شقتنا، كنا بطبيعة الحال ونحن في الرياض نشتاق أحياناً إلى تلك الأيام ونتذكر تلك الأجواء المختلفة، ونحن كأسرة لم تنقطع اتصالاتنا بأصدقائنا في القاهرة، كنا ونحن في الرياض نتصل بهم هاتفياً ونطمئن على أحوالهم، في الحقيقة كان قرار إبقاء الشقة ودفع إيجارها رغم عودتنا إلى الرياض قراراً سليماً، قد يوضح لكم قرار إبقائها أن فكرة العودة كانت قائمة سواء لرغبتى في إكمال

الدكتوراه أو من أجل دراسة ابنائي في جامعات القاهرة، هل تذكرون النصيحة التي قدمها لي أحد المعلمين عندما كنت أدرس في الثانوية: «الدنيا فركة كعب يا عبد العزيز!» كنت أتذكرها كلما بدأت مرحلة جديدة حتى لا أشعر بصعوبة المهمة وأني إن لم أفعلها فسيمضي الوقت دون تنفيذها، أما إذا بدأت واجتهدت فسأحصل على ما أسعى إليه قالدنيا (فركة كعب)، أقول ذلك لكم أنتم أعزائي، كما قال لي المعلم، ابدؤوا بتنفيذ مهماتكم ولا تؤجلوا خطوة البداية حتى لا يمضي الوقت وتتغير الظروف، بل حتى إن بعض الظروف وإن كانت صعبة لا تمنعكم من البداية إذا ما أردتم ذلك، فأنتم في الحقيقية من تختارون قراراتكم وأنتم على أية حال من تحددون طريقة تنفيذها، بالمناسبة... عندما سنعود إلى القاهرة سأدرس عدة سنوات أكثر من المدة المطلوبة للحصول على الدكتوراه، فعلت ذلك قاصداً أن تطول المدة.

(٤٩)

في القاهرة من جديد

لم أبق لسنوات طويلة في الرياض بعد عودتي من القاهرة، لم تتجاوز المدة سنتين، إذن عدت إليك يا أم الدنيا، كانت عودتي في العام ١٩٦٩م، عاد ابنائي يوسف وأحمد وهدى لأيام الأورمان، أما محمد فكان أول الملتحقين من ابنائي في كلية الطب، وعدت أنا إلى جامعتي، ورسالتي في الدكتوراه كانت بعنوان (نظام الضرائب في الإسلام)، بعد ذلك التحق عبد الرحمن الذي بقي في الرياض لإكمال السنة الأخيرة في الرياض أيضاً بكلية الطب، تلقينا خبر نجاحه في الثانوية العامة ونحن في المعمورة بالإسكندرية وذبحنا خروفاً بتلك المناسبة، جاءنا جيراننا من المصريين واحتفلوا معنا وأخذوا دم الخروف ووضعوه في حوض شجرة ياسمين، قالوا بأن دم الخروف مفيد للشجرة، لا أعلم عن مصداقية ذلك! التحق عبد الرحمن بكلية الطب والتحق بها أحمد أيضاً، الوحيد الذي اختار الهندسة هو ابني يوسف -رحمه الله-، لم نفرض أنا وزوجتي أي قرار لهم، هم من اختاروا هذه التخصصات، أما زوجتي فكعادتها بذلت جهداً كبيراً في تهيئة الأجواء المناسبة للمذاكرة، السندويشات والعصائر لم تكن تنقطع عنهم أثناء مذاكرتهم، وبقيت مستمرة في محاولاتها لضبط الأمور وإدارة المنزل، وبقيت تسأل أبناءها عند خروجهم من المنزل عن موعد عودتهم، كانوا يحاولون قدر استطاعتهم أن يلتزموا بمواعيد العودة حتى لا تغضب والدتهم، أما أنا فكنت أدرس ببطء، بل ببطء شديد حتى لا أحصل على الدكتوراه سريعاً، قد تستغربون ذلك، نعم قد أكون الطالب الوحيد الذي كان لا يريد الحصول على الدكتوراه في المدة الطبيعية،

في الحقيقة كنت أنتظر أبنائي حتى يتخرجوا من جامعاتهم ويحصلوا على شهاداتهم حتى إن بعض زملائي قالوا لي صراحة إنني أتلكأ في الحصول على الشهادة وكان ذلك صحيحاً، فحصلت علي الدكتوراه يوجب عليّ العودة إلى الرياض وأنا لا أريد العودة دون أن يقطع أبنائي شوطاً طويلاً في دراستهم علي الأقل، لذلك كنت أؤجل مناقشة الدكتوراه إلى أبعد مدى ممكن، ماذا كنت لأفعل؟ فأنا كما قلت لكم أردت أن أبقى مع زوجتي وأبنائي، كانت الدولة تدفع لي أثناء تحضيرى للدكتوراه واستمرت تدفع لي رغم تأخري في الحصول عليها، بل أكثر من ذلك، كان الأمير محمد العبد الله الفيصل مسؤولاً عن البعثات، التقيت به وأبلغته بأن أبنائي يدرسون في الجامعات وهناك العديد من الطلبة معهم أبنائهم كما هي حالتي، لم يصدق ذلك، فقد كنت وأبنائي ندرس في الجامعات المصرية في الوقت نفسه رغم فارق السن الذي بيننا، قام الأمير محمد بعد حديثي معه بضم أبناء المبتعثين إلى البعثات فحصل أبنائي علي منح دراسية، أصبحنا خمسة مبتعثين من أسرة واحدة، لاحظوا اهتمام الحكومة بالتعليم و بكرمها معنا، ارتفعت حالتنا المادية بذلك، لكننا لم نغير من عاداتنا وأسلوب حياتنا، كان الاهتمام بالدراسة والتركيز عليها هو الهاجس الأول والأخير، هذا ما فعله أبنائي، وأنا فعلت الشيء نفسه بالإضافة إلى محاولاتي الناجحة في التأخر بالحصول على الدكتوراه.

في العام ١٩٧٠م توفي الرئيس المصري جمال عبد الناصر، كانت وفاته مفاجئة للشعب المصري الذي لم يكن مطلعاً على حالته الصحية، توفي بعد انتهاء القمة العربية في ٢٨ سبتمبر مباشرة، خرج الملايين من الشعب المصري إلى الشوارع حزناً على رحيل رئيسهم الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة في مصر وفي العديد من الدول العربية، خرجت مع الجموع الحزينة مشاركاً حزن زملائي وأصدقائي المصريين، لكنني سمعت بعض التعليقات الغاضبة التي وجهت إليّ وإلى بعض الخليجيين من أفراد مصريين يتهمون الخليجيين والعرب بأنهم السبب في وفاة الرئيس المصري جراء المجهود الذي بذله في القمة العربية مما أدى إلى وفاته، عدت إلى البيت حتى لا أواجه من قد لن يكتفي بالكلام، بل حتى الكلام لم يكن من داعٍ لتحمله، فلا أنا ولا غيري تسبب بوفاته، كانت جنازته مليونية وعبر المصريون عن حبهم لرئيسهم بشكل عاطفي كبير، عاشت القاهرة في جنازة عبد الناصر يوماً لن ينساه كل من كان فيها ذلك اليوم.

ليس ذلك اليوم الذي لن ينساه المصريون والمقيمون في القاهرة فحسب، بل أيام حرب السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م (96)، عشنا أجواء الحرب في شقتنا وعمارتنا في شارع الدقي، كانت بجانبنا عمارة لوزارة الأوقاف قيل أن عليها مدفع مضاداً للطائرات لكننا لم نسمع أي أصوات إطلاق نار صادرة منها، كنا

نسمع أصوات انفجارات قادمة من الجيزة، بدأت المقاومة الشعبية المتشكلة من الشباب المتطوعين تطلب من الناس إطفاء الأنوار، كنا نستمع إلي نداءات الشباب نحو سكان الشقق: «إطفى النور يا وليه!» أم محمد حاولت أن تساهم بدورها فكانت تملأ الإبريق بالشاي ثم يذهب به محمد إليهم .

كانوا قد حفروا ما يسمى بالمتاريس في الشوارع تحسباً لأي قتال شوارع قد تحدثه المعركة لكن ذلك لم يحدث، أمرنا أيضاً أن نضع الورق على زجاج الشبايبك حتى لا يظهر النور، كانت أجواء هذه الحرب مختلفة عن حرب ٦٧، فالمبادرة هذه المرة كانت من الجيش المصري والجيش العربية التي اشتركت معه مثل القوات السورية على حدودها مع إسرائيل، وبعض القوات العربية التي التحقت بالحرب مثل الجيش العراقي على الجبهة السورية، كما أن بعض الدول أرسلت بعض قواتها ومن ضمنها المملكة العربية السعودية التي كان لها موقف مهم في هذه الحرب عندما أعلنت إيقاف تصدير النفط لكي تضغط على الولايات المتحدة التي قامت بعمل جسر جوي لمساعدة الجيش الإسرائيلي، أما الإذاعة المصرية هذه المرة وإن بالغت بنتائج الحرب وأخفت بعض الحقائق المهمة عن سير المعركة بعد عبور خط بارليف (97)، إلا أنها لم تكن تشبه إذاعة صوت العرب عام ١٩٦٧م، بعد نهاية الحرب التي مهدت لاتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل شعر المصريون باسترداد شيء من معنوياتهم، وحتى نحن العرب هناك شعرنا بمشاعر حماسية وبعض التعويض عن ما حصل العام ١٩٦٧م .

(٥٠)

الكسل الحلو!

كان جميع أبنائي في الجامعات باستثناء هدى التي كانت في المرحلة الثانوية، أما والدهم كما تعلمون فكان يحضر الدكتوراه بتلكؤ، شعرت أكثر من مرة بأنني على استعداد للتقدم برسالة الدكتوراه للجامعة، لكنني لم أستسلم لشعور الاستعداد ذاك فالوقت لم يكن قد حان بعد، كنا وأم محمد نحرض أن تسير الأمور ضمن المدة الزمنية اللازمة التي تضمن عودتنا جميعاً أو في وقت متقارب على أقل تقدير، لم ننقطع عن زيارة المعمورة في الإسكندرية وبعض المناطق الأخرى، سافرت وأم محمد إلى أسوان بالقطار، سكنا في الفندق وطلبنا (مسقعة)، لم يكن طعامها جديداً فقد تعرفت عليها في عنيزة عندما كنا نكرم معلمينا المصريين بالتمور واللبن بينما كانوا يهدوننا ويعلموننا كيف تجهز المسقعة، أتذكر تلك الساعات التي كنا فيها في الفندق وتلك

الدقائق التي تناولها فيها المسقعة، أكثر من ٤٥ عاماً مضت وكأنها بالأمس، لست نادماً على إطالة مدة الحصول على الدكتوراه التي تعدت الخمس سنوات، فأنا قضيتها مع أبنائي وفي الاهتمام بشؤونهم، صدقوني إن قضاء أكثر الأوقات مع العائلة له سعادة لا تشبهها أي سعادة أخرى، لم تنقطع والدتي عن زيارتنا، وبقي والدي رافضاً فكرة السفر، فحتى عندما كان يزورنا والدي وثحن في الرياض كان شديد الشوق إلى عنيزة.

المصريون شعب فيهم نخوة عالية، وهم يساعدون الغرباء مثلما يساعدون بعضهم البعض، والمصري إذا سألته عن شارع أو موقع بناية فقلة من يجيبك بأنه لا يعلم حتى إن كان لا يعرف المكان تماماً، يصف لك قدر استطاعته من باب المساعدة وحب تقديم الخدمة لك، لكن ذلك لا يعني في أحوال كثيرة بأنه يوجهك نحو المكان الصحيح، حصل ذلك معي عدة مرات خصوصاً في السنوات الأولى قبل أن أعرف القاهرة كما يعرفها أهلها. فأنا عندما عدت إليها في المرة الثانية لتحضير الدكتوراه كانت الأمور مختلفة بالنسبة لي، كانت القاهرة المعز قد باحت لي بالكثير من عناوينها ومواقعها، وعندما عدنا إليها جرت الأمور كما لو أننا لم نغادرها.

مرت السنوات مثل (فرقة كعب) وكان أبنائي يجتازون السنوات الجامعية بنجاح، كانوا متفوقين ولم نقلق من أن يتعثروا في سنة دراسية واحدة، كانت لديهم رغبة في الوصول إلي طموحهم بالإضافة إلى حزم والدتهم في البيت ومتابعتها تحصيلهم، أنا أيضاً كنت كما أم محمد، لكنها كما قلت لكم أكثر حزمًا ولم أمانع ذلك، لقد ضببت شؤون التعليم والبيت معاً بطريقة مثالية ورائعة.

في العام ١٩٧٥م أطلقت المملكة هدية ثمينة لمواطنيها بعنوان الصندوق العقاري، وكان هذا الصندوق من ضمن ثلاثة صناديق، وهي الصندوق الزراعي والصندوق الصناعي بالإضافة للصندوق العقاري، وكان الصندوق العقاري يقرض مبلغاً من المال لا يقل عن ٣٠٠ ألف ريال سعودي لكل مواطن تسدد على ٢٥ عاماً، هذا ما جعل الكثير من الناس تبني بيوتها الجميلة، وهذا ما وسع المدن، أما أنا فقد استفدت كما استفاد مئات الآلاف من الناس من الصندوق العقاري، لقد كان نقطة تحول في حياتي، كان الصندوق العقاري يعطي ما يسمى بالقرض المشترك، كنت في القاهرة حينها، ما إن أعلن عن الصندوق العقاري حتى ذهبت إلى السفارة السعودية في القاهرة وقمت بإجراء وكالة لأخي عبد الله وقدمت على قرض مشترك يضمني أنا وزوجتي وأبنائي الأربعة فحصلت على قرض مجموعه الكلي (١٨٠٠٠٠٠٠ مليون وثمانمائة ألف ريال)، وكما تعلمون فقد كان لدي أرض، تلك الأرض التي قال لي حمد الحنطي

أن أنساها ولا أفكر في بيعها وكانت نصيحتته لا تقدر بثمن. كانت ميزانية الصندوق ٢٥ مليار ليل، تخيلوا الأعداد الكبيرة من المواطنين التي استفادت من الصندوق العقاري؟ لذلك تجد اليوم آلاف البيوت والعمارات في المدن يعود تمويلها للصندوق نفسه، ولأنني كنت في القاهرة ذهبت إلى مكتب هندسي رسم لي مخططاً احتفظت به إلى حين عودتي إلى الرياض، كما أتذكر أن المهندس قال لي بأنه يحتاج أن يتعرف على طبيعة الأرض لكي يرسم لي مخطط البناء، لذلك أحضرت له حجراً منها، كانت فكرة ما سأفعله جاهزة لتنفيذها، ما هي الفكرة؟ هل تعتقدون بأنني كنت سأبني بيتاً كبيراً وواسعاً خلافاً لفيلالملز؟ لا.. لم أفعل ذلك!

(٥١)

دكتور عبد العزيز!

مهما ابتعد الإنسان عن وطنه لأي سبب كان، سواء الدراسة أو العمل فإنه يفكر دائماً بالعودة إليه، أما أنا فقد ازدادت عندي هذه الرغبة بعد كل هذه المدة الطويلة التي إذا ما حسبتها مجتمعة تجاوزت ١٢ عاماً قضيتها في القاهرة، لا شك بأنني أحببت القاهرة وأناسها الطيبين، لكنني كنت أشتاق إلى عنيزة والرياض والجامعة، وفي الفترة الأخيرة من وجودي في القاهرة ومع اقتراب مرور أكثر من خمس سنوات على تحضيرتي للدكتوراه كانت الرغبة بالعودة والاستقرار في الرياض تزداد، عملت على رسالة الدكتوراه طوال السنوات الماضية، وجاء موعد ما كنت أتباطأ في إنجازه، كان أستاذي الذي يتابع ويشرف على رسالتي للدكتوراه هو محمد سلام مدكور، تفاجأت بأنه تعاقد مع جامعة الكويت وينوي السفر قريباً والاستقرار في الكويت، شكل ذلك صدمة لي وشعوراً بالألم كون هذا الأمر يعني بأنني يجب أن أبحث عن أستاذ آخر وإعادة العديد من الأبحاث التي عملت عليها في الفترة الماضية، لكن الله وفقني عندما ذهبت إلى رجل نبيل ما زلت أدعوه في صلواتي اسمه الشيخ محمد البرديسي، كان دكتوراً في جامعة عين شمس، والشيخ البرديسي كان يدرس أصول الفقه وهي مادة تعلمك كيف تستخرج الأحكام من النصوص الشرعية والقانونية، كان البرديسي رجلاً كبيراً في السن ومصاباً بأزمة قلبية، شرحت له ما حصل وعن سفر الأستاذ محمد سلام مدكور، قال بأنه رجل مشغول وكبير في السن لكنه أمرني بالتسجيل للدكتوراه عن طريق الأستاذ حسين حامد حسان، ثم قال لن أقول ضع خطة بل سأوجهك لما ستفعله، ثم ذكر لي الكتب التي يجب الحصول عليها وأقوم بأبحاثي من خلالها، أحضرتها وأصبحت أعمل من خلال هذه الكتب ثم يقوم هو

بالتصحيح لي، كانت رسالة الدكتوراه كما ذكرت لكم بعنوان (نظام الضرائب في الإسلام)، أحضرت كاتب آلة وبدأ بالطباعة، كتبت أكثر من ٦٠٠ صفحة وأعدت كتابتها عدة مرات بخط يدي، وكان النظام في الكلية يشترط توفير ١٠٠ نسخة مطبوعة قبل مناقشة الدكتوراه، بعد أن انتهيت من الكتابة ذهبت الى مكتبة السعادة في العتبة، أعطيتهم المسودات وكانت الطباعة القديمة تتم بطريقة صف الحروف يدوياً، قال لي صاحب المكتبة قبل انتهائهم من طباعة النسخ نريدك أن تقدم وجبة عشاء للعاملين وكان عددهم يتجاوز ٢٠ عاملاً، ذهبت الى الجزار السبكي ووجدت ابنه وطلبت منه ٢٥ قطعة لحم متشابهة، أحضرت من الخباز أرغفة الخبز، كان سعر الرغيف حينها قرشاً واحداً، قامت أم محمد بإعداد اللحوم وصنعت مع أرغفة الخبز سندويشات وأحضرتها للعاملين في المكتبة، جاء موعد مناقشة الدكتوراه، الموعد الذي طالما تعمدت أن يتأخر حتى أكسب أكثر وقت بالبقاء مع أبنائي في القاهرة، في ذلك اليوم الصيفي الموافق ١٧/١٩٧٤ كانت اللجنة مكوّنة من حسين حامد حسان والشيخ محمد البرديسي والشيخ البري، حضر أبنائي المناقشة والتقطت معهم صوراً أثناء الاستراحة، بعد الانتهاء من المناقشة تم إعطائي ورقة صغيرة عبارة عن شهادة كتب عليها أن عبد العزيز العلي النعيم حصل على شهادة الدكتوراه بتقدير جيد جداً وكانت هذه الدرجة هي أعلى تقدير تعطيه الكلية آنذاك .

ما زلت ممتناً الى يومنا هذا للشيخ البرديسي الذي وقف معي موقفاً لن أنساه عندما رسم لي الطريق بعد أن قرر الأستاذ محمد سلام مذكور السفر إلى الكويت، رحم الله الشيخ البرديسي وأسكنه فسيح جناته، بقيت أدعو له الى يومنا هذا، كما أنني وبعد حصولي على الدكتوراه بمدة قمت بأداء حجة عنه وأسأل الله أن يتقبلها ويضعها في ميزان حسناته.

إنن نجحت وأصبحت دكتوراً، قمت بطباعة رسالة الدكتوراه (نظام الضرائب في الإسلام) (في كتاب، هل تريدون معرفة ما إذا بيعت نسخ كثيرة من الكتاب؟ نعم بيعت آلاف النسخ، وكان من يشتريه هم طلبة الجامعات في المملكة وخارجها، قد تسألون وهل حقق لك بيع الكتاب دخلاً مالياً؟ الإجابة نعم، لكني لا أتذكر كم كان الدخل المالي تحديداً من الكتاب، عندما أعلن الأساتذة حصولي على الدكتوراه لم يبلغني بهذا الخبر العم حسين كعادته لأنني تلقيت النتيجة وأنا في الجامعة، بل سبقني العم حسين هذه المرة إلى بواب العمارة التي أقيم فيها وتوجه اليه قائلاً : هناك من يريد أن يهديك عشرة جنيهات إذا استطعت أن تجهز لنا عقد الشقة التي يقيم بها الأستاذ عبد العزيز لأنه نجح في الدكتوراه وسيسافر قريباً، لم يكن يعلم بأن أبنائي يدرسون في القاهرة وهم لم يكملوا بعد دراستهم الجامعية، لم يحرم تصرف

العم حسين من إعطائي هدية له لحصولي على الدكتوراه، كان يريد أن يؤجر الشقة لأحد الأساتذة المصريين في الجامعة، وكنت أستطيع البقاء في الشقة بإيجارها القليل بعد أن تخرج جميع أبنائي لكنني أعدتها لأصحابها وقد شكروني على فعلي كثيراً .

حينها كان أبنائي الأربعة محمد وعبد الرحمن ويوسف وأحمد في جامعاتهم، أما هدى فكانت في مدرسة الأورمان، مازلت أتذكر كيف ساهم أحمد المانع الملحق الثقافي السعودي في القاهرة في إلحاق ٣٢٠ طالباً سعودياً في كلية الطب وكان ابني أحمد أحد هؤلاء الطلبة، كان نشيطاً وذا علاقات ممتازة مع الجامعات وتحديداً جامعة القاهرة، عندما شرح لمسؤوليها حاجة المملكة للأطباء من أبنائها خصوصاً وأنها تستقبل الحجاج والمعتمرين الذين يحتاجون إلى رعاية طبية طوال العام.


تخرج محمد من كلية الطب كأول خريج من أبنائي ثم لحقه عبد الرحمن من كلية الطب أيضاً، ثم يوسف الذي اختار الهندسة، ورغم أن تلك الشقة التي سكنا بها لم تكن ملكاً لنا إلا أن لها مكانة عندي وعند أبنائي، فبالإضافة إلى أنها كانت واسعة ومريحة فقد قضينا فيها الكثير من الأوقات السعيدة، وهي ترتبط في ذاكرتنا بصورة إيجابية جداً، هي جزء من ذكرياتنا الجميلة والهائلة، وحتى بعد مضي السنوات والعودة إلى الرياض وفي أولى زياراتي للقاهرة ذهبت إلى شارع الدقي ونظرت إليها من بعيد وتذكرت تلك السنوات التي قضيناها فيها، كنت أنظر إليها من الخارج لكنني كنت أحفظ ما بداخلها، موقع الصالون وأماكن الغرف، المطبخ ومكتبي الذي قضيت فيه الساعات والليالي الطوال وأنا أذاكر دروسي، الإنسان يرتبط بالمكان الذي قضى فيه أوقاتاً سعيدة، ولهذا بقي هذا الارتباط بهذه الشقة التي كانت وستبقى دائماً في مخيلتي أنها جميلة. كان أحمد آخر من تخرج من أبنائي الذين التحقوا بجامعة القاهرة، لكنه لم يبق وحيداً في القاهرة عندما عادت زوجتي وأبنائي محمد وعبد الرحمن ويوسف وهدى إلى الرياض، بل بقي أحمد وبجانبه سعاد التي رعته رعاية الأخت لشقيقها واهتمت به اهتماماً كبيراً وحرصت على راحتته، وقد يفسر لكم ذلك حرصي الدائم في البحث عنها وقد يكتب لي الله اليوم الذي أجدها فيه .

جاء موعد عودتي إلى الرياض، حينها كان أبنائي في سنوات الجامعة كما ذكرت لكم، وعندما حُزمت حقائبي بكت أم محمد بكاءً مرأً، بكاءً مازلت أسمع صوت صدها، ودموعاً أراها كما أرى الأوراق التي أمامي الآن، قلت لها بأن أبناءها رجال كبار، وبأنني لن أنقطع عن زيارتهم، قلت لها كل الكلمات التي حاولت من خلالها أن أخفف عليها من وطأة الفراق، وغادرت إلى الرياض


عائداً إلى الجامعة، عليكم يا أعزائي القراء إذا ما سمحتم أن تخاطبوني
بالدكتور عبد العزيز!

رقم جواز السفر ٨٩/١٥٨
تاريخه ٢١٩٧٠/٧/١٩
رقم البطاقة
تاريخها
الجنسية عربي سعودي
عنوان السكن ١٢ سور المدعي
عنوان العمل ٢ سور المدعي
محرر رأي ٤/٤/١٥١٣٩٠/٧/١٩٧٠ م
وزارة الثقافة
بالتفافية

الرقم ٢٦٠/١٢٤



الاسم عبد العزيز علي النعيم
الوظيفة طالب بقسم الدكتوراه



بطاقة شخصية يصدرها مكتب المستشار الثقافي
السعودي

عبد العزيز بن علي النعيمي

نظام الضريبة في الاسلام
ومدى تطبيقه في المملكة العربية السعودية
مع التشارة

رسالتي في الدكتوراه، نشرتها في كتاب طبعت منه
آلاف النسخ



يوم مناقشة رسالة الدكتوراه في عام ١٩٧٤م، في
الصورة مع أبنائي محمد وعبد الرحمن ويوسف
وأحمد.



أثناء حضور لجنة المناقشة لرسالة الدكتوراه برئاسة الشيخ محمد البرديسي
يمين الصورة وعضوية الدكتور محمد البري وسط الصورة والدكتور حسين
حامد حسان.

(٥٢)

من فيلا بغرفتين إلى عمارة!

عدت إلى الرياض وإلى التدريس في الجامعة حيث العمل الذي أهواه وأجد
متعتي فيه، والتدريس هو الوقت الذي أنسى فيه عدّ الدقائق والساعات،
تتملكني السعادة وأنا أشعر بأني أعطي الشيء النافع للطلبة، وأن ما أقوم به
من جهد يعود بالنفع على الطلبة وعلى مستقبلهم، لذلك لم أر التدريس
وظيفة، ورغم أنه مصدر رزقي إلا أنني كنت أراه رسالتي في الحياة ومدى
التغيير نحو الأفضل الذي أستطيع أن أقدمه في رحلتي المهنية، والصدق في
العمل دائماً يأتي بالتوفيق لصاحبه، استمرت سنوات التدريس لسنوات

طويلة تملؤها المتعة التي لم يتغير طعمها منذ أيام التدريس الأولى في
عنيزة عندما كنت أدرس اللغة العربية والقرآن الكريم .

إذا كان عند الإنسان أرضٌ ومال فمن الجيد جداً أن يعيش في منزل واسع
ومريح، تبقى أمواله في البناء والأرض، والبيت مع الزمن يرتفع سعره، لكنني
لم أفكر بهذه الطريقة، كنت أسكن في فيلا الملز بعد توسعتها قليلاً، تمّ بناء
مطبخ خشبي، أما المطبخ الأصلي فقد تم وضع طاولة للطعام ولاستخدامها
للمذاكرة، بنينا أيضاً حماماً خارجياً، ماذا لو فكرت بطريقة أخرى طالما أن لدي
بيتاً أسكن فيه مع أسرتي، ماذا لو فكرت في تحويل الأرض التي أمتلكها
وتبلغ مساحتها ٢٥٠٠ متر إلى مصدر دخل لنا من خلال بناء عمارة تجارية
تكون مصدر دخل دائم بإذن الله؟ هكذا استقر رأيي خصوصاً أن موقع الأرض
أصبح تجارياً بامتياز، لكنها أرض كبيرة، يكفي نصفها لبناء العمارة، لكن بناء
العمارة يتطلب مالاً أكثر مما حصلت عليه من الصندوق العقاري، فانا حينها لم
أكن أملك سوى الأرض وقرض الصندوق العقاري الذي كان يدقع على دفعات،
كان مخطط التصميم عبارة عن عمارة مكونة من ثلاثة أدوار، الدور الأرضي
عبارة عن محلات تجارية، أما الثاني والثالث عبارة عن شقق سكنية، التقيت
بمقاول يمانى كان اسمه أحمد عبد الله، تفاوضت معه على ثمن المتر
المسطح وعندما اتفقنا على السعر طلب مبلغ مئة ألف يال، لم أكن أستطيع
دفع ذلك المبلغ آنذاك فهناك مصاريف أخرى للبناء كالحديد والإسمنت يجب
دفعها خصوصاً أنني لم أستلم حينها سوى عشرة بالمئة من مبلغ القرض، ثم
اتفقت مع المقاول أن أعطيه ٥٠ ألفاً كمقدم للعمل، بدأت في البناء واتفقت
معه أن أعطيه ثمن التكلفة على مراحل، وكنت في كل مرحلة أعطيه جزءاً
من المبلغ، وكما هو متوقع ومدروس لم يكن المبلغ كافياً فذهبت إلى سعد
المعجل الذي كان يتاجر في الإسمنت والحديد، قلت له أريد بناء عمارة وأريد
أن أشتري منك الحديد والإسمنت وأسدد المبالغ على دفعات، رحّب بذلك
وأبدي استعداداه، وذهبت أيضاً إلى صالح الهويريني وكان يبيع الأدوات
والمستلزمات الكهربائية وكان شريكه محمد التركي ويقع متجرهما في الملز،
عبرت لصالح عن حاجتي للمستلزمات الكهربائية وعدم امتلاكي المال
الكافي، أذكر أنه قال لي: «هل تحتاج المال لبناء عمارتك؟ هل تحتاج أن
أقرضك مبلغاً؟ هل تريد مليون يال؟» شكرته على كلماته وقلت له بأنني لا
أريد مالاً بل أريد المستلزمات الكهربائية وأسدد ثمنها على دفعات، رحّب
بذلك مثلما فعل سعد المعجل، جميعهم رحبوا بفكرة أن آخذ منهم ما أحجته
ثم أسدده لاحقاً وكانوا أصحاب فضل في ذلك، احتجت أيضاً لشراء
الأرضيات كالبلاط، كان عبد العزيز المنقور يتاجر بأرضيات البناء وكان
صديقاً لي واتفقت معه مثلما اتفقت مع سعد وصالح، استمر بناء العمارة
حوالي سنة وشهرين، كان السوق العقاري آنذاك في حال ممتازة، ما إن اكتمل

البناء وفي إحدى زيارتي لأبنائي في القاهرة حتى جاءت شركة فرنسية واستأجرت كل الشقق دفعة واحدة لمدة عامين، حتى إن الشخص الذي جاء بالشركة الفرنسية قال بأنه سيقول للشركة بأن إيجار الشقة بخمسة وخمسين ألفاً لكنه سيحاسبني على أن ثمن إيجار الشقة خمسون ألفاً، رفضت ذلك وقلت بأن إيجارها هو خمسون ألفاً، وطلبت منه أن يبلغهم بأن هذا هو ثمن إيجار الشقة وليس خمسة وخمسين ألفاً، ثم قلت للرجل بأنني سأدفع له ما يرضيه لقاء عمله هذا، كان عدد الشقق تسع، ثم تم تأجير المحلات أيضاً، أجزت أحد المحلات على الخطوط السعودية، استلمت مبلغاً كبيراً سددت به كل الديون وفضل معي مبلغ يعتبر كبيراً أيضاً بالإضافة للعلاقة الطيبة مع أصحاب محلات لوازم البناء، ما رأيكم؟ هل حان دور بناء منزل سكني كبير؟ لحظة... ماذا عن قطعة الأرض الثانية التي أبقيتها كون الأرض كانت كبيرة؟ هكذا بدأت مباشرة ببناء العمارة الملاصقة للعمارة الأولى التي جاءت بدخل ممتاز أيضاً، ثم ماذا يعيب فيلا الملز التي أسكن فيها خصوصاً بعد التوسعة البسيطة؟ إنها كافية وتجمعنا على الحب، هكذا أصبحت أحوالي المالية جيدة جداً ورأيت أن الاستثمار في العقار استثمار رابح وآمن، ثم جاء دور فيلا الملز... ما رأيكم وما هو أفضل شيء تعتقدون فعله للفيلا التي أصبح موقعها تجارياً؟ نعم... حولتها إلى عمارة تجارية، الفيلا التي كانت صغيرة والتي كما أعتقد كان بعضكم لا يوافق على إطلاق مسمى الفيلا عليها صارت بفضل الله عمارة بها العديد من المحلات التجارية في موقع مهم، كل هذا جعل أحوالي المالية ممتازة ولله الحمد، مازلت أسمى العمارة الأولى (بأم الخير) لأن كل الأعمال العقارية التي تلت كان مصدرها من تلك العمارة الأولى، ولأن الصبر طيب كما قيل، جاء موعد بناء المنزل يا أعزائي، هذه المرة أبنيه ولديّ مصادر دخل متنوعة، ولكن هل أبنائي بيتاً واحداً وقد كبر أبنائي؟ لا... لم أفعل، اشتريت أرضاً بمساحة ٧٠٠٠ متر من العقاري ابن موسى -رحمه الله- وبنيت فيها ست فيلا، كل واحد من أبنائي حصل على فيلا خاصة به، أما فيلا ابنتي هدى فقام بتمويل بنائها زوجها الدكتور راشد الراشد، وحصلت أنا وأم محمد على فيلا أيضاً، كان هدفي أن نبقي قريبين من بعضنا، أن نكون نحن جيران بعضنا البعض، فأنا وأم محمد كنا نرى أن تواجدنا مع أبنائنا وقربنا منهم هي غاية دائمة نشعرنا بالسعادة، وهذا ما حصل، حتى عندما يسافر أحد أبنائنا من أجل تحصيل علمي كنا نزوره ولا نجعل من المسافة سبباً في عدم رؤيته، بالمناسبة كان ابن موسى -رحمه الله- رجلاً محبوباً من الجميع بسبب أخلاقه الحميدة وحسن ظنه الدائم بالآخرين، كان سعر الأرض التي اشتريتها منه يبلغ ثلاثة ملايين ليل، حينها لم أكن أملك سوى مليون ليل، وافق على أخذ المليون ليل وقام بتسجيل الأرض باسم ابني أحمد قبل أن يستلم المبلغ المتبقي له، بعد ذلك سددت له باقي المبلغ على دفعات، مما سمعته عن طيب وكرم ابن موسى أن أحدهم اشترى منه أرضاً

بمساحة معينة وسعر محدد، سافر الذي اشترى الأرض إلى الولايات المتحدة عدة سنوات وعندما عاد وأراد بناء الأرض وجد أن بها زيادة تبلغ ٨٠٠ متر، ذهب الرجل إلى ابن موسى وأبلغه بذلك، كان سعر متر الأرض قد تضاعف عدة أضعاف عن سعر المتر الذي اشترى به الأرض في الماضي، فقال له ابن موسى بكم اشتريت سعر المتر؟ أجابه الرجل بأنه اشترى المتر بأربعين ريالاً فقال له ابن موسى إذن ادفع ٤٠ ريالاً للمتر الواحد وقد كان سعر المتر حينها بمئات الريالات، بهذه الأخلاقيات العالية عاش ابن موسى ولذلك وعندما توفي حضر الآلاف جنازته -رحمه الله-

لو لاحظتم دور قيادتنا فيما وصلت إليه أنا من وضع مالي ممتاز ولله الحمد، الأرض التي بنيت بها العمارة الأولى كانت منحة، والقرض يسد بأقساط ميسرة جداً، وكما ذكرت لكم سابقاً، أن تولد وتعيش في دولة قادتها يعملون من أجل سعادة مواطنيها هو حظ كبير وتوفيق من الله.

حتى عندما أصبحت حالي المادية مرتفعة لم يجعلني ذلك أن ألعب بالمال كما يصرف البعض بتبذير، أنا رجل وسطي وأحب أن يكون المال في موضعه سواء في شراء سلعة ما أو في يد من يستحق ويحتاج، والمال نعمة كبيرة وعلى كل من يمتلكه أن يشعر بِنفعه عندما يضعه في موضعه الصحيح، وأن لا يسيطر على المرء حب جمعه لتخزينه بل للاستفادة منه من خلال عيش حياة كريمة تليق بالإنسان.



العمارة الأولى التي أسميتها بأم الخير



العمارة الثانية التي بنيتها بعد العمارة الأولى مباشرة



فيلا الملز التي تحولت إلى محال تجارية

(٥٣)

في هيئة الخبراء!

في العام ١٤٠١هـ، حينها كان مطلب النفيسة رئيس هيئة الخبراء، طلب مني أن أعمل في الهيئة وكان ذلك العام هو آخر عام مارست فيه التدريس، لم يكن قراراً سهلاً لكن الإنسان بطبيعته شغوف بمعرفة ما هو جديد، أما العمل في هيئة الخبراء فكان عملاً هادئاً لكنه عمل يتطلب الدقة وبذل الجهد أيضاً، وهيئة الخبراء هي معمل الأنظمة وصناعتها ومن حسناتها أن لا مراجعون باستثناء المندوبين من الجهات الحكومية، عادة تأتي الأنظمة باقتراحات من الأجهزة الحكومية إلى مجلس الوزراء الذي يحيلها إلى هيئة الخبراء لدراسيتها وإعطاء الرأي فيها، يشترك في الدراسة والمناقشة عدة وزارات أيضاً، دائماً ما تكون من ضمنها وزارة المالية لأنها الممول، فإذا اقترح التعليم العالي نظاماً جديداً فتشترك في المناقشة وزارة المالية والتعليم العالي وإدارة الموظفين من خلال لجان ممثلة من هذه الوزارات ثم يرفعونه إلى هيئة الخبراء التي تدرسه ثم ترفعه إلى المقام السامي الذي يحيله إلى مجلس الشورى لأنه شريك في التنظيم، فإذا اتفق مجلس الشورى ومجلس الوزراء على النظام يوافق عليه، أما إذا لم يتفقوا فيرفع الأمر حينها إلى الملك الذي يقرر في شأنه، الأمر الآخر إذا اقترحت هيئة الخبراء نظاماً ووجد مجلس الوزراء بعض النصوص غير المناسبة وقام بتعديلها فإنه يعيد الأمر بعد التعديل إلى مجلس الشورى الذي يناقش التعديل عن طريق هيئة الخبراء، وفي حال عدم توافق الرأيين بين مجلس الشورى ومجلس الوزراء يُرفع الرأيان إلى الملك الذي يقرر المناسب.

هكذا استمر العمل في هيئة الخبراء ووجدت فيه متعة مختلفة عن مجال التعليم، وقد زاد العمل في الهيئة من ثقافتني القانونية والاطلاع على الكثير من القضايا وإبداء الرأي فيها، كان العمل أيضاً ذا ميزات، كنت قد حصلت على جواز سفر سياسي بالإضافة إلى سيارة.

أثناء عملي في هيئة الخبراء كنا ننقل أعمالنا إلى الطائف صيفاً ونقيم في فندق الشيراتون، وفي نهاية الأسبوع نعود للرياض، ثم نعود إلى الطائف في بدايته، هكذا طوال الصيف بسبب تواجد الملك والوزراء في الطائف صيفاً،

والطائف تعرف بأجوائها الصيفية اللطيفة، كنا نأخذ على تواجدنا هناك انتداباً ويدفع لنا أجر مقابل سفرنا هذا بالإضافة إلى رواتبنا، في شهر أغسطس من العام ١٩٨٨م كان ابني محمد يكمل بعض دراسات الطب في ألمانيا ورافقته والدته في أثناء تواجده آنذاك في ألمانيا، كانت والدتي تقيم في فيلا الملز الملاصقة بالفيلا التي أسكن بها، وفي ذلك الشهر ذهبت والدتي إلى القصيم، وذهبت أنا لفيلا الوالدة حتى أسقي النخل ونسيت أن آخذ المفتاح معي، فكرت أن أصعد على السلم الحديدي ثم أقفز من فوق الجدار الفاصل بين الفيلتين، وضعت السلم على الجدار وكان ثقيلاً، لم أستطع تثبيته بصورة جيدة، صعدت عليه وشعرت باهتزازة، أكملت الصعود ثم سقط السلم بي على الأرض واصطدمت بالأرض صدمة قوية فانكسر فخذ رجلي مباشرة، شعرت بألم شديد ورأيت قدمي تلتف إلى الخلف، كان بجانب حمام له باب من حديد، عندما هويت ساقطاً اصطدم رأسي بباب الحمام وسبب ذلك لي إصابة أخرى في رأسي، عدلت قدمي واستلقيت على يسار الجدار وذهبت زاحفاً إلى الباب الرئيس حيث الشارع، كان ذلك صباحاً وأجهزة التكييف تصدر أصواتاً تمنع صوت الاستغاثة، حاولت الزحف أكثر فلم أستطع، ناديت بصوت حاولت جاهداً أن يكون مسموعاً قدر استطاعتي: «ياحمدان ياحمدان...» والحمدان جار لنا، أجابت أمه: «نعم»، فقلت لها: «أنا عبد العزيز جاركم، أنا طايح في الحوش وطالع مني دم!» أيقظت ابنها من النوم وخرج باحثاً عمن يستطيع القفز داخل الفيلا، قفز اثنان من الشباب داخل فناء الفيلا وقاما بفتح الباب ودخل الحمدان وتم الاتصال بأبنائي والإسعاف التي نقلتني إلى المستشفى العسكري، تم إجراء عملية جراحية لفخذ رجلي على يد دكتور عراقي اسمه رويد، ورغم ألمي ذاك إلا أنني سعدت عندما علمت أن مدير المستشفى كان اللواء صالح الماضي، وصالح كان أحد طلبتي في الجامعة، والحقيقة أن صالح اهتم بمعلمه اهتماماً كبيراً وأظهر حبه الشديد لي، لكن مدة بقائي في المستشفى كانت طويلة واستمرت ثلاثة أشهر تقريباً، شعرت بالخجل من طول المدة ومما يبذله الطاقم الطبي من جهد فطلبت إخراجي من المستشفى، فقال اللواء صالح لماذا؟ أجبت: «بأنني لا أريد حجز الغرفة أكثر من ذلك فأنتم بحاجة لها»، لم أخرج بعيداً، كان لدي ابني الدكتور محمد بيت في المستشفى العسكري فأقمت معه، دخلت مرحلة العلاج الطبيعي، قام بذلك أخصائي فلبيني يأتي إليّ مرة كل صباح، وفي المساء يأتيني مرة أخرى كعمل إضافي، تكرر زيارته المسائية شكلت بيننا علاقة إنسانية رائعة حتى اعتاد على أن يتناول وجبة العشاء معنا بعد كل جلسة طبية، كنت لا أستطيع إرجاع قدمي إلى الخلف وذكرت للمعالج بأنني أخشى أن تستمر قدمي على هذا الوضع، لكنه قال: «سأعيد قدمك إلى وضعها الطبيعي وستري ذلك»، كان يحاول في كل مرة أن يعيدها درجتين حسب ما كان يقول، في كل مرة يضغط على رجلي محاولاً إرجاعها بكل قوته، كانت قوته

تشعرني بالألم الشديد، استمر ذلك مدة شهرين حتى أعادها إلى مكانها الطبيعي بعد أيام كثيرة وطويلة، كان أبنائي يكافئونه بالرطب «القطاره» (98) وهو رطب تمرته أنيقة لونها أسود مليء بالدبس وتوصف بأنها دلوعة لشدة رقتها، كما كانوا يهدونه بعض أنواع القهوة المختلفة، وكلما استلم المعالج الفلبيني التمر والقهوة كان يقول: «قود أيديا» good idea لكنني غيرت له نوع الهدايا بعد أن شفيت حيث أهديته جهاز فيديو، وكان لمثل ذلك الجهاز قيمة في ذلك الوقت فسعد بذلك كثيراً، ما زلت أتذكر سعادته الظاهرة على وجهه وكلمات الشكر التي قدمها لي، قلت له أنا من يشكرك على كل ما بذلته وأنا ممتن لك، هل تعاطفتم معي يا أعزائي القراء بعد هذه الحادثة المؤلمة؟ فقد مكثت طريح الفراش مدة قاربت خمسة أشهر دون أن أتمكن من الحركة في معظم هذه المدة، لا أظن أن قلوبكم قاسية، لا بد أنها رقت كثيراً وأنا أسرد لكم كيف كانت معاناتي من الألم الشديد كلما حاول المعالج أن يعيدها درجتين حسب قوله، كما أنني أذكركم أن مشهد سقوطي على الأرض من السلم كان مشهداً حزيناً، أعتقد بأنكم تعاطفتم معي، تذكروا الدماء التي سالت من رأسي بينما قدمي تلتف إلى الخلف دون أن أتمكن من السيطرة عليها!

شعرت بأني تأخرت عن العمل، لكن رئيس عملي كان رجلاً نبيلاً كعادته وهو الدكتور مطلب بن عبد الله النفيسة، ومطلب من أهل الخبراء بالقصيم، والخبراء مشهورة بإنتاج قمح (المعينة) الذي يقام له مهرجان سنوي اسمه مهرجان المعية، كان صديق دراسة في كلية الحقوق في القاهرة ورئيسي في مجلس الخبراء وكنت نائباً له، قال لي: «لا تأت للعمل حتى تشعر بأنك شفيت تماماً».

في إحدى المرات سافرت صيفاً إلى كندا لزيارة أحد أبنائي، وكما ذكرت لكم كان يصرف لنا كل صيف مكافأة انتداب عمل في الطائف كون مقر عملنا في الرياض، عندما عدت من كندا وجدت أن مكافأة السفر إلى الطائف كانت قد نزلت في حسابي البنكي كاملة فأعدت جزءاً من المبلغ الذي يعادل فترة غيابي في كندا، لا أقول ذلك محاولاً إظهار أمانتي لكنني لا أقبل أخذ شيء لا حق لي فيه، وأحرص أن يدخل في جيبى ما هو حلال فقط وأبتعد عن أي شيء تخالطه شبهة تحذرنى بأن لا حق لي بأخذة.

عندما كنت في بيت ابني الدكتور محمد أثناء فترة العلاج الطبيعي كان لديه حينها ابنان وهما عبد العزيز وأحمد وكانت ابنتي هدي تزورني يومياً ومعها ابنتها سليمان، وكان سليمان يلعب مع الأطفال في ساحة المبنى، أحد الأطفال قام بضرب أحمد ابن ابني محمد فقام سليمان ابن ابنتي بملاحقة الولد الذي

ضرب أحمد، سقط الولد على الأرض دون أن يضربه سليمان، عاد الولد باكياً إلى أهله، فقلت لسليمان اذهب إلى إحدى الغرف في الطابق الأول حتى لا يأتي والد الطفل فيقوم بضربك، رفض سليمان أن يذهب للطابق العلوي وقال: «لن أذهب فأنا لم أفعل شيئاً»، تعجبت من قوة شخصية سليمان وهو في ذلك السن، الآن كبر الطفلان ولم يعودا يلعبان كما في السابق، حصل أحمد على الدكتوراه في الهندسة وأصبح أستاذاً ورئيساً لقسم الهندسة بجامعة الملك سعود، أما سليمان فقد أكمل تعليمه في كندا وتخصص في جراحة الشبكية، يقيم حالياً في فلوريدا ويمارس الطب في جراحة الشبكية على أمل أن يحصل على قبول لدى طبيب مشهور في أمريكا حتى يكتسب الخبرة ليعود للملكة ويساهم مع زملائه الأطباء في توفير خدمات طبية متميزة.

(٥٤)

وفاة والدي

لا يعرف المرء مقدار ما يمكنه والديه له إلا عندما يصبح لديه أبناء، حينها عندما يشعر بحبه الكبير لأبنائه يعرف القدر الذي كان والداه يحبان به، منذ أن رزقت بأبنائي علمت بمدى حب الوالدين، علمت حجم الحب الذي كان والدي يحمله تجاهي وتجاه أشقائي، كنت أحرص دائماً على التواصل معه وزيارته في عنيزة، كما كنا نسعد كثيراً عندما كان يزورنا ويقدم معنا فترات متقطعة في الرياض، تقدم في السن وأصبح جسده لا يقوى على السير، قضى السنوات العشر الأخيرة ممدداً على السرير، ألمه ذلك مثلما كان يؤلمني، في الأشهر الأخيرة من حياته وفي إحدى زياراته إلى الرياض للعلاج قال: «أنا لي ٥٠٠ جمعة ما صليت جماعة مع الناس!» طلب عدة مرات أن نحضر له عصي حتى يتكئ عليها ليذهب إلى المسجد لكنه لم يستطع النهوض، خلال العشر سنوات التي أصبح والدي فيها مقعداً ظهرت طيبة وأخلاق زوجة أخي صالح، فوالدي كان يقيم في سنواته الأخيرة في منزل صالح، وكانت زوجة صالح نوره علي الخيني، هي من ترعاه وتهتم بكل تفاصيل خدمته وراحته، لم تترك شيئاً يحتاجه لم تفعله له أثناء مرضه الذي أقعده في الفراش مدة عشر سنوات، كانت مثلاً نادراً في البذل والعطاء، لم تتذمر ولم تشتك يوماً من الجهد الكبير الذي تبذله كل يوم من أجل والد زوجها، سمع عبد الله محمد القبلان وكان صديقاً لوالدي بما تبذله زوجة أخي صالح فأعطاني طقمًا ذهبياً لأعطيه لزوجة أخي صالح كهدية لها وعرفاناً لما تبذله تجاه صديقه، كان الطقم الذهبي جميلاً مكوناً من عقد وأساور وأشياء أخرى، قبلت الهدية

وأوصتني بشكره، كانت ومازالت زوجة أخي صالح إنسانة رائعة ولها مكانة كبيرة في قلوبنا ومازلت أقوم بزيارتها والاطمئنان والسلام عليها. في الشهر الأخير من العام ١٩٨٨م زارنا والدي في الرياض وأقام في منزل أخي عبد الله الملاصق لمنزلي، وكنا قد تعودنا في كل مرة يأتي فيها عندنا على أن لا تمضي سوى أيام قليلة حتى ينتابه الشوق إلى عنيزة ويطلب العودة إليها، كان يقول أثناء شعوره بالاشتياق لعنيزة: «أنا أحب (هالجمشه)» والجمشه هي الطين اليابس، وكان يقصد (الديرة) والديرة هي مجموعة البيوت المبنية من الطين، واشتكى من عدم تمكنه من الصلاة جماعة، في زيارته تلك أحضرت له الشيخ صالح بن غصون عضو هيئة كبار العلماء، قال الشيخ صالح لوالدي: «يا علي يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن الرجل الذي كان يعمل الأعمال الصالحة أثناء صحته ينال الأجر نفسه عندما يفقدها إن لم يعد قادراً على فعل الأعمال نفسها بسبب مرضه»، مضت أيام قليلة بعد قدومه إلى الرياض ثم توفي -رحمه الله-، تم دفنه في مقبرة النسيم، مازلت أزور قبره، سجلت موضع قبره وأحفظه، رقمه ١٧ من الشمال إلى الجنوب، و٢٣ من الغرب إلى الشرق، لم أنس والدي ولا يده الدافئة عندما أمسك بيدي وتوجه بي نحو الكتاب، ولا كلماته وحثه لي على الاهتمام بالتعليم، أشياء كثيرة وصور عديدة مطبوعة في ذاكرتي لم تمحوها السنين.

حزن شعرنا به جميعاً على فراق والدنا الطيب، والوالد الطيب والكريم عندما يرحل يحزن أبناؤه كثيراً على فراقه، لكنه الموت، قدر الإنسان وسنة الحياة وأمر الله.

بعد أشهر قليلة من وفاة والدي، وفي العام ١٩٨٩م، وفي ذلك اليوم الذي لم أنس ساعاته كنت جالسا بجانب والدتي، كانت تتحدث لوحدها، سألتها مع من تتحدثين؟ أجابت بأنها تتحدث مع الله، شاهدت بعض الحبوب الصغيرة على لسانها وشعرت بأنها ليست على ما يرام، انتابني القلق وذهبت لأحضر لها طبيبا، ما إن عدت ودخلت المنزل حتى قابلتني ابنة أخي قائلة: «جدتي ماتت! «ورغم أنني كنت قد تجاوزت الستين من عمري حينها إلا أن حقيقة رحيلها أعاد لي صور طفولتي معها، وأعاد لي صورة وجهها وهي شابة في بيتنا الطيني، تحيطني بمحبتها وعطفها وحنانها، رحلت أمي بعد أن أعطتنا حبا بحجم بحور من المياه الحلوة العذبة، وحنانا وعطفاً لا حدود لهما، فمهما كبر الإنسان يبقى في نظر عيني أمه ابنا الصغير الذي لا تقطع عنه عطفها ورعايتها، ومهما كبر الإنسان يبقى الحب الذي تلقاه من والدته لا يشبهه أي حب آخر، حب مشروط عليه أن لا ينتهي أو ينقطع إلا برحيلها، بقي صوتها في ذاكرتي وكلماتها التي لا تنسى، حتى وصاياها»: انتبه على أخوك عبدالله.. هذا غصيدك»، كان بين قبرها وقبر والدي ٢٣ صفاً، وضعت حجراً صغيراً

حتى أستدل عليه كما فعلت مع قبر أبي، في إحدى المرات لم أجد تلك الأحجار على حالها، بل كانت مكسورة إلى قطع صغيرة، سألت حارس المقبرة فقال إن كل جمعة يأتي أناس ملتحون ويقومون بتكسير تلك الأحجار ! لا أعلم بأي حق يفعلون ذلك، كل ما فعلته هو أن وضعت حجراً صغيراً عند قبر أبي وعند قبر أمي لأستدل على قبriهما من بين مئات القبور، لا يحصل هذا في عنيزة، نفعمهم علمهم الذي جعلهم يدركون أن مثل هذه الأحجار يضعها أهل المتوفى لكي يعرفوا موقع القبر، أصبحوا يضعون ما يسمى بالنصائل، وهي ما يكتب عليه رقم القبر للاستدلال عليه .

(٥٥)

في مجلس الشورى

مضت السنوات في هيئة الخبراء على أفضل حال، عمل مفيد وممتع ومكانته مرموقة، وكان لدي الوقت الكافي للاهتمام بشؤون أسرتي أيضاً، كان جميع أبنائي في وظائفهم ومتزوجين ولديهم أبناء وهم باستثناء هدى التي لم تعمل بالوظيفة ورأت أن تهتم بشؤون بيتها وأبنائها وزوجها، سافرت خلال عملي في هيئة الخبراء عدة مرات سواء من أجل أبنائي الذين أكمل بعضهم دراساتهم العليا في ألمانيا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية أو تلك الأسفار التي كنا نقوم بها من أجل العمل، بعد مرور ١٢ عاماً على اشتغالي في الهيئة كان عمري قد بلغ الستين عاماً وهو سن التقاعد، ستون عاماً مضت مثل (فرقة كعب) لكنني كنت نشيطاً ولم أكن أريد البقاء من دون عمل أقوم به، ولست من ذلك النوع من الرجال الذين يجلسون في بيوتهم دون عمل شيء لمجرد وصولهم إلى سن التقاعد، فعمري الستين للرجل الذي في صحته ليس عمراً كبيراً ولديه الكثير من الوقت والكثير من الأشياء التي يستطيع فعلها، تذكرت ما فعله أحد زملائي في هيئة الخبراء عندما وصل إلى سن التقاعد وهو صالح الحصين، كان رجلاً نبيلاً بكل ما تعنيه الكلمة، اقترح صالح الحصين عندما وصل إلى سن التقاعد على زميلنا ورئيسنا في العمل مطلب النفيسة أن يستمر في العمل مكتفياً براتب التقاعد مع الاحتفاظ بالسيارة وجواز السفر السياسي، وكان مطلب النفيسة حريصاً على بقاء صالح الحصين وتمت الموافقة على طلب صالح، أما أنا فقد طلبت ما طلبه صالح، وكان الأمير عبد الله بن عبد العزيز -رحمه الله- ولياً للعهد، تم تقديم الطلب إليه وجاءت الموافقة، وهكذا استمرت في العمل في هيئة الخبراء الذي بدأت فيه من العام ١٤٠١ إلى غاية ١٤١٤هـ، ناقشنا ودرسنا العديد من القضايا المهمة التي تخص شؤون الدولة والناس، وبعد مرور ١٤ عاماً على عملي في

هيئة الخبراء وفي العام ١٤١٤هـ اتصل بي إبراهيم العنقري قائلاً إن طويل العمر الملك فهد اختارك عضواً في مجلس الشورى فما هو ما رأيك؟ لم أجبه بالموافقة لحظة اتصاله وطلبت منه وقتاً للتفكير، اتصلت بصديقي مطلب النفيسة واستشرته في الأمر فقال لي توكل على الله ووافق علي المهمة الجديدة، ثم اتصلت بأخي عبد الله الذي كرر ما قاله مطلب، ثم عدت واتصلت بإبراهيم العنقري وأبلغته بموافقتي.

كان مجلس الشورى في دورته الأولى مكوناً من ٦٠ شخصاً تمّ انتقاؤهم بعناية من ذوي العلم والخبرة، لكن الكثير منهم لم يكونوا على معرفة كاملة بحقيقة دورهم المطلوب منهم تأديته، لكننا نحن الذين جئنا من هيئة الخبراء ومجلس الوزراء بدأنا نسهل الأمور عليهم ونوضح لهم نوع العمل الذي يجب أن نقوم به، تمّ اختيار الشيخ محمد بن جبير (99) رئيساً للمجلس وهو رجل مليء بالخبرة، كان قاضياً ثم عمل في ديوان المظالم ووجوده كرئيس أفاد المجلس كثيراً، دعوني أقول لكم الآن وبكل صراحة إن مساحة الحرية في مجلس الشورى كانت مساحة كبيرة جداً، وكان لدى كل عضو الحرية الكاملة لقول آرائه ومقترحاته، حتى إن أحد الأعضاء وفي الجلسة الأولى أو الثانية أصرّ على مناقشة قيادة المرأة للسيارة، لم يكن هناك حينها أي توجيه بمناقشة قيادة المرأة للسيارة، قيل له ذلك فخفف من إصراره على مناقشة ذلك الأمر الذي أصبح اليوم من الماضي بعد أن تمكنت المرأة اليوم من قيادة سيارتها وحصلت على كامل حقوقها وأصبحت شريكة فاعلة في بناء وطنها، استمر عملي في الدورة الأولى مدة أربع سنوات، التقيت خلالها بالملك فهد -رحمه الله-، كان حريصاً على العمل وكان شديد الحرص على الحضور والتوجيه، كانت لديه طاقة عمل كبيرة وشخصية مهيبه وقدرة على زرع محبته في قلوبنا من خلال شخصيته وما كنا نراه من حرصه على خدمة المواطنين والعمل على رفع المستوى في كل الأجهزة الحكومية والتطلع إلى كل ما يعود بالخير والرفاهية على المواطنين.

في الدورة الأولى لمجلس الشورى تمّ اختيار الأعضاء حسب مؤهلاتهم العلمية وخبراتهم، في الدورة الثانية لمجلس الشورى تم رفع عدد الأعضاء إلى ٩٠ عضواً وتمّ اختيار العديد من الأسماء من مختلف مناطق وأقاليم المملكة حتى ينقل هؤلاء تطلعات مناطقهم وما تحتاجه إلى مجلس الشورى، تمّ اختياري أنا أيضاً في الدورة الثانية، قد يتساءل البعض عن السبب الذي جعل من مجلس الشورى محتفظاً بنمطه المحترم والرزين وبعيداً عن المهاترات والكلمات غير اللائقة التي نشاهدها في بعض مجالس الدول الأخرى، ومن أسباب ذلك أن العضو ليس لديه الحق في توجيه كلامه إلى العضو الآخر بل يوجه حديثه وكلامه إلى رئيس المجلس الذي يفرض

الانضباط، وهذا الأمر من الأمور الرئيسة التي جعلت من مجلس الشورى السعودي بمنأى عن الفوضى وعن التصرفات التي لا تليق بمكانة المجلس وأعضائه .

(٥٦)

وفاة ابني يوسف

هذه الحياة مهما كانت سعيدة إلا أنها لا تخلو من الألم، والألم شيء قدر على الإنسان أن يلقاه بشكل من الأشكال، لو قيل للآباء ما هي أهم أمانيتكم في هذه الحياة لقالوا أن يحفظ الله أبناءنا، فحب الوالدين للأبناء لا يضاھيه أي حب آخر.

ذهب ابني يوسف الى جامعة جورج واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة الدكتوراة في هندسة البيئة، كان متزوجاً ولديه أبناء... بعد مرور سنة واحدة ذهبت لزيارته وقضيت شهر رمضان معه، كان ذلك في العام ١٩٩٩ ميلادي الموافق ١٤١٩ هجري، عدت إلى السعودية، وكنت حينها في مكة... وبينما كنت أنظر إلى الحجيج... رن جهاز هاتفي... كان يوسف يبارك لي العيد... ضحكنا سوية... وسألته عن أمور دراسته، كانت جميع أحواله على ما يرام، ثم ما إن عدت إلى الرياض حتى جاءني زوج ابنتي الدكتور راشد... قال لي ووجهه ينم عن قلق وحزن بأن يوسف مريض... علمت بأنه يمهد لشيء أكبر... فوجه الدكتور راشد كان يحكي عن شيء أكبر من المرض، اختصرت عليه عناء ذلك... وقلت له : راح؟ فأجابني بنعم!، شعرت بالألم شديد لم أذقه في حياتي، ألم لا يشبهه ألم آخر، غير أنني فكرت بزواجتي مباشرة وقد تحملت فوق حمل ألمي حمل إبلاغها بهذا الفقد المروع، جاءني أبنائي ودخلنا إلى صالة البيت حيث كانت تجلس أم محمد في مكانها المعتاد، ما إن رأتنا ندخل جميعاً حتى شعرت بأن هناك شيئاً ما فتساءلت عن سبب حضورنا، قلنا لها بأن يوسف مريض، وفعلت كما فعلت أنا واختصرت علينا العناء فقالت : راح؟ فقلنا نعم... صمتت أم محمد... ثم بكت على فراق يوسف ودعت له بالرحمة والمغفرة، أعلم بأننا جميعاً كنا نشعر بالألم فراق يوسف لكن الألم الذي كان في قلب أم محمد لا شك أنه كان مضاعفاً كونها أم والأم لا يضاھيهما أحد في محبة أبنائها ولا في حزنها على فراق أحدهم، جيء بجسد يوسف إلى المقبرة في الرياض، نظرت إلى وجهه وقبلته على جببته، ثم دعوت الله أن يرحمه ويغفر له وبكيت... كما أبكي الآن وأنا أكتب لكم هذه الكلمات وأنا أتذكر وجهه، رزق الله يوسف أبناءً صالحين وبهم من الرجولة ما

يدعو للفخر والاعتزاز به، اهتموا بتعليمهم، واهتمت أمهم بدرية الراشد بتعليمهم وتربيتهم اهتماماً كبيراً، ابن يوسف الكبير بدر حصل على الدكتوراه في جراحة العظام وسنحتفل يوم السبت القادم بمناسبة حصوله على الدكتوراه، ابنه طارق حصل على بكالوريوس الهندسة في الحرب الإلكترونية، أما عبد العزيز فهو مهندس معماري، أما أحمد فقد حصل على الماجستير في البرمجة ويعمل مع شركة أبل في الولايات المتحدة الأمريكية، أوصيته في لقائنا الأخير بأن لوطنه عليه حقاً ويجب أن يعود للعمل في المملكة بعد أن يحصل على الخبرة الكافية.

بقي يوسف في عقلي وفي قلبي، ورغم رحيله منذ ٢٠ عاماً إلا أنه لم يغب عن أيامي التي عشتها من بعده إلى غاية اليوم، كان طيباً وكراماً، لا أقول ذلك لأنه ابني بل أقول ذلك لأنها صفاته وقد ورث أبناؤه الكثير من هذه الصفات.

(٥٧)

إبليس ولا إدريس!

في مجلس الشورى تصبح الجلسة سرية إذا كان النقاش يتعلق ببعض الأمور السياسية أو بعض الأمور التي توجب سرية الجلسة، لا يبقى سوى الرئيس ونائبه والأعضاء فقط وتغلق الأبواب، أما في الجلسات العادية وهي الأكثر فكان الاطلاع على ما يدور في المجلس أمراً ممكناً، لم تكن كل المداخلات والأحاديث التي يقولها بعض الأعضاء مفيدة فيعضهم كان يتيه في حديثه ولا نخرج منه بنتيجة، كان الملك فهد -رحمه الله- ذا بال طويل وقدرة على الاستماع، وكان -رحمه الله- يردد دائماً بأن أعضاء مجلس الشورى هم أعوان ولي الأمر وأنه لا يستطيع أن يحيط بكل شيء وعليهم أن يتحملوا مسؤوليتهم كاملة في إحاطته بما يرون أنه يجب إحاطته به، في الحالات التي يحضر فيها الملك فهد كان رئيس المجلس يختار المتحدثين الجيدين ويعطي لهم الكلمة، في إحدى الجلسات كان ولي العهد الأمير عبد الله -رحمه الله- حاضراً فقام أحد الأعضاء الذين يحبون الخطب وتحدث طويلاً لكن حديثه لم يكن مترابطاً، أستطيع القول بأنه خلط الحابل بالنابل وتشتت في كلامه ولم يقل شيئاً واضحاً، بعد أن انتهى العضو من حديثه قال الأمير عبد الله بصراحتة المعهودة موجهاً حديثه للعضو: «والله ما فهمت شي من اللي قلته»!

لم أكن أحب المداخلات التي أشعر أن أصحابها ذوو أهواء شخصية، فالمجلس لمناقشة قضايا البلد وهذا ما جعلني أشعر بمتعة العمل كون المجلس هو من كان يساهم في إصدار القرارات التي تصب في صالح المملكة، ولذلك كنت أرد على تلك المداخلات التي تبتعد عن المصلحة العامة، في إحدى المرات وصلتني قصاصة ورقية من أحد الأعضاء كتب بها عتاباً على زدي له، لم يكن شيئاً شخصياً بل كان أمراً مهنيّاً لذلك لم أرد على ما كتبه ولم أفاتحه بهذا الشأن، كنت أقوم بعملتي وما أعتقد أنه مناسب، وهذا ما ذكره لنا الملك عبد الله -رحمه الله- مرات عديدة عندما كنا نذهب ونتناول وجبات العشاء عنده، ففي كل مرة كان يوصينا على مصالح الناس والاهتمام بها.

لم تخلُ بعض الجلسات من الضحك خصوصاً عندما يتحمس أحدهم وي طرح آراءً بعيدة عن الواقع أو التطبيق، لكن المجلس بصورة عامة كان مجلساً رزيناً وأعضاؤه كانوا وما زالوا من ذوي الكفاءة والخبرة، أذكر في مرحلة ما كان بعض الأعضاء يركزون أسئلتهم عن الأسباب التي تبوأ بها سگان القصيم أو نجد عموماً الوظائف الكبيرة في الدولة، وهذا دليل على سقف الحرية الذي كان يتمتع به هذا المجلس، وكان من المنطقي أن يطرح مثل هذا السؤال لأن الكثير من الشخصيات من القصيم أو نجد تبوأوا فعلاً وظائف كبيرة، لكن الإجابة على هذا السؤال لا تحتاج الى تفكير طويل فنسبة المتعلمين من القصيم والذين حصلوا على شهادات عليا وخبرات عملية كبيرة للغاية، ويكفي أن يطلع كل من أن أراد على سيرة كل من حصل على منصب مرموق ليجد تعليمه العالي وخبراته المتراكمة، مع مرور الوقت وارتفاع نسب الذين حصلوا على شهادات عليا وخبرات عملية من كافة مناطق المملكة أصبحت المناصب العاليه تتوزع على الجميع من كل مناطق المملكة، كان يعجبني العديد من الأعضاء من جدة أو مكة المكرمة، مداخلاتهم وأحاديثهم عادة ما تكون موزونة ومفيدة وشيقة وممتعة أيضاً، لم يكن في مجلس الشورى نساء، كتبت رأبي حينها وطالبت فيه أن تدخل المرأة المجلس وتكون نسبة النساء ٢٠ بالمئة من عدد أعضاء مجلس الشورى، وقد دخلت المرأة مجلس الشورى لاحقاً بوصفها شريكاً في المجتمع .

أعتقد أن أفضل القرارات التي تم اتخاذها في الفترة التي عملت فيها في مجلس الشورى من العام ١٤١٤ لغاية ١٤٢٦ هـ هي تلك القرارات التي اهتمت بمختلف أنحاء المملكة ورفعت مستوى البنى التحتية، خصوصاً تلك التي طالت الجنوب والشمال لتصبح مناطق بخدمات عالية ومتقدمة، شخصياً أحب الملك سلمان -حفظه الله-، وأنا معجب به منذ زمن ومن صفاته أنه رجل شهم، وهو صاحب شخصية دافئة وحديثه ودود ومبتسم، كنا نحن أهل

عنيزة نسمي الرجل من خارج عنيزة بالأجنبي، في إحدى المرات التقيت بالملك سلمان -حفظه الله- عندما كان أميراً للرياض وكان على علم بتسميتنا للذي من خارج عنيزة بالأجنبي، فقال لي -حفظه الله- وهو يشير إلى أحد الحاضرين: «هل هذا من أهل عنيزة وإلا وش هو»؟ خجلت أن أقول بأنه أجنبي وقلت بأننا جميعاً أبناء المملكة، كسب الملك سلمان محبة الناس منذ أن كان أميراً للرياض وعرف عنه العدل والإنصاف والحزم، وتعيش المملكة في عهده إحدى أجمل أزمتهما وتقدمها وانفتاحها على العالم.

سافرت عدة مرات كعضو مجلس شوري إلى العديد من البلدان ضمن وفد المجلس، وأحمد الله دائماً أنني وطوال فترة عملي الذي مثلت فيه مجلس الشوري سواء داخل أو خارج المملكة أنني مواطن سعودي ينتمي إلى بلد مستقر تقوده قيادة حكيمة أبعده عن كل تقلبات المنطقة وحروبها، وأني من بلد لم تعيث به الأحزاب أو الحكام الذين جاؤوا عن طريق الدبابة والانقلابات، لا شك أن بعض الشعوب العربية راح العديد من أجيالها ضحايا تهور وحماسة حكاهم الذين دفعوا بالبلد نحو التخلف والفرقة والفقر رغم كل ثرواتهم التي أعطاها الله لهم، يحكى أن إدريس السنوسي الذي حكم ليبيا قبل وصول القذافي سدة الحكم وقد كان ثقيل السمع، يحكى أنه عندما قامت الثورة عليه جاء بعض المتظاهرين إلى منزل إدريس وهتفوا: «إبليس ولا إدريس»، كان لا يسمع جيداً ولم يعرف بماذا كانوا يهتفون، فسأل عن ذلك فقالوا له إنهم يهتفون «: إبليس ولا إدريس»، يقال إنه قال: «اللهم استجب»، عندما حل الصباح أخذ أسرته وركبوا سيارتين ولم يتوقفوا إلا في القاهرة ثم أعاد السيارتين، كان إدريس السنوسي ذا مكانة محترمة عند المملكة وكان هناك مندوب من المملكة يتفقد أحواله -رحمه الله-.

استمرت في مجلس الشوري ثلاث دورات متتالية وهذه أكثر مدة يستطيع العضو البقاء فيها في المجلس حسب العرف المعلوم، كان في مجلس الشوري شخصيات متميزة كثيرة، لكنني أتذكر كثيراً الدكتور عبد الرحمن الشبيلي -رحمه الله-، كان رجلاً موزوناً وذا حديث لا يمل، ينتقي كلماته بحرص شديد ويقول ما يريد قوله بأسلوب رشيق وبصراحة كاملة دون أن يجرح أو يخطئ في حق أو مشاعر أحد ما.



عبدالرحمن الشبيلى إعلامى وكاتب وعضو مجلس
شورى ثلاث دورات متتالية



في زيارة رسمية إلى إحدى الدول العربية ضمن وفد مجلس الشورى

(٥٨)

خروف الرئيس

في العام ١٤٢٣ هجري الموافق لـ ٢٠٠٥ ميلادي كنت قد أكملت ثلاث دورات في مجلس الشورى استمرت مدة ١٢ عاماً، وقبلها ١٤ عاماً في هيئة الخبراء، بالإضافة إلى السنوات التي كنت أشتغل فيها مدرساً بالجامعة وفي المدرسة الابتدائية في عنيزة، لو جمعنا هذه السنوات لأصبح مجموعها ٥٦ عاماً منها السنوات تلك التي درست خلالها في القاهرة والتي احتسبت لي ضمن سنوات العمل، كل هذه السنوات كانت كافية للتقاعد و كنت قد بلغت من العمر ٧٧ عاماً، تقاعدت إذن بعد مشوار طويل من الدراسة والعمل، تقاعدت وأنا على قناعة تامة بأنني حصلت على فرص جيدة خلال مشواري التعليمي

والعملي وبذلت في سبيل ذلك كل الجهد والإخلاص، تقاعدت بعد أن خضت مسيرة طويلة خرجت بها راضياً ومقتنعاً بأنها كانت ناجحة وسعيدة، ولله الحمد الذي أعطاني الصحة الكاملة التي أعاننتني على السير دون أي توقف، ومنذ التقاعد إلي غاية يومنا هذا لم أشعر بالملل، فأنا رجل يحب الأسفار والقراءة ولقاء أحبتي من أبنائي وأقاربي، لست ممن يقال عنه بأنه رجل اجتماعي مثل أخي عبد الله الذي تميز بهذه الصفة، لكنني أقوم بالواجبات الاجتماعية التي تتطلب أن يؤديها الإنسان، سافرت كثيراً قبل التقاعد وبعده، ذهبت إلى الصين عدة مرات، ذهبت إلى مغارات قويرين وزرنا مغارة كبيرة قيل لنا بأنها تتسع لأكثر من ١٢٠٠ شخص، أيضاً ما زلت أتذكر فندق نيو وورلد أنتركونتيننتال في بيجين ويقع بين الجبل والبحر في منظر خلاب، أعجبتني أوزبكستان وعاصمتها طشقند ومدينتيها سمرقند وبخارى، وفي طاجكستان التقينا برئيسها أنا وبعض الزملاء، دعانا لتناول وجبة غداء وكان في الصالون الذي استقبلنا فيه عازف موسيقي ماهر، قال الرئيس للعازف إذا أسعدت ضيوفي بعزفك سأتكفل بإرسالك إلى الحج هذا العام، أثناء وجبة الغداء أحضروا لنا خروفاً مشوياً حجمه كبير جداً، أخبرنا الرئيس بأن وزنه يبلغ ١٥٠ كيلوغراماً، قلنا له إذا كان هذا وزنه فعلاً فلا بد أن يكون لحمه قاسياً بسبب عضلاته التي شكّلت كل هذا الوزن الكبير، أجاب الرئيس قائلاً: عليكم بتذوق لحمه... والغريب أن لحم الخروف ورغم وزنه الكبير كان طرياً ولذيذاً، فقال أحد الزملاء: «يا فخامة الرئيس هل من الممكن أن تصدروا لنا أنثى هذا الخروف؟» فأجاب الرئيس بالموافقة، لكنني لا أظن أن زميلي قد تابع مسألة تصدير أنثى الخروف مع الرئيس، أخذنا الرئيس إلى بحيرة كبيرة قال إن بها حوالي ١٧ مليار متر مكعب من الماء و قال لنا إن بإمكاننا أخذ ما شئنا من مياه البحيرة معنا إلى السعودية، قلنا له: «وكيف نحمل مياه البحيرة يا فخامة الرئيس؟» كانت البحيرة عذبة المياه تتغذى من نهري سيحون وجيحون.

ويرتبط السفر في حياتي برجل هو من أعز الأصدقاء وهو خلف العبد الرحمن الخلف، رجل أعمال جمع بين الذكاء والأخلاق الرفيعة والكرم، سافرت معه عدة مرات، واليوم كلما أتذكر تلك الأيام التي قضيناها معاً في دول بعيدة من العالم أشعر بمدى الحظ الكبير الذي حالفني عندما تعرفت على أخي خلف، فهو بالإضافة إلى متعة صحبته كان يتكفل بكافة مصاريف السفر وإن طالت أيامه وبعدت مسافاته، لم أكن أدفع شيئاً إلا نادراً وذلك في أمور كانت تخصني كتذكرة السفر في بعض الأحيان، أما باقي المصاريف فكان هو من يتحملها كاملة، في إحدى المرات التي سافرنا فيها إلى الصين شاهدته كيف كان يمارس أسلوبه التجاري الذكي، كواحد من تجار الملابس الكبار، كان شديد الكرم مع من يعمل لصالحه. في إحدى المرات جمع بعض

مندوبي المبيعات حول مآدبة غداء وكان من بينهم أحد المترجمين، شاهدت اهتماماً بهم وحرصه على راحتهم أثناء تناولهم للطعام الذي نُوِّع في أصنافه من كل ألوان الأطعمة البحرية بكل كرم .

بعد وجبة الغداء تلك سألته عن سر حفاوته بهم وكرمه؟ أجابني بأنهم شركاء في نجاحه ويساعدونه على إنجاز أعماله بأفضل صورة ممكنة وعلى الإنسان أن لا يبخس فضل الآخرين عليه في تحقيق أرباحه، كما أن الناس لا يحبون الشخص البخيل واستشهد بالمثل الشهير: «لا يخدم بخيل». في تلك الرحلة التي بدأت كرحلة عمل زرنا خلالها المعرض الصيني الدولي في كانتون حيث اشترى خلف في يوم واحد مليون قطعة من الملابس، في ذلك المعرض لم أتدخل في شيء عندما كان خلف ووكيله (فارتان) يتفاوضان مع التجار، بل انشغلت بالتعرف على حياة الباعة الصينيين، كنت أسألهم عن ظروف وأسلوب حياتهم التي أوجدها لهم الحزب الشيوعي الحاكم، ذكروا حينها أن الدولة تملك جميع وسائل الإنتاج وتضمن لكل فرد وظيفته وسكنه وتعليم طفل واحد، وعندما سألتهم عن السكن أجابوا أن الدولة تخصص لكل فرد 14 متراً مربعاً مع حمام مشترك و مطبخ مشترك، تخيلت في نفسي ماذا لو كنت واحداً منهم ويعيش بأسلوب حياتهم نفسه؟ كان تخيلاً مرعباً. الجميل أنه بعد زيارة ذلك المعرض كنا نذهب إلى العديد من المقاطعات الصينية من أجل السياحة، ذهبنا إلى سور الصين العظيم الذي زرته مرة أخرى مع وفد مجلس الشورى برئاسة الشيخ محمد بن جبير -رحمه الله-، كنا نقيم نحن أعضاء مجلس الشورى في قصر الضيافة وهو قصر مترف بكل ما تعنيه الكلمة، وبمجرد ما كنا ننهي اجتماعاتنا كنا نذهب إلى السوق الكبير الزاخر بثني أنواع البضائع، في تلك الزيارة أحضر مضيفونا بعد أحد الاجتماعات امرأة تعزف على آلة وترية صينية، كنت أعرف أن الشيخ لا يستحسن المعازف لكنه كان يحترم البروتوكولات وثقافات الشعوب، خصوصاً وأن الصينيين حينها كانوا يحاولون الاحتفاء بنا وإظهار اهتمامهم لنا، اعتقدت بأن الشيخ ابن جبير كان متضايقاً فقلت له: «لماذا لا تطلب منهم أن تتوقف المرأة عن العزف؟» قال: «لا، فهناك فرق بين السماع والاستماع، فنحن نسمع عزفها لكننا لا نستمتع إليه»، وهذا مما أتذكره من سعة أفق الشيخ ابن جبير -رحمه الله- .

أعود لذكريات السفر مع صديقي العزيز خلف العبد الرحمن الخلف الذي كان يتعامل في تجارته مع الصينيين منذ أزمنة قديمة، كانت هونغ كونغ تعد من مصادر بضاعته وتايبيه أيضاً، استغرقت إحدى سفراتنا حوالي 60 يوماً زرنا خلالها الصين قضينا عدة أيام في بيجين وهنجو وشنغهاي ثم سافرنا إلى بروناي وفيتنام وإندونيسيا وتايلند ثم عدنا إلى الرياض عبر البحرين، بعد

تلك الرحلة الطويلة استأجر مني مقراً لشركته، ولم تكن حركة السوق التجارية جيدة حينها فطلب مني أن أخفض له من سعر الإيجار، ولاعتقادي بقدرته المالية ولحاجتي أيضاً للإيجار تكاسلت في الرد عليه مدة من الزمن، بعد ذلك ترك المقر الذي استأجره مني فذهب واستأجر آخر بسعر أقل، شعرت بسوء تصرفي وتحدثت مع زوجتي بخصوص ذلك فعاتبتهني على ذلك كثيراً، لكن سوء تصرفي تجاه صديقي لم يجعله يتخذ موقفاً مني، فلم تتغير معاملته نحوي وظل محباً لي كما عرفته، وهذا ما جعلني أدرك تفوقه علي في المحافظة على روابط الصداقة والأخوة، ولا أستغرب أنه يمثل نبأ تصرفاته تلك قد نال محبة الناس كما أن الله بارك له في تجارته، لدى خلف اليوم مزرعة من أجمل مزارع النخيل في المملكة بها حوالي ٢٥ ألف نخلة من مختلف الأصناف، مازلت على تواصل معه وأدعو الله دائماً أن يوفقه ويحفظه، سافرت إلى كندا حوالي عشر مرات صيفاً وشتاءً حيث كان يتابع ابني الدكتور محمد دراساته العليا والدكتور راشد زوج ابنتي هدى. سافرت أيضاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية مرات عديدة وزرت حوالي عشرين ولاية، أقمت في أنديانا مع زوجتي أم محمد وكان ذلك في شهر رمضان، كانت هناك بقالة صاحبها اسمه كروجر، انتبه كروجر إلى أن التمور التي كانت في بقالته تم شراؤها في يوم واحد من قبل المسلمين، ثم أحضر تموراً مرة أخرى وتم شراؤها جميعها، أصبح يحضر تموراً كل يوم ويبيعها سريعاً، في يوم العيد الأول كانت تموره متكدسة على أرفف المحل مستغرباً من عزوف المسلمين عن شراء التمور فجأة، إلى أن قال له أحد المسلمين بأنهم يأكلون التمور عادة في وجبتي الفطور والسحور خلال شهر رمضان الذي انتهى بالأمس، لا أعلم ما الذي حدث لتمور كروجر وآمل أن يكون قد انتبه لشهر رمضان السنة الموالية. غابنت مدى التحول الذي حدث لسكان تايبيه، زرتها في المرة الأولى وكان معظم سكانها يستخدمون الدراجات النارية، عندما عدت إليها بعد سنوات وجدتهم يركبون السيارات الفاخرة وذلك دليل على الطفرة المادية التي حصلت لهم، إندونيسيا بلد جميل وفيه غابات رائعة، كان لدى صديق إندونيسي من أصل حضرمي وكنت أرسل له التمور كل عام عبر الطائرة ثم عبر الباخرة، قال لي بأن عند الإندونيسيين عقيدة بأن المسلم في شهر رمضان يجب أن يفطر على ثمرة وأنهم يبيعون حصتهم التموينية من السكر مقابل شراء كيلوجرامين من التمور لشهر رمضان، توفي هذا الصديق -رحمه الله- لكنني مازلت أرسل التمور لأخيه عبر الباخرة. سافرت إلى بريطانيا وأقمت مدة في مدينة بريستول وأخذت دورة في اللغة الإنجليزية والإنجليز يتميزون بالصبر، الأمريكان سريعو التعرف على الغرباء، أصيبت ابنة ابني أحمد باللويميا فتطوع أحد الأمريكان بأن يتعهد أحمد وابنته ويقدم لهما المساعدة قدر استطاعته، حتى إنه كان يجلس مع ابنة أحمد خارج المسجد ريثما ينتهي أحمد من صلاة الجمعة، توفيت البنت لاحقاً...

جعلها الله شفيعة لأحمد ولوالدتها، أحبّ الكنديين لأنهم شعب ودود وبلادهم أيضاً منظمة وجميلة، مازلت أحتفظ بلوحة زيتية اشتريتها من الصين، عبارة عن رسمة لديك أنيق، كان منظره جميلاً عندما شاهدت اللوحة، وقد يكون إعجابي باللوحة والدك عائداً إلى كوننا عندما كنا أطفالاً كنا نلعب لعبة لا تصلح لأبناء هذا الجيل كما أنها لا تصلح للديكة، كنا ونحن أطفال نجعل الديكة تتصارع فيما بينها، بعد أن نذهب بعيداً عن أنظار الناس و كان الديك المنتصر في النزال يصير ذا قيمة مرتفعة، كان ذلك للمتعة فقط ولم تكن هناك رهانات كما هو حاصل في بلدان كثيرة، لا شك أن متعتنا كانت على حساب الديكة التي كانت تخوض معارك لا دخل لها بها .



إحدى سفراتي إلى شرق آسيا

(٥٩)

«أم محمد» رفيقة دربي

أحبت الزراعة وعندي ما نسميه ب(الاستراحة) وهو مكان يصممه صاحبه بالطريقة التي يريد لها لتكون مكاناً لراحته وقضاء بعض الأوقات فيه، يوجد لدي في الاستراحة من أجود أنواع النخيل ولدي أنواع مختلفة من الطيور والأغنام، مكان أشعر فيه بالراحة والسكينة، كما لدي في الاستراحة مكتبة

ضخمة جمعت كتبها طوال سنوات عديدة، وفي القراءة متعة وفائدة للقارئ، هكذا أسافر مع الكتب وأقرأ كل أنواع الكتب من الأدبية إلى السياسية إلى كتب السير التي تتحدث عن الأمم ونشأتها وأحوالها، أعجبت بنهضة الصين وأرى أن الدولة اتخذت قراراً صحيحاً عندما بدأت بتعليم اللغة الصينية، لا أعلم إن كانت الصين ستتفوق على الولايات الأمريكية المتحدة لكنها ستكون نداءً لها وآمل أن لا تقوم الحرب بينهما فلن تكون تلك الحرب في صالحنا. أزور غنيزة دائماً وأذهب إلى مزارعها وهي مشهورة بزراعة البطيخ والتفاح الأخضر الصغير، هذا التفاح تحديداً كان يعطي للطفل الصغير الذي يتم تطهيره كجائزة على تحمله الألم ولإشغاله عما هو فيه، أحب مشاهدة شجرة الغضى وهي شجرة محبوبة عند أهل القصيم عموماً ولها مكانة في قلوب الناس، وشجرة الغضى إن لم تزل الأغصان اليابسة منها تموت، لذلك هي شجرة كريمة فهي تهدي الناس بعض الحطب اليابس حتى يتدفؤوا به أو حتى عندما يشعلوا به النار لأغراض أخرى، وحطب الغضى يمنح الدفء كما أن رائحته طيبة، وهي شجرة تتحمل العطش ولا يتجاوز طولها عادة أكثر من مترين ونصف، وحسب ما قرأت فإن القصيم هي الأرض التي تنبت الغضى، وعندما ذهبت في إحدى المرات إلى الجوف وجدت هناك شجرة الغضى في أرض تسمى بالقصايم، في كل عام يقام في القصيم مهرجان يسمى بمهرجان الغضى تكريماً ومحبة لهذه الشجرة الغالية على قلوب أهل القصيم، والقلوب إذا أحببت فهي تعطي الكثير، والمحبة دائماً ما يكون لديه طاقة عطاء كبيرة، سواء لزوجته وأبنائه أو عمله، كان الملك عبد الله -رحمه الله- محباً لشعبه وكانت عنده طاقة للعمل استمدتها من هذه المحبة، في إحدى المرات كان مسافراً إلى فرنسا وسمع عن مرض في جازان يسمى مرض الوادي المتصدع، صعد طيارته من مدينة كان الفرنسية ونزل في جازان، حتى إنه لم يلبس الكمامة الطبية بينما كان وزير الصحة يضع واحدة، والحب مولد للخير والبركة حتى بين الزوجين، وهو يشبه الكائن الذي يكبر مع الأيام حتى يصبح كبيراً للدرجة التي لا يعود ممكناً وصف حجمه، هذا ما حصل بيني وبين زوجتي أم محمد، فأنا عندما تزوجتها لم أكن قد رأيتها قط قبل الزواج، لكن حبها كبر مع الأيام، في كل يوم يزيد ويكبر، ومع مرور السنين أصبح حباً لا حدود له، يمتد في قلبي إلى ما لا نهاية، لكن العمر له نهاية، هذه هي الحقيقة الموجهة التي تأخذ أحبتنا منا، قبل خمس سنوات مرضت أم محمد، بدأنا نشعر بأنها تفقد قوتها، كان جسدها قد ضعف وبعد إجراء عملية لها لم تكن تستطيع أن تتحدث، كانت تشير بيدها وهي على سرير المرض، كنت أزورها في المستشفى ثلاث أو أربع مرات كل يوم، أستمر ذلك حوالي الشهرين، في المرة الأخيرة أشارت لي بأنها تريد أن تتحدث... أن تقول لي شيئاً، لم تستطع، لكنني قلت لها أنت لا تستطيعين أن تتكلمي لكن الله يستطيع معرفة ما تريدين فأشارت بيدها نحو الأعلى وكأنها توجه

حديثها أو دعائها إلى الله سبحانه، شعرت بالبرد وتم تغطيتها فقال لي أحد الأطباء بأن ذلك مؤشر غير جيد، ما إن وصلت إلى البيت حتى اتصل بي أبنائي طالبين عودتي إلى المستشفى، في طريق عودتي كنت أشك بشيء ما، تحدثت مع أحد أبنائي وسألته: «راحت»؟ فأجابني بنعم، دخلت إلى غرفتها وطلبت من الجميع الخروج، جلست أشاهدها وأنظر إلى وجهها وبكيت وقيمت بالدعاء لها، بكيت حب حياتي، المرأة التي كانت صاحبة فضل بعد الله على ما أنا وأبنائي عليه، المرأة التي حرصت دائماً على أن أكون في أفضل حال، ابتسامتها وهي تستقبلني أثناء دخولي البيت، دعاؤها وأنا ذاهب إلى عملي، صوتها الدقيق وابتسامتها المطمئنة، أتذكر قبل سنوات طويلة وعلى سبيل المزاح كانت تقول بأنها ستموت قبلي، وأنا أقول لها بأني سأموت قبلها، كانت ترد علي: «لا أنا من ستموت قبلك وفراشك والم»، أي إنه جاهز للزواج بأخرى بعد موتها، ما إن رحلت حتى شعرت بأن أشياء كثيرة في حياتي قد تغيرت، حياتي التي كانت جزءاً منها طوال سنوات العمر، أتذكرها كل يوم، أجلس في مكانها الذي كانت تجلس فيه في البيت، أذكر تلك التفاصيل التي لم أنسها، حديثها في تلك الليلة التي رأيتها فيها للمرة الأولى وخرجها الظاهر على وجهها، قوتها في فرض شخصيتها حتى نعيش في بيت منظم وسعيد، عطفها على أبنائها وحرصها على راحتهم، سعيها الدائم الذي لم يضعف في متابعة دراسة أبنائها، زوجتي أم محمد هي من ساهمت في وصول أبنائي إلى ما وصلوا إليه، عاشت حتى رأت أبنائها وهم في أعلى المراتب العلمية التي ساهمت هي في إيصالهم إليها، ابنا محمد دكتور استشاري أمراض النساء، وعبد الرحمن دكتور استشاري الغدد الصماء حاصل على دكتوراه من كندا ودكتوراه من أمريكا ووصل إلى درجة بروفيسور، وأحمد دكتور استشاري الأمراض الجلدية، ويوسف -رحمه الله- كان مهندساً مديناً وتوفي أثناء تحضيره للدراسات العليا، وهدى حصلت على بكالوريوس الاقتصاد وحصلت على المركز الأول في كليتها متفوقة على زملائها البنين والبنات، عرض عليها بنك سامبا وظيفة لكنها فضلت التركيز على شؤون بيتها ولاحقاً عملت كرئيسة للقسم النسائي في مركز الملك سلمان الاجتماعي وعملها في المركز تأتي بسبب حبها للعمل الاجتماعي، ساهمت هدى مساهمة كبيرة في إنشاء المركز وتطويره وتنظيمه ثم تفرغت مرة أخرى لشؤون بيتها وأحفادها، لن أستطيع أن أصف محبتي لزوجتي أم محمد -رحمها الله-، وكلماتي لتبدو صغيرة أمامها وأمام فضلها علي وعلى أبنائها، بعد رحيلها قمنا ببناء مشروع كبير في أندونيسيا بمبلغ ٧٠٠ ألف ريال، عبارة عن مدرسة ومأوى للأيتام مع وجباته الثلاث اليومية وجامع كبير ومحلات تجارية يأخذ مدخولها ويصرف على المشروع، ذهب أبنائي الدكتور محمد والدكتور عبد الرحمن وافتتحا المشروع ونسأل الله أن يكون في ميزان حسنات أم محمد، الزوجة الطيبة الصالحة التي لم يفارق أيامي رغم رحيلها،

حتى أن اسمها لم يفارقني في مشاويري اليومية وأنا في السيارة، ذلك أنني اخترت الحروف في لوحة سيارتي على اسمها ح ص ه (حصه).



أقف أقصى يسار الصورة في إحدى الرحلات الشتائية

(٦٠)

مد لحافك على قد رجلك!

أكثر فترة أشتاق إليها وأنا في هذا العمر هي مرحلة التدريس في الجامعة، ولو أنني سألت عن أحب الأعمال إلى قلبي من بين المجالات التي عملت فيها لقلت التدريس، وما زلت إلى يومنا هذا ألتقي صدفة ببعض الرجال الذين يستوقفونني للسلام علي قائلين بأنهم كانوا من طلبتي، التدريس جعل لي أصدقاء في كل مكان، لم أكن معلماً قاسياً ولم أتكبر يوماً على الطلاب، عاملتهم مثل أبنائي وحاولت قدر المستطاع أن أوصل إليهم المعلومة بأفضل طريقة يسودها الود والاحترام، أعطيت الكثير من الطلبة الدرجات التي يحتاجونها حتى لا يعيدوا المادة من أجل بعض الدرجات القليلة التي أعلم بأنهم يستطيعون الحصول عليها لو أنهم بذلوا مجهوداً أكبر، وربما كانت لديهم بعض الظروف التي أثرت عليهم وعلى درجاتهم، وقد يكون بعضهم لم

يحسن إدارة الوقت، وإدارة الوقت من أهم عوامل نجاح الإنسان الحريص على إنجاز العمل، ومن يحكم إدارة وقته يستطيع السيطرة على معظم أمور حياته، وللأسف في عالمنا العربي لدينا الكثير من الوقت المهدور مع طول اللسان من دون نتيجة تُذكر، يقاس مستوى الدول بمستوى تعليمها، فاليابان بلد لا موارد في أرضها ولا معادن، لكن العلم ساعدهم في ما وصلوا إليه، العلم الذي قال لهم بأن النظام والانتظام من أساسيات النجاح، اهتموا بالصناعة دون النظر الى معتقدات بعضهم البعض فبنوا دولة أصبحت من الدول الصناعية العظمى، لذلك أدعو الشباب إلى إدراك أهمية الوقت وأدعوه إلى الدخول في سوق العمل الخاص، ولا عيب في العمل في أي مجال لم يحرمه الله، وذكاء أهل القصيم المعروف بالتجارة جاء بعد ممارستهم للتجارة منذ زمن طويل ولأنهم دخلوا عالم التجارة فقد أصبحت لديهم هذه الثقافة التجارية، وفي التجارة مهارات يستطيع الإنسان تعلمها واكتسابها، أنا متفائل بمستقبل المملكة الذي يتجه نحو الازدهار، وفي المملكة ثروات لم تستغل لغاية الآن لكنها في الطريق إلى ذلك، لدينا آلاف المعادن ومجال كبير للسياحة ومجالات مبشرة للطاقة الشمسية، ولا شك أن التوجه للتعليم الفني له ضرورته القصوى حتى يصبح المتخصصون مهرة وحتى يتقلد أبناء المملكة العمل في المصانع وأن لا يتم الاعتماد في مصانعنا على العمال الأجانب، قد يقال بأن السعوديين يطلبون رواتب أعلى من الأجانب وهذا أمر طبيعي لأن السعودي يصرف أمواله في السعودية بينما العامل الأجنبي يوفر أمواله حتى يصرفها في بلده دون أن يستفيد منها السوق السعودي.

النجاح أمر ممكن دائماً، لكن المثل القائل (مد لحافك على قد رجلك) قد يبدو مثلاً تقليدياً لكن تقليديته لا تنفي صحته، على الإنسان أن لا يطمح كثيراً بشيء لا يستطيع تحقيقه، والإنسان إذا اقتنع في البداية بعمله يستطيع مع الوقت أن يوسعه، مكتبة جرير(100) مكتبة معروفة ومنتشرة في كافة أنحاء المملكة، عندما كنت أسكن في الملز كانت مكتبة جرير بعرض باب واحد، أي لا يتجاوز عرضها المترين وكانت بطول أربعة أمتار تقريباً وكانت تبيع الأدوات المكتبية، من ذلك الدكان الصغير إلى أن وصلت إلى هذه الإمبراطورية التي تجاوزت حدود المملكة ووصلت إلى دول مجاورة، كان الصبر والاجتهاد و(مد للحاف) على قدر الأقدام والتوسع التدريجي من أهم أسباب نجاحهم وققهم الله.

(٦١)

زوجة ثانية!

بعد وفاة أم محمد بسنوات كنت في فترات كثيرة أشعر بالوحدة رغم محبة وقرب أبنائي مني، وقد كبرت في العمر ولم تعد حركتي الجسدية كما كانت، هذا ما يفعله التقدم في السن، أصبحت كثيراً ما أتوكأ على العصا، وشاءت الأقدار أن أتزوج قبل مدة من إحدى قريبات أم محمد واسمها لولوة بنت محمد بن إبراهيم التركي، وهي امرأة مثقفة ومعلمة متقاعدة، وزوجتي لولوة امرأة فاضلة وحريضة على أن أكون دائماً راضياً، وهي ماهرة في ترتيب البيت وتنسيقه وكريمة ترضي من يقدم خدمة لنا، وأشعر بمحبتها وهي تهتم بكل شؤوني وتساعدني في كل شيء خصوصاً وأنا في هذا السن المتقدم، وهي من عائلة زوجتي السابقة من جهة الأم، كما أنها أخت أم عبدالله زوجة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، زوجتي لولوة تحترم وتقدر أم محمد كثيراً -رحمها الله-، حتى إنها تسمى البيت الذي نساكن فيه بيت أم محمد، وإذا ذكرت أم محمد تقوم بالدعاء لها، ومن صفاتها أنها امرأة اجتماعية تحرص على جمع الأسرة ودعوتهم للاجتماع إما في بيتنا أو الاستراحة الواقعة في منطقة السلي، أزور أخي عبد الله دائماً ويزورني أبنائي وأحتفي بأحفادي كلما رأيتهم، عمري الآن قارب الـ ٩٤ عاماً، لكنني أعيش بفضل الله بهدوء وطمأنينة، وتملؤني صور السنوات الطويلة الماضية التي أحمد الله أني عشتها، وأنا ممن حالفهم الحظ الذين أكرمهم الله بأنهم ولدوا وعاشوا في عهد دولتنا الزاهر والذي كانت حريضة فيه على مصالح الأمة والشعب، كلما التقيت بأحفادي أقول لهم ما سأقوله لكم الآن، دافعوا عن بلدكم قدر ما تستطيعون وردوا على كل من يحاول النيل من حكومتنا وقولوا لكل المنتقدين من الخارج بأنها حكومتنا ونحن راضون بها ولا علاقة لكم بشؤوننا، وأقول لكم كما أقول لأحفادي أن تحافظوا على صحتكم لكي تعيشوا حياة تملؤها القوة ويصبح جسدكم سليماً يعينكم على تحقيق طموحاتكم في الحياة، لم أدخن السجائر يوماً، حتى أبنائي لم يدخنوا السجائر وآمل من كل من يقرأ هذه الكلمات أن لا يجرب يوماً التدخين، وأن يمتنع عنه إذا كان مدخناً، فالحياة الصحية مكسب كبير للإنسان.

(٦٢)

بالحب تحيا الذكريات!

كان والدي -رحمه الله- يحقق معنا ونحن أطفال صغار لمعرفة إذا ما كنا قد ذهبنا للصلاة في المسجد أم لا، كان يسألنا عن اسم الذي كان يصلي بجانبنا، وفي بعض الأحيان إذا نحن لم نذهب إلى المسجد للصلاة كنا نضع بعض التراب على جباهنا كدليل على صلاتنا، حرصت على أن يلتزم أبنائي

بصلواتهم والمحافظة عليها، وأدّت أم محمد -رحمها الله- دوراً كبيراً في ذلك ونجحنا والله الحمد في زرع حب الصلاة في قلوبهم، وأشعر أن نجاحي في علاقتي مع أبنائي جاء بفضل تعاملي وكأني واحد منهم، لم أفرض أوأمري، كانت أشبه بالشورى، ومازلت إلى غاية اليوم أستشيرهم وأخذ برأيهم، لم أنظر يوماً للمال الذي في أيديهم ولم أتدخل حتى في تسمية أحفادي ولم أقترح عليهم أي اسم، عشت معهم في حب، والحب هو الحياة، والقلب الذي لا يحمل الحب هو أقرب إلى الجفاد، ولكل باحث عن الراحة أقول له إن الحب هو من يريح الإنسان، وأنا كنت أشعر بهذا الحب وأعيشه مع أبنائي ومع زوجتي أم محمد ومع زوجتي لولوه وجميع أشقائي، الحب هو من أبقى كل هذه الذكريات في ذاكرتي، الذكريات التي ذكرتها لكم، الذكريات التي تمر أمام عيني لتعيدني كثيراً إلى حارتنا الصغيرة في سوق الخننة في عنيزة، بيتنا الطيني، الشيب الذي في لحية أبي، يده الدافئة وهو يمسك بيدي متجهاً بي نحو المسجد لأنضم لدروس الكتاب، أطفال الحارة ونحن نلعب في التراب، وجه أمي وصوتها وهي تعاتب طفلاً قام بضربي: «ما لقيت غير عبد العزيز تضربه ... ما لقيت غير جمار كبدي»؟

بعد أسابيع قليلة من كتابة هذا الكتاب، أصابت العالم جائحة كورونا، وأحمد الله أنني عشت أكثر من ٩٠ عاماً نعمت خلالها بالصحة والسلامة، وأسأل الله أن تزول هذه الجائحة ويمنّ علي الجميع بالصحة والطمأنينة، أشكر الله الذي وفق دولتنا في إدارة هذه الأزمة بكل حكمة وكانت مثلاً رائعاً بين الدول في الحرص والحفاظ على سلامة مواطنيها وكل من يعيش على هذه الأرض الكريمة، حفظكم ورعاكم الله يا أحبتي.

هيئات مجلس الوزراء ثلاث: ١- الديوان الملكي ٢- الأمانة العامة لمجلس الوزراء ٣- هيئة الخبراء تعمل على دراسة الأنظمة والقوانين والسياسة السعودية الداخلية، نشأت عام ١٣٧٣ هجري.

مجلس الشورى أسس في عهد الملك عبد العزيز آل سعود عندما أعلن توحيد المملكة العربية السعودية، وأصدر أوامره بإعلان اسم المملكة العربية السعودية، وأعلن التعليمات الأساسية التي نصت على استخدام مبدأ الشورى أسلوباً للنصح لولي الأمر، وليس للمجلس أي سلطات فعلية، بل كل ما يقدمه عبارة عن توصيات في انتظار اعتمادها من مجلس الوزراء الذي يرأسه الملك.

عنيزة أقدم مدن منطقة القصيم، وهي ثاني أهم مدينة في المنطقة. ويرجع سبب تسميتها بهذا الاسم إلى تل (أكمة) الذي كان يكتسب اللون الأسود،

وكان العرب يطلقون على الأكمة السوداء كلمة العنز بضم العين وسكون النون، واسم عنيزة تصغير لهذه الكلمة، وعنيزة محافظة أكسبها موقعها الجغرافي أهمية خاصة لأنها تتوسط المسافة بين بلاد العراق وفارس ومع مكة المكرمة والمدينة المنورة مما جعلها محطة استراحة لحجاج تلك الجهات.

الخنيني مأخوذه من الخنه وهي العطر ورائحة الطيب.

سوق الطمان هو سوق قديم في عنيزة كان يقام على أرض منخفضة ذات طين جاف وكان يطلق عليها طامن أي منخفض.

معركة السبلة حدثت في ١٣٤٧-1929 بين مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها بقيادة الملك عبد العزيز آل سعود وبين قوات الإخوان بقيادة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد في روضة السبلة ما بين الأرتاوية والزلفي انتهت بانتصار قوات عبد العزيز آل سعود.

العيارية: لقب يرتبط ببعض يحمل صفاتهم أو مواقف مارسوها، الأمر الذي يجعلها صفة تلازمهم في بعض مراحل حياتهم.

عبادان مدينة تقع في محافظة خوزستان في جنوب غرب إيران، كانت ميناء في العصر العباسي وتعتبر مركزاً عالمياً لتكرير النفط.

ساكوني فاكوم تعرف حالياً باسم (موبيل mobil)، تأسست في 1892م وهي شركة نفط أمريكية كبرى، اندمجت مع شركة إكسون في عام 1999م تحت اسم إكسون موبيل، وكانت في السابق واحدة من الأخوات السبع التي سيطرت على صناعة النفط العالمية منذ منتصف عقد 1940 حتى عقد 1970م.

النقطة الرابعة بعد نجاح الرئيس الأمريكي هاري ترومان في تولي الرئاسة لفترة ثانية حدّد سياسة بلاده الخارجية في أربع نقاط أساسية، وتهدف النقاط الأربع إلى زيادة النفوذ الأمريكي في العالم، وقد كانت النقطة الرابعة هي الأهم والأكثر تأثيراً في السياسة الخارجية حيث تضمنت أفكاراً ووسائل جديدة مكّنت الولايات المتحدة من زيادة نفوذها وتدخلها في دول العالم من خلال سلسلة من برامج المساعدات الغذائية والصحية ومشاريع البنى التحتية.

صعافيق منطقة تابعة لمحافظة المذنب بمنطقة القصيم تتميز بوجود مواقع خلابة من كتبان رملية، وروضات خضراء، وأشجار، وواحات صغيرة؛ وهو ما

جعلها أحد أجمل المواقع الصحراوية والمتنزهات البرية التي يقصدها السياح في المنطقة.

المكن تطلق على الجرادة عندما تكون مناسبة للأكل.

قبيلة بني حسن من العشائر المعروفة على زمن ليس بالبسيط من التاريخ وهي من أكبر العشائر الحالية في الأردن، وتعود بنسبها إلى الأشراف من الحسينيين الجعافرة (نسبة إلى جعفر الصادق).

بقشة: رداء توضع فيه الملابس وتحزم أطرافه ببعضها لحفظ الملابس في الحل والترحال.

أدباء المهجر هم شعراء عرب عاشوا ونظموا شعرهم وكتاباتهم في البلاد التي هاجروا إليها وعاشوا فيها، ويُطلق هذا الاسم عادة على نخبة من أهل الشام وخاصة اللبنانيين المثقفين الذين هاجروا إلى الأمريكيتين (الشمالية والجنوبية) في ما بين 1870 حتى أواسط 1900م.

الحنيبي حلوى سعودية، تشتهر في منطقة نجد ويؤكل في موسم الشتاء خاصة. يُصنع الحنيبي من الممروس من التمر، والطحين، الأسمن أو الزبدة، والهيل المطحون، والزعفران، ويتميز بطعم التمر اللذيذ.

الشعيب جمعها شعبان مصطلح عام يطلق على الوادي الجاف الذي تجري فيه المياه في مواسم الأمطار فقط. وأحياناً يطلق عليه اسم وادي. لكن هذا المسمى يشمل المكان الذي تجري فيه المياه بصورة مستمرة كالأنهار.

الليوان مساحة مفتوحة في مبنى المنزل على شكل مستطيل، تحيط بها ثلاثة جدران وسقف محمول على أعمدة، ويستخدم عادةً لاستقبال الضيوف خلال فترة الصيف.

مسجد أم حمار تأسس هذا المسجد عام 1105هـ، ويقع في شرق عنيزة القديمة، وسمي بهذا الاسم لوقوعه في حي أم حمار، والذي سمي بذلك لوجود بئر تسقي منه امرأة بحمار لها.

عشبان النخل وتعني جريد أو سعف النخل.

الكتاب المكان الأساس لتعليم الناشئة المسلمين حفظ القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة قديماً.

الخريزة حي من أقدم الأحياء بعنيزة تمت إزالة الحي بهدف تطور المحافظة.

الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ويعرف بابن سعدي ولد عام 1307 هـ في بلدة عنيزة في القصيم، تربي يتيمًا ولكنه نشأ نشأة حسنة، قرأ القرآن وحفظه عن ظهر قلب، وأتقنه وعمره إحدى عشرة سنة، ولما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين عاماً جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم، تميز بمعرفته التامة في الفقه أصوله وفروعه، تتلمذ على يديه أشهر الشخصيات منهم الشيخ محمد بن صالح العثيمين والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام، توفي رحمة الله عام 1376 هـ.

الدكتور عبد العزيز بن عبد الله بن علي الخويطر، وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء السعودي ولد عام 1918م في عنيزة وتوفي عام 2014م ويعتبر عميد الوزراء السعوديين ورجل دولة وسياسياً محنكاً.

الحلال هو كل شيء أحله الله للإنسان لما فيه من نفع والمقصود به هنا الأهل وما يملكون من بهيمة الأنعام كالغنم أو الإبل وغيره.

الحرب العالمية الثانية بدأت في الأول من سبتمبر من عام 1939م وانتهت في الثاني من سبتمبر عام 1945م .

الرس مدينة رئيسية تقع في غرب القصيم وهي من المدن المعروفة في نجد ومن أقدم المواقع التي ورد ذكرها في كتب البلدان القديمة، موجودة قبل البعثة النبوية بأكثر من 300 سنة، وهي من أهم مدن المملكة العربية السعودية وتمتاز على غيرها من المدن بموقعها الهام وهوائها العليل ومائها العذب، وهي من أعرق مدن منطقة ! وفيها مركز تجارى هام.

عبد الله بن سليمان الحمدان أول وزير سعودي، ولد عام 1884م في عنيزة بمنطقة القصيم، درس مبادئ العلوم الضرورية في كتاتيبها، كان عصامياً فبدأ بالتجارة، بعدما مرض أخوه أناب عنه في عمله يأتين من الملك عام 1917م، وقع باسم المملكة العربية السعودية أول اتفاقية تنقيب عن النفط عام 1933م، تبرع بقصره الأول بجدة لصالح وزارة التعليم والذي كانت تعرف بالقصور أو المدارس السبعة، وقبل وفاته عام 1965م قرر أن يهب قصرة ومزرعته لإقامة أول جامعة خاصة بالمشاركة مع تجار جدة، وبطلب منه سميت جامعة الملك عبد العزيز.

القطعة عملة عثمانية من نحاس ومكتوب عليها ضرب في القسطنطينية.

ماريا تيريزا (١٧١٧-١٧٨٠م) الإمبراطورة الرومانية المقدسة وملكة المجر وبوهيميا، وأميرة من الأسرة الإمبراطورية النمساوية، كان لها ١٦ من الأبناء والبنات، كانت إحداهن ماري أنطوانيت ملكة لفرنسا.

النعمان بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي، الملقب بأبي قابوس، من أشهر ملوك المناذرة قبل الإسلام.

عامر بن الطفيل فارس قومه وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم.

حافظ إبراهيم محمد حافظ إبراهيم ولد في محافظة أسيوط عام ١٨٧٢م، شاعر مصري ذائع الصيت. عاصر أحمد شوقي ولقب بشاعر النيل وبشاعر الشعب، توفي عام ١٩٣٢م عن عمر ناهز ٦٠ عاماً.

شاعر وفقيه ولد وتوفي في بغداد ٣٥٩-٤٠٦هـجري.

الجمعية الخيرية الصالحية تأسس هذا الصرح عام ١٤٠٣هـ وهو يحمل اسم المربي الفاضل الأستاذ صالح بن ناصر الصالح -رحمه الله- المولود في عنيزة عام ١٣٢٢هـ، مؤسس أول مدرسة أهلية بعنيزة، وبفكرة من تلميذه الوفي معالي الأستاذ عبد الله بن علي النعيم تم تأسيس هذا الصرح الشامخ الذي خلد اسمه.

بريدة هي مقر الإمارة في منطقة القصيم وأكبر مدنها حيث تبلغ مساحتها ٢٩٠.٦ كم ٢ ويتجاوز عدد سكانها (نصف مليون نسمة)، وتقع في الجزء الأوسط الشرقي من منطقة القصيم، على حافة وادي الرمة، وتشتهر مدينة بريدة بالزراعة وكثرة المزارع التي تنتج التمور.

عبد الله بن حمود الطريقي، ولد في مدينة الزلفي في سنة ١٩١٨م سياسي سعودي ومسؤول حكومي، كان أول وزير نفط سعودي يعينه الملك سعود، شارك في تأسيس منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك)، توفي في القاهرة سنة ١٩٩٧م ودفن بالرياض.

المنيفية مزرعة لعائلة البسام في عنيزة.

الفيضة هي المكان المُحاط من جميع الجهات بالمرتفعات وتجتمع فيها المياه حيث تمتلئ بالمياه التي تنسال عليها.

زنبيل أو وعاء من الخوص وسعف النخيل لحمل البضائع.

الشوزن سلاح ناري مصمم غالباً للإطلاق منه بإسناده على الكتف، متنوع الأحجام.

التابلاين خط أنابيب نفطي يمتد من القيصومة (جنوب شرق حفر الباطن) شمال المنطقة الشرقية حتى ميناء صيدا في جنوب لبنان، وهو أكبر خط نفطي في العالم، ومعبّر نقل النفط من السعودية إلى أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، تم إيقاف استخدامه بعد ١٩٦٧م.

حزم الجلاميد قرية تقع في شمال السعودية.

تنكة كليجا التنكة وعاء من الصفيح والكليجة هي أقراص كعك مجوفة تصنع من الدقيق وتُحشى بالتمر أو العسل.

أبو مشعاب ميناء صغير يمتد في مياه الخليج العربي في المنطقة الشرقية.

المشلة : عصى تُستخدم لرفع رجل الطالب لضربة، وتعرف أيضاً بالفلكة.

الونانة نخلة مشهورة في مزارع المدينة المنورة وتزرع بكثرة في منطقة القصيم وتتميز بغزارة الإنتاج وطول شماريخها وتمرها ذو لون أحمر.

العبس: نواة التمر.

الفريخ وتسمى أيضاً بالفسائل.

نبتة العلي يُزرع هذا الصنف من النخيل في منطقة القصيم والوسطى ويختلف حجمها من الكبير الى المتوسط، وتوجد في الأراضي السبخة والرخوة.

سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي ولد عام ٧٦٥م يُكنى بأبي بشر، وهو إمام النحاة، وأول من بسّط علم النحو.

موكر هو صحن نحاسي يستخدم قديماً لتقديم الولائم.

قمر الدين: مشمش مجفف على شكل عجينة .

البرقان: جمع إبريق الشاي.

مجلة المصور واحدة من أقدم المجلات التي أصدرتها دار الهلال المصرية.

آخر ساعة مجلة أسبوعية مصرية مصورة، أسسها محمد التابعي وبدأ
صدورها عام ١٩٣٤م.

روز اليوسف مجلة مصرية أسبوعية تصدرها مؤسسة روز اليوسف، بدأت في
الصدور في ٢٦ أكتوبر عام ١٩٢٥م.

مجلة شهرية ثقافية مصورة. تصدرها وزارة الإعلام الكويتية.

مذكرات هتلر: سيرة ذاتية لآدولف هتلر صدر المجلد الأول عام ١٩٢٥م
والمجلد الثاني عام ١٩٢٦م.

الشيخ العلامة صالح العثمان القاضي الذي عاش بين عامي ١٢٨٢ و١٣٥١هـ،
يعد أحد أبرز أعلام وقضاة مدينة عنيزة معروف ومشهور بكونه عالماً فاضلاً
فقيهاً على مستوى عنيزة وخارجها، إضافة إلى كونه قاضياً من قضاة عنيزة
المشهورين والمشهود لهم بالفضل والسداد، وهو أحد أشهر علماء نجد وأحد
القضاة البارزين في عصره سافر لطلب العلم ودرس في جامع الأزهر في
مصر ثم أكمل دراسته في مكة المكرمة، كما كان له مراسلات مع بعض علماء
المسلمين وكان له جهود كبيرة في نشر العلم في عنيزة، حيث كان له دروس
علمية لطلابه في الجامع الكبير بعنيزة عن طريق حلقات العلم للدراسة على
يده.

ألفية ابن مالك والمسماة أيضاً بـ «الخلاصة» هي متن شعري من نظم الإمام
محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبالي.

سورة الملك، الآية 30.

البدائع هي إحدى محافظات منطقة القصيم وتعتبر من المحافظات الزراعية
لوفرة المياه فيها.

السره هي قرية سعودية تقع في [منطقة الرياض](#) ، وتبعد عن محافظة
الدوادمي بمسافة تقارب ١٣٥ كم.

القاضي عمر بن سليم، من ولد سليم من حرب، ولد في بريدة عاصمة منطقة
القصيم عام ١٢٩٩هـ. نشأ في بيت علم وفضل ودين ورعاية دينية في القصيم
توفي في ذي الحجة من عام ١٣٦٢هـ.

الدارمي هو ربيعة بن عامر التميمي، الشهير بمسكين الدارمي، وهو أحد سادات قبيلة بني دارم التي كانت توجد في العراق في عهد الدولة الأموية، تُوفّي سنة ٨٩ للهجرة. صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها: «قُلْ للمليحة في الخمار الأسود».

وادي ذي الرمة وهو المعروف بوادي القصيم. وهو أهم ظاهرة طبيعية في المملكة العربية السعودية وذلك لانتساع عرضه وطوله وسيطرته على مساحة شاسعة إذ يعبر السعودية من الغرب إلى الشرق، وهو أطول أودية شبه الجزيرة العربية إذ يبلغ طوله ٥٣٩ كم.

الحميسة أكلة شعبية شهيرة يتم إعدادها من اللحم والشحم.

السامري فن غنائي شعبي.

سجاد خكرية: سجاد يحاك يدوياً ذو لون أسود وأحمر مخطط بالعرض.

سليمان صالح العليان ولد في مدينة عنيزة (١٩١٨-٢٠٠٢م)، أحد أبرز رجال الأعمال السعوديين في فترة ما بعد الطفرة النفطية، مؤسس مجموعة العليان.

الدوشق فراش للنوم مصنوع من القماش ومحشو بالقطن.

السليق أكلة سعودية شعبية تتكون من اللحم والأرز والحليب.

القرصان أكلة شعبية نجدية قديمة يتم إعدادها بخبز عجينة الدقيق وطبخها مع اللحم والخضار.

التريك أو الإتريك: من أدوات الإضاءة القديمة التي كانت سائدة في الماضي.

الدينمو اسم يطلق على المولد الكهربائي.

المشاح: البشت، وهو [عباءة رجالية](#).

السرهي [قرية](#) سعودية تقع في [منطقة الرياض](#)، وتبعد عن محافظة الدوادمي بمسافة تقارب ١٣٥ كم.

بقل الأقط: الجميد، لبن مجفف.

الوثارة ما يوضع على الحمار أو الفرس كالمخدة يجعل كالسرج.

محمد بن إبراهيم السبيعي ولد في عنيزة عام ١٩١٥م رجل أعمال بارز وأحد رجالات العمل الخيري بالمملكة.

عبد الله الصالح العثيمين (١٣٥٥-١٤٣٦هـ / ١٩٣٦-٢٠١٦م) مؤرخ سعودي، والأمين العام السابق لجائزة الملك فيصل العالمية، وقد كان عضواً في مجلس الشورى خلال الأعوام ١٩٩٩-٢٠٠٩م، أمضى قرابة ٢٨ عاماً في مضمار التعليم الأكاديمي.

معالي الشيخ ناصر بن حمد المنقور ١٩٣٠م تولّى العديد من المناصب منها المدير العام لوزارة المعارف، سفير خادم الحرمين الشريفين لدى بريطانيا. توفي في يوليو سنة ٢٠٠٧م.

مدرسة الأورمان تشتهر هذه المدرسة باستقبال الأوائل، نظراً لما تميّزت به من احتوائها على أفضل المدرّسين، فضلاً عن النظام التعليمي المتّبع فيها.

إسماعيل ياسين، 1912-1972م ممثل كوميدي مصري.

عمر الحريري (١٩٢٦ - ٢٠١١)، ممثل مصري.

سورة القصص، الآية 85.

حرب ١٩٦٧م هي الحرب التي نشبت بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا والأردن بين ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧م والعاشر من الشهر نفسه، وأدت إلى احتلال إسرائيل لسيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والجولان وتعتبر ثالث حرب ضمن الصراع العربي الإسرائيلي.

أحمد سعيد: ١٩٢٥-٢٠١٨م- هو مذيع مصري اشتهر في حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

المسجد الإبراهيمي : أو الحرم الإبراهيمي الشريف، و يقع في البلدة القديمة لمدينة الخليل جنوب الضفة الغربية في فلسطين.

غازي عبد الرحمن القصيبي (١٩٤٠ - ٢٠١٠م) شاعر وأديب و سفير ووزير سعودي.

عبدالله القصيمي (١٩٠٧ - ١٩٩٦م) كاتب ومفكر سعودي .

الدكتور مطلب النفيسة، وزير دولة وعضو مجلس الوزراء بالمملكة العربية السعودية. ولد عام ١٩٣٧ م.

الدكتور جبارة بن عيد الصريصري الجهني: وزير النقل السابق.

إبراهيم بن عبدالعزيز بن عبدالله العساف، ١٩٤٩م، تقلد عدة حقائب وزارية.

حرب أكتوبر: هي حرب شنتها كل من مصر وسوريا على إسرائيل عام ١٩٧٣م وهي رابع الحروب العربية الإسرائيلية. وقد ساهمت في الحرب بعض الدول العربية سواء بالدعم العسكري أو الاقتصادي.

خط بارليف هو سلسلة من التحصينات الدفاعية التي كانت تمتد على طول الساحل الشرقي لقناة السويس. بُني من قبل إسرائيل بعد احتلالها لسيناء بعد حرب ١٩٦٧م، كان الهدف الأساس من بناء الخط هو تأمين الضفة الشرقية لقناة السويس ومنع عبور أي قوات مصرية إليها.

القطارة رطب لونه أسود شديد الحلاوة.

محمد بن جبير: وزير وفتيه سعودي، ولد عام ١٣٤٨هـ.

مكتبة جرير: تأسست في الرياض عام ١٩٧٤م.